



Ministry of Higher Education and Scientific Research

Ziane Achour University of Djelfa



Faculty of literature languages and arts

Department of Arabic language and literature

*The world vision in the Algerian novel of French expression
"The poor man's son, the earth and the blood, the rising paths"
of Mouloud Feraoun
-Genetic structural study-*

Doctorate in literature

Specialty: Contemporary Algerian Criticism

Prepared by :

Miloud Homida

Supervised by :

Dr. Tayeb Laterchi

Discussion Committee:

Full name	Scientific Rank	Original University	Character
Prof. Mesaoud Abdelwahab	Professor	Ziane Achour University of Djelfa	Chairman
Dr. Laterchi Tayeb	Lecturer (A)	Ziane Achour University of Djelfa	Supervisor And reporter
Prof. Zrarka elwakal	Professor	The university Center of Aflou	Member
Dr. Mohamed Deloum	Lecturer (A)	University of Msila	Member
Dr. Mohamed Elarbi Benmasaoud	Lecturer (A)	Ziane Achour University of Djelfa	Member
Dr. Bouchiba Boubekar	Lecturer (A)	Ziane Achour University of Djelfa	Member

Academic Year : 2018/2019



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور بالجلفة
كلية الآداب واللغات والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها



الرؤية للعالم في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية (نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة) لمولود فرعون نموذجاً دراسة بنيوية تكوينية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه تخصص النقد الجزائري المعاصر

إشراف:
الدكتور طيب لطرشي

إعداد الطالب:
ميلود حميدة

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيساً	جامعة الجلفة	أستاذ	مسعود عبد الوهاب
مشرفاً ومقرراً	جامعة الجلفة	أستاذ محاضر أ	طيب لطرشي
مناقشاً	المركز الجامعي أفلو	أستاذ	زرارة الوكـال
مناقشاً	جامعة المسيلة	أستاذ محاضر أ	محمد دلموم
مناقشاً	جامعة الجلفة	أستاذ محاضر أ	محمد العربي بن مسعود
مناقشاً	جامعة الجلفة	أستاذ محاضر أ	بوبر بوشيبـة

الموسم الجامعي: 2019/2018

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنْ آيَاتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَمِثْلَ نَارٍ مُوقَدَةٍ
وَمِنْ آيَاتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَمِثْلَ نَارٍ مُوقَدَةٍ

الإهداء

إلى والديّ،

تقديرًا واحترامًا ومحبةً..

إلى عبد القادر .. حقيقي في السؤال والفريضة..

إلى زوجتي،

آمنت بهذا الطريق فسقت معي البحر.

إلى ابنتي

بشري وأروى

أهدى لهذا العمل المتواضع..

م. حميدة



وأنعم بخفران لأمي ووالدي

وشيخي وإخواني وكل الأقارب

تشكرات

نشكر الله



أشكر الدكتور المشرف

طيب لطرشي

على ما قدمه من توجيهات ونصائح،

ذلل لنا الصعاب، وشجّب لنا صريق البحث والتقصي..

أشكر الدكتور

مسعود عبد الوهاب

على عونه وتشجيعه..

وأشكر الأساتذة المخلصين:

على فرعون

حسنلافي لخضر

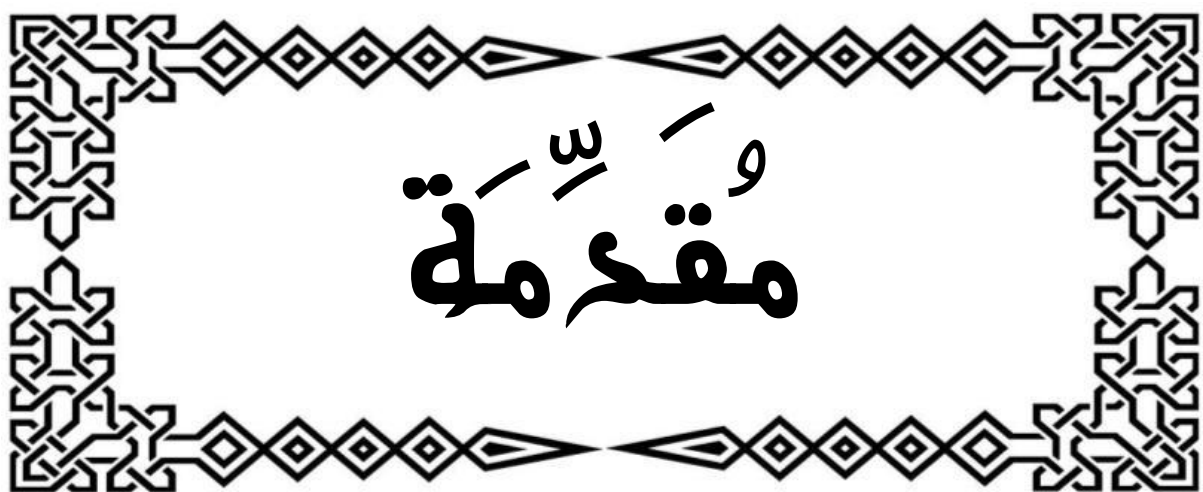
بوشيبة بوبكر

ماريا أوهينيا كاسيرو

ميشال لوى

كما أشكر كل الأساتذة والأصدقاء

الذين لم يبخلوا بعونهم من أجل إنجاز هذا العمل.



مَقَدِّمَةٌ

تعددت البحوث والدراسات النقدية التي تستفيد من المناهج الحديثة وتطبيقاتها في حقول النص السردي، فشكلت عاملاً هاماً من خلال ممارسات نقدية مختلفة تحاول أن تصل إلى عمق النصوص السردية التي تتبطن بعناصر جمالية وفنية تقف على إعادة إنتاج مجتمع ما من خلال رؤية لها خصوصيتها التي تتجاوز الواقع بحرفيته، وتعطي له نفساً آخر ينتج تلك الوقائع والأحداث السردية وفق رؤية تساهم فيها دلالات النصوص نفسها التي تحتوي على أسئلة مختلفة تتضمن أبعادها الاجتماعية والتاريخية والنفسية وغير ذلك مما يحيط بها من الداخل والخارج نصي.

ولعل الرواية باعتبارها جنساً أدبياً حظي بتفاعل نقدي هام، باعتباره أضحى معبراً بشكل واسع عن حلقات الحياة وصورها ودلالاتها وأعماقها، وما تنتجه من بحث في الإنسان وما يحيط به من تحولات، وما تشغله من قضايا وما تحتويه هذه الحياة من سبل واتجاهات، وما تتضمنه من أزمات وصراعات مختلفة داخل المجتمع.

وفي المقابل وبتعدد البحث النقدي وتمعنه في هذا المتن السردية، فإن تجاوز الثنائية القائمة بين الواقعية والمثالية التي عرفها النقد واندرجت ضمن الرؤية الكلاسيكية لعلم الجمال أدى إلى بروز مفاهيم لحقول نقدية جديدة في تناول العمل الأدبي، خاصة ضمن المرحلة النقدية التي ظهر فيها التجاوز الفعلي للبنى الشكلية، أي حين أسس فيها "لوسيان غولدمان" نظريته التي تقسح المجال لمعالم نقدية منسجمة تظهر من خلال نقد سوسولوجي اعتمد فيه على أستاذه لوكاتش، منتبهاً إلى صياغات مختلفة وأكثر دقة وإحكام، من خلال قيامها على أبنية عقلية للفرد والجماعات، وبذلك جمع بين النص والعوامل الخارجة عنه، ومنه أقام توازناً بين الوضع الخارجي والوضع

الداخلي لمختلف تلك التحولات، مما يساعد على فهم البنية التكوينية داخل المستويات المفاهيمية بين النص وكتابه والمجتمع، ومنه أكد غولدمان أن الإبداع الفردي يعد جزءا من إبداع الجماعة، وهنا تكمن أهمية البحث الذي تقدمه من خلال ما كتبه الروائي الجزائري مولود فرعون بواسطة تصورات الإبداعية وبنيات شخصياته وتمثلاتها داخل المجتمع من جهة، وللقراءات المختلفة التي صاغها في أبعاد فنية من جهة أخرى.

لذلك فإن هذه الدراسة (الرؤية للعالم في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية "تجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة" لمولود فرعون نموذجا) قد اتجهت إلى التوغل داخل منحنيات الشخصيات وأصواتها المتعددة لتكشف محطات هامة في رؤية العالم لدى الروائي الجزائري الكبير مولود فرعون من خلال أعماله، وما تحمله الصراعات الأولى والإشكالات الاجتماعية والسياسية والعلمية في مرحلة هامة في تاريخ الجزائر الثوري، مما يتيح معرفة جانب جد حيوي في المواقف والآراء التي لازمت تلك الفترة، كل هذه التحولات التي نفذت إلى عمق الاشتغال على النص الأدبي وهو ينهل وينقد ويلزم مجتمعا متأزما على عدة أصعدة، كما أن صوت الكاتب الجزائري مولود فرعون هو في مضمونه بعدد آخر لقراءة وقائع الأدب الجزائري الروائي المكتوب باللغة الفرنسية وتمظهراته لدى المتلقي الحالي بعيدا عن ذلك الزمن، أي التصورات التي عبّرت إلى أدباء وقراء الوقت الراهن بما فيهم النقاد، وبذلك فإن أهمية العمل الروائي يكمن في عمق البدايات الروائية الجزائرية وحدثتها في ذلك الوقت، تلك الحادثة التي تحتاج هي الأخرى إلى بحث هادف يفصل منحنيات التحولات في الرؤية باعتبارها نموذجا هاما للكاتب الجزائري المحترف، وتكشف الأصوات المختلفة أو الهامشية التي كان لها بعدها في تكوين الرؤية للعالم بالإضافة إلى النسق المحوري في صوت الشخصية الإشكالية وقراءة المؤلف لمجمل تلك التحولات وأثرها المتواصل.

ولعله من أهم مبررات هذا البحث، هو ربط علاقة معينة بين الأدب الجزائري المعاصر المكتوب باللغة الفرنسية والأدب المكتوب باللغة العربية من خلال منهج نقدي هام يحفر داخل الشخصيات ليصل إلى الكشف عن أصوات مختلفة، باعتبار أن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يبدو بعيدا عن القارئ باللغة العربية، خاصة وأن الدراسات النقدية في هذا المجال لا تتجاوز حقول كل لغة على حدة، بالإضافة إلى أن الروائي مولود فرعون له حضور مميز في المشهد الإبداعي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، فهو يقدم لنا شخصيات متعددة لها وقعها الإبداعي المتميز من خلال أصوات جزائرية امتزجت إبداعيا مع الشخصية المحورية في الروايات المختارة، كما توغل في هذا العمل ليقوم بقراءة فنية وإبداعية للمكان والزمان رافعا بذلك حُجبا كثيرة لتتضح الرؤية داخل سياقات وأنساق بشرية مختلفة، وبالتالي، فمن خلال هذا العمل يمكن دراسة الرؤية للعالم باعتبار أن الكاتب فتح مجالا هاما في التطرق إلى عمق المجتمع الجزائري وقراءة ذلك العمق بشكل فني مبتكر، وأفصح عما هو مخبأ في علاقات إنسانية مختلفة وسياسات اجتماعية تماهت مع التقاليد السائدة آنذاك. ولذلك كان من الواجب الغوص في هذه العوالم من خلال دراسة بنيوية تكوينية تهدف إلى الاقتراب أكثر من تلك الخبرات التي ينتجها أدباء جزائريون، كتبوا باللغة الفرنسية لنحاول أن نقدم للباحثين في فضاءات اللغة العربية رابطا هاما يلحم أجزاء الإبداع الجزائري في أشكاله المختلفة.

ومن هنا فإن هذه الدراسة تتدرج ضمن الدراسات النسقية الحداثية وتهدف إلى تمكين محاولات جادة في دراسات البنيات الداخلية للعمل الأدبي وعلاقتها المتعددة من خلال مناهج هامة، كان للمنهج البنيوي التكويني دور فاعل في الكشف عن مناطق مختفية داخل المتن الأدبي النوعي، مستعملا أدوات جد ناضجة في تفكيك باطن العمل، خاصة "الرؤية للعالم" التي تعتبر من أهم مبادئه دون الإخلال بالمبادئ الأخرى

لدخولها المحوري في عملية النقد، فكانت الرؤية للعالم صورة واضحة لزعة المتوقع والخروج به إلى اللامتوقع، المستحيل المحتمل والمحتمل المستحيل، ومن ثم تتبدى لنا روايات مولود فرعون "نجل الفقير، الأرض والدم، والدروب الصاعدة" مساحة هامة للكشف عن منحنيات الرؤية على عدة مستويات، الكاتب والشخصية المحورية والمجتمع، حيث نتعمق أكثر كي نتمكن من استنطاق الأصوات المخبوءة في الداخل، والأصوات التي انتجت بدورها هذا التفاعل الكمي والفني لهذه الأعمال الروائية المميزة، ومن هنا تتشابه الأصوات وتتعدد الصور وتختلف البنيات من خلال تعدد المحاور الهامة داخل المجتمع، نجد الاستعمار، المقاومة، الفكر العربي الديني والوطني، الفكر الفرنسي ومعطياته الإيديولوجية، الاندماج، كما نجد الفقر، والتعليم، والعزلة، والدروب الصاعدة والصعبة والشاقة، وتعدد مستويات الفهم والتفسير لتخلق أنماطاً متعددة ومتضاربة بعلاقاتها الكلية والجزئية داخل هذا المجتمع، فكل هذه التنوعات تؤدي إلى خلق تضارب في الرؤية والبحث عن الانسجام في ظل توتر معرفي مجتمعي قلق.

لهذا فإننا نجد من خلال هذا البحث جملة من القضايا النقدية تطرح عدة إشكالات يتمحور أساسها في:

- كيف نصل إلى أبعاد بنية وتكون هذه الفئات الاجتماعية المندرجة ضمن نسق هذه الروايات في مقاربة بنيوية تكوينية؟، وهل تمكنت الدراسة من الدخول إلى عوالم الأعمال المقترحة من خلال هذا المنهج وتوظيف أدواته الإجرائية في محاولة لاستدعاء البعد التطبيقي الذي لا يخرج عن أهداف المنهج حرفياً؟

- كيف يمكن تقويم الرؤية للعالم من خلال الفروق بين أصوات الشخصيات في المتن الروائي محل البحث، وما هي العوامل المحيطة بتشكيلها وتكونها؟ هل يمكن التوقف عند مجال الثبات أم التغيير حولها؟

- هل حققت الرؤية للعالم في الرواية محل الدراسة الرؤية الموضوعية وأنتجت فضاء التواصل بين الشكل الفني والموضوعي داخل هذه الأعمال؟

- كيف يمكن تفسير الرؤية للعالم داخل الأصوات باعتبارها تمثيلا للحركة الفردية وبوعي جماعي؟

وتجدر الإشارة إلى أن أعمال الروائي الجزائري مولود فرعون قد استخرجها البعض من فضاءات اللغة الفرنسية وأدخلها أثواب اللغة العربية، لكن بعض الترجمات جاءت غريبة فنياً عن الأبعاد الإبداعية في اللغة الفرنسية، حيث طغت عليها الحرفية أحيانا، والارتجالية في الفهم أحيانا أخرى، ولذلك ارتأينا أن نتوازي مع الترجمات وفق قراءة الأعمال بلغتها الأصلية للوصول إلى أقرب مناطق الفهم والتفسير، ومن هنا يمكننا التوغل في مساحات الرؤية للعالم التي فتحت العمل على منافذ عديدة يمكن الدخول إليها ومتابعتها استنادا إلى بحث يترصد الدقة والوضوح والإبداع أيضا، لأن البحث النقدي الأدبي يتطلب جرأة كبيرة في الدراسة، كما يتطلب مساحة هامة من الابتكار، وإلا سيكون مجرد تقليد أعمى لدراسات سابقة، فالابتكار من خلال البحث الجاد هو الذي يصنع التحول والتغيير ويوجه البحث النقدي إلى مساحات أوسع، بالإضافة إلى أنه لم تتم دراسة أعمال مولود فرعون في اللغة العربية بشكل مفصل ومحكم ودقيق دراسة نقدية باللغة العربية، ولذلك ارتأينا أن تكون دراستنا هي الباب الأول للدخول إلى عوالم فرعون المثمرة من خلال البنيوية التكوينية، حيث نجد الكثير من الدراسات قد جاءت كبحوث أدبية أو أخذت مناهج أخرى متنوعة، وعليه نستثني بالذكر بعض المقالات المنفرقة والدراسات القصيرة.

وعلى هذا الأساس فإن تطبيق المناهج البنيوية في دراسة العمل الأدبي كان ضرورة لإنتاج المعرفة من الداخل، ورؤية نقدية لها أثر في اكتشاف معرفة مكانة الأدب الجزائري في المنظومة البحثية النقدية العالمية، وما وصل إليه عمق الإبداع

الجزائري باللغة الفرنسية في مرحلة لم تحض كثيرا بالاهتمام النقدي الفاعل المكتشف للتيامات الحقيقية للإبداع الذي يقف على أرضية صلبة، لم تستغلها الدراسات كثيرا في فهم مختلف البنيات الداخلية، كما هي ضرورية في ثوبها البنيوي التكويني الذي فصله لوسيان غولدمان في مباحث هامة.

لقد اعتبرت دراسات سابقة أن الفن الروائي والواقع الاجتماعي كلٌّ متكاملٌ ومنسجم، من خلال نظرتهم إلى أن الكاتب هو عبارة عن صوت هذا المجتمع بشكل مباشر، كأنه يحاكي كل ما فيه من أبعاد، يعكسها الكاتب بواسطة منتجه الأدبي، لتتفي بذلك أية جدلية بين الفكر والواقع، هذه الجدلية التي كانت حاضرة غائبة، حاضرة في واقعها الاجتماعي وغائبة في بُعدها النقدي الإبداعي والفني، وعليه فإن المنهج النقدي الجدلي الذي تعمق في حقله لوكاتش أظهر صورة له كانت أكثر دقة وانسجاما، خُفّ بها دعائم سوسولوجية الرواية، وكان تلميذه "لوسيان غولدمان" قد استفاد كثيرا من مرتكزات النقد الجدلي ليقف على أبعاد جديدة، ومنهج جديد (المنهج البنيوي التكويني) هو الذي اعتمده في دراستنا هذه باعتباره لا يرى العمل الأدبي انعكاسا للوعي الجماعي بشكل مباشر وبسيط، ليعبر عن الوعي الجماعي الممكن، لأنه يبعد ذلك التطابق السطحي الذي لم يكن سوى انعكاسا للمجتمع، وينفذ إلى اعتبار الناتج الإبداعي مقابلا لبنية فكرية جماعية، تنتج الرؤية للعالم من خلال إبداع الجماعة وليس الفرد وحده، لأنه غير قادر على إنتاج بنية مستقلة للجماعة بمفرده.

ومن هنا فقد انطلقت الدراسة بمقدمة وانقسمت إلى بابين وأربعة فصول:

فالباب الأول تضمن «الرؤية للعالم من المنطلقات الفلسفية إلى الإجراءات المنهجية»، حيث نتطرق في هذا الباب إلى جملة العوامل والمساحات النظرية والمنهجية التي فتحت نوافذها على أبعاد البنيوية التكوينية نظريا وإجرائيا، فكان، **الفصل الأول** بعنوان «الرواية والمجتمع، من النقد الروائي الاجتماعي إلى النقد

السوسيونصي»، تناول "الرواية والمجتمع"، واحتوى المفاهيم الأساسية (مفهوم الرواية، مفهوم علم الاجتماع، مفهوم علم الاجتماع الروائي) كمدخل يُمكننا بعد ذلك من تتبع تحولات هذه المصطلحات، كما تناول هذا الفصل "النقد الروائي الاجتماعي" من خلال النقد الروائي الاجتماعي في مقابل الإيديولوجيا، وأيضاً قضايا النقد الروائي الاجتماعي ومقولاته عند لوكاتش (الكلية، الانحطاط، الإشكالي، التشيؤ، التنظير الروائي) وأيضاً الأنماط الشكلية للرواية (الرواية المثالية التجريدية، الرواية النفسية، الرواية التربوية)، بالإضافة إلى "النقد السوسيونصي عند باختين وبيير زيما".

أما الفصل الثاني فقد تضمن «البنوية التكوينية والرؤية للعالم»، وتناول الانتقال من البنوية إلى البنوية التكوينية (نشأة البنوية، ومراحل تطور البنوية في الأدب، ونشأة البنوية التكوينية)، ومن جهة أخرى تعرض إلى "المرجعيات المعرفية للبنوية التكوينية في بعدها الفلسفي، والنقدي، والتأويلي، ليتوغل في "مفهوم البنوية التكوينية ومبادئها الأساسية"، والانتقادات الموجهة إليها.

أما في الباب الثاني «الرؤية للعالم في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، روايات مولود فرعون "نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة" أنموذجاً»، فقد تطرق في الفصل الأول إلى «الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، البدايات والتحويلات»، حيث تتبعنا في هذه الدراسة واقع الاحتلال الفرنسي بين دوافع الفرض وجدلية الرفض، والاحتلال الفرنسي للجزائر وحرب الإبادة والمقاومة، بالإضافة إلى الاحتلال الفرنسي والمقاومة في بلاد القبائل، وهذا يدفعنا إلى معرفة المجتمع القبائلي خلال الاحتلال الفرنسي، لنصل إلى "الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وتجليات الهوية" وذلك بدراسة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، بين النشأة وملاحم التطور، وتجليات الهوية وعلاقتها بالثقافة، ثم تمظهرات الثقافة الجزائرية في الرواية الجزائرية المكتوبة

بالفرنسية، والرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأزمة الهوية، ومن هنا يُعدّ هذا الفصل مدخلاً هاماً للفصل الذي يليه.

وفي الفصل الثاني تابعت الدراسة منهجها لتصل إلى «الرؤية للعالم في روايات مولود فرعون (نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة)»، واقترب هذا الفصل من عوالم الكاتب مولود فرعون وأعماله، وفيه نجد ملخصاً عن الأعمال الروائية محل الدراسة، ثم "الترجمة وتحولات المعنى في البعد الإثنوغرافي" من خلال تقديم المترجمين لأعماله الروائية محل الدراسة، وأبعاد الترجمة الأدبية الإبداعية، وخصوصيات الترجمة من خلال العناصر الثقافية الواردة في الروايات الثلاث، لنقف بعد ذلك عند "الرؤية للعالم في روايات مولود فرعون (نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة)"، حيث تتبعت الدراسة مبدأ الفهم في مقابل بنية الأنا والواقع الاجتماعي، دارسين الوعي القائم في الروايات من خلال المكونات الاجتماعية لأشكال الوعي القائم، ومن ثم البنية الدالة في الثلاثية والنسق الروائي بين أبعاد الشكل وفلسفة المعنى، ومن الفهم نصل إلى "التفسير ومنعرجات الرؤية وتحولات التجاوز/ الوعي الممكن وأسئلة الذات"، أي من الوعي القائم إلى الوعي الممكن، والوضعيات المضادة في الوعي الممكن، ثم من الوضعيات المضادة إلى التجاوز.

أما الخاتمة فقد اندرجت في مضمون النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة، بالإضافة إلى فهرس للمصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها في هذه الدراسة.

كما حاولنا الوصول إلى أهم المراجع التي نستعين بها في فضاء هذه الدراسة ولها بعدها المعرفي الذي يمكننا من تتبع كل هذه المراحل مراعين بعدين أساسيين لهما أهمية كبيرة، الأول أن الدراسة حاولت أن تقف عند كتابات لوسيان غولدمان باللغة الفرنسية، وما كُتب عنه من مقالات أو دراسات، والثاني محاولة الاقتراب من

النصوص محل الدراسة في ثوبها الأصلي، أي باللغة التي كتب بها فرعون هذه الروايات:

- لوسيان غولدمان: المادية الديالكتيكية وتاريخ الفلسفة والأدب، ترجمة نادر نكري، دار الحداثة، بيروت 1981م
- لوسيان غولدمان: العلوم الإنسانية والفلسفة، ترجمة محمد العدلوني الإدريسي ويوسف عبد المنعم، دار الحداثة، بيروت 1981
- لوسيان غولدمان: الإله الخفي، ترجمة الدكتورة زبيدة القاضي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2010م
- مجموعة من المؤلفين: كتاب «البنوية التكوينية والنقد الأدبي»، مراجعة محمد برادة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1985م.
- محمد الأمين بحري: البنوية التكوينية، منشورات ضفاف، منشورات الإختلاف، الجزائر 2015م.
- Albert Camus: Misère de la Kabylie. Editions La pensée, Alger 2014.
- Jean Déjeux : La littérature Maghrébine d'expression Française. Col. Que-sais-je, P.u.f. Paris 1992.
- Lucien Goldmann : Pour une sociologie du roman, Paris, édition Gallimard 1970.
- Lucien Goldmann : Science humaines et philosophie, édition delga, Paris 2014. P 223
- « le structuralisme génétique ». Edition Denoel/Gonthier. Paris, 1977.
- Rachida Saadouni : Mouloud Feraoun l'éternel Fouroulou Menrad. Edition Dar El houda. Alger., 2015.

- Wadi Bouzar : La mouvance et la pause(Regarde sur la société algérienne). Société Nationale d'Édition et de Diffusion. Alger 1983

وعليه فإن هذه الدراسة لا تدعي الوصول إلى التطبيق التام والكامل للمنهج، لكنها على الأقل حاولت أن تتضبط في عملية التطبيق بكل الأدوات والمقولات التي جاءت بها البنيوية التكوينية، لذلك نسأل الله السداد والتوفيق.

الرؤية للعالم
من المنطلقات الفلسفية
إلى الإجراءات المنهجية

الرواية والمجتمع

من النقد الروائي الاجتماعي إلى النقد السوسيونصي

- الرواية والمجتمع مفاهيم أساسية
- مفهوم الرواية
- مفهوم علم الاجتماع
- مفهوم علم الاجتماع الروائي
- النقد الروائي الاجتماعي
- النقد الروائي الاجتماعي والإيديولوجيا
- قضايا النقد الروائي الاجتماعي ومقولاته عند لوكاتش
- التنظير الروائي والأنماط الشكلية للرواية
- النقد السوسيونصي عند باختين وبيير زيمبا
- الأشكال التكوينية للغة الخطاب عند باختين
- الأنماط الإجرائية للنقدية الحوارية
- بيير زيمبا والنقد السوسيونصي

لم يظهر مفهوم «الرؤية للعالم» دون مخاضات فلسفية وفكرية أسست فعلياً لفضاءات هذا المصطلح، ولم تأت هذه الفضاءات المنهجية دون أن تستمد حضورها من تفاعل هام بين النص والنقد، هذا التفاعل الذي حرّك رؤية النقاد لهذه النصوص وقرآتها بأشكال مختلفة، خاصة ما جاء في سياق البحث البنيوي التكويني الذي استفاد من كل التجارب النقدية السابقة، وأسس لهذا الفضاء بلغة ومصطلح نقدي كان له الأثر الكبير في احتواء النصوص وقرآتها من زوايا فاعلة فجرت ما في الداخل في محاولة منهجية لوضع القراءة النقدية في إطار يجعلها أكثر حياة، بحيث يقترب الناقد من كل تفاصيل النص ومنعرجاته ودلالاته، لذلك ارتأينا قبل الدخول إلى الإجراء النقدي للرؤية للعالم في مجال البنيوية التكوينية أن نتكشّف شيئاً فشيئاً هذه المسافات من خلال اقترابنا من العلاقة التفاعلية بين الرواية والمجتمع، والدخول إلى الحقول المفاهيمية لبعض المصطلحات الهامة (الرواية، علم الاجتماع، علم الاجتماع الروائي) التي من الواجب البحثي أن نتفرس في ماهيتها حتى يتسنى لنا البحث في مجال النقد الروائي الاجتماعي، متابعين مجالات التفاعل بين النقد الروائي الاجتماعي والإيديولوجيا، في احتواءٍ لبعض قضايا هذا النقد في المجال الذي يأتي في فضاء المنهج المتبع في هذه الدراسة، ثم نقترّب من مباحث النقد السوسيوثقافي الذي ركّز على كفاءات الصياغة اللغوية ذاتها، أي الولوج إلى النسق النصي في قراءة نقدية تسنّد البنية الاجتماعية داخل النصوص إلى أبعاد المعطى السوسيوثقافي، نظراً لأهمية هذه المفاهيم والقضايا للوصول إلى فضاء البنيوية التكوينية.

1- الرواية والمجتمع: مفاهيم أساسية

1- مفهوم الرواية:

يندرج مصطلح الرواية وبالعودة إلى مفهومه اللغوي ضمن فضاء الحكي والمحكي، ففي الصحاح «رَوَيْتَهُ الشَّعْرَ تَرْوِيَةً، أَي حَمَلْتَهُ عَلَى رِوَايَتِهِ، وَأَرْوِيْتُهُ أَيضاً»¹، وقد يندرج المفهوم اللغوي لكلمة (الرَوِيَّةُ) ضمن معاني التفكير في أمر ما، «الرَوِيَّةُ أَيضاً: التفكير في الأمر»²، كما يأتي على معاني أخرى أهمها «رَجُلٌ رَاوِيَةٌ لِلشَّعْرِ، وَالْهَاءُ لِلْمَبَالِغَةِ، وَقَوْمٌ رَوَاهُ مِنَ الْمَاءِ، بِالْكَسْرِ وَالْمَدِّ»³، وهذا يدل على تعدد اللفظ بتعدد الصرف والسياق، فالرواية في بنيتها اللفظية كما هي تتصل مباشرة بفضاء الحكي أي ما يروى من حديث شعري أو نثري يستظهره الرّواه، «وتقول أنشد القصيداً يا هذا، ولا تقل اروها، إلا أن تأمره بروايتها، أي استظهارها»⁴.

وبالاستناد على هذه المفاهيم اللغوية ينكشف مدلولها الذي يحتوي فضاء السيل والتدفق والحكي المتصل والمرسل، ومن هنا نحاول أن نتوغل في مفهومها الاصطلاحي ونبحث في دلالاتها الحديثة، فالرواية فن له مفهومه المعروف تداولاً لدى الكثيرين، غير أن هذا المفهوم لا يعدو أداة تداولية لا تخضع لميزان التدقيق العلمي، وبذلك يكون تعريفها ليس سهلاً في مقابل اتساعها وانتشارها بين القراء والنخبة، لذلك يرى هنري جيمس⁵ أن «الرواية ما تزال في المفهوم الصحيح، أكثر الأشكال الأدبية

1 - اسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ج6، ط1، القاهرة 1952، ط2، بيروت 1979، ص 64.

2 - المرجع نفسه، ص 64.

3 - المرجع نفسه، ص 65.

4 - المرجع نفسه، ص 64.

5 - يعتبر من أشهر الروائيين الأمريكيين، ولد سنة 1843م ومات سنة 1916م، في شبابه درس القانون في جامعة "هارفارد" ولكنه كان يهوى الأدب وبرع فيه ووهبه حياته كلها، وبعد أن بلغ الثلاثين انتقل إلى أوروبا وعاش =

استقلالاً ومطاطية وإعجازاً»¹، فهي أكثر الأشكال سعة للتحوّلات، فلا تقف عند مفهوم معين لا يتغيّر، بل تنتقل من مستوى إلى آخر وتتغمس في تماوجات تصنعها من خلال قراءة كل باحث لهذا السرد، ذلك أنها «شكل أدبي جديد لم تعرفه العصور الكلاسيكية والوسطى، نشأ مع البواكير الأولى لظهور الطبقة البرجوازية وما صاحبها من تحرر الفرد من ربة التبعات الشخصية»² وعليه سنورد فيما سيأتي بعض المفاهيم التي تحاول الاقتراب من فضاءات هذا المصطلح.

1-1 مفهوم الرواية عند الغرب:

يرى فريدريك هيجل³ (1770-1831) في مفهومه الفلسفي للرواية، أن الرواية هي ملحمة برجوازية، معتبرا أنها الشكل الذي يقتفي أثر الملحمة ويكون بديلا لها في نطاق المجتمع البرجوازي الجديد، «فهيجل حين يقول بأن الرواية هي عبارة عن "ملحمة برجوازية" إنما تطرح في آن واحد المسألة الجمالية: فهو يعتبر الرواية شكلا فنيا بديلا للملحمة في إطار التطور البرجوازي، ذلك أن الرواية تنطوي على الخصائص الجمالية العامة للقصة الملحمية الكبيرة وللملحمة، من جهة، وتتأثر بكل التعديلات التي جاء بها العصر البرجوازي الذي هو من طبيعة أخرى مخالفة، من جهة ثانية»⁴، فتلك التحوّلات الاجتماعية والسياسية التي عرفت أوروبا، أعطت للفرد بعده الشخصي والإنساني، مع ظهور القوميات الأوروبية، «فليس من الغريب -مرة أخرى- أن تكون

=في إنجلترا التي كان يحبها، وفي سنة 1915م تجنس بالجنسية البريطانية ومنح وسام الاستحقاق. أنظر: هنري جيمس، الأوروبيون، ت: توفيق الأسدي، دار المدى، ط1، بيروت 2015، ص 342.

¹ - موسوعة المصطلح النقدي، ت: عبد الواحد لؤلؤة، مجلد 3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 15.

² - إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدّين، تونس 1986، ص 176.

³ - فيلسوف مثالي ألماني يمثل ذروة الفكر المثالي في الفلسفة الحديثة وهو من أصحاب الفلسفة الشاملة، يعتبر مصدرا لاتجاهين أساسيين هما الوجودية والماركسية. أنظر: جورج لختهايم، جورج لوكاتش، ت: ماهر الكيالي يوسف شويري، مراجعة: أسعد رزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت 1982، ص 173.

⁴ - جورج لوكاتش: نظرية الرواية وتطورها، ت: نزيه الشوفي، سوريا 1987، ص 19.

هي القلب الأدبي الذي تخصص تاريخيا في حمل راية الأصالة، وإن لم يلق جانباً راية الإنسانية، فقد كانت البرجوازية حينذاك تعتقد أنها والإنسانية سواء، فالإنسان البرجوازي هو الإنسان الكامل، والثورة البرجوازية هي ثورة الإنسانية»¹. وهنا يضع هيجل الرواية بين بعدين هامين، (ملحمية الرواية والانتماء البرجوازي) في سياق التوفيق بين جملة من المتناقضات طرحها المجتمع الرأسمالي، ذلك أن «اتخاذ موقف نظري مضبوط تجاه شكل الرواية يفترض اتخاذ موقف نظري صحيح تجاه التطور المتناقض في المجتمع الرأسمالي»²، فيتجسد هذا التناقض الشديد بين ما تعمل على إنتاجه الجماعة (الإنتاج الجماعي) وما يمتلكه الخواص (الملكية الخاصة). وكل ذلك في إطار البعد البرجوازي الذي أحدث تلك التعديلات في الشكل والمضمون. ومن خلال هذه الارتباط الوثيق بالبرجوازية؛ كانت الرواية عند هيجل تنبني على مفهوم:

- ملحمية الرواية، باعتبارها امتدادا للملحمة.
- الانتماء البرجوازي، باعتبار الرواية نشأت في خصوصية ذلك المجتمع وتعبّر عنه.
- تحوّل في الشكل والمضمون فرضته تعديلات هذا المجتمع.
- محاولة التوفيق بين التناقضات الشديدة التي جاءت مع المجتمع الرأسمالي (التوفيقية التاريخية).

¹ - غالي شكري: ثورة المعتزل دراسة في أدب توفيق الحكيم، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت 1982، ص 108.

² - جورج لوكاتش: نظرية الرواية وتطورها، المرجع السابق، ص 21.

أما جورج لوكاتش¹ (George Lukàcs) فيتجه إلى خصوصية تاريخية أنشأت هذا الفضاء الروائي، ويؤكد نشأتها كشكل أدبي ينتمي للطبقة البرجوازية، لكنه في السياق نفسه يؤكد على أن «التطور البرجوازي لم يقدم نظرية متكاملة ومنظمة للرواية»²، فالبطل الملحمي لم يجد تفاصيله في السرد الروائي، بل سار في اتجاهات مختلفة، وخرج النمط الغنائي عن بيانه ولغته المتعالية إلى نمط نثري غارق في نظرة مأساوية، فلم يعد يتحدث عن السمو والطهر والنقاء في رواق التسليم الكلي للآلهة، في زمن البطولة الملحمية، بل تغير النمط إلى زمن الواقع التحتي بكل واقعيته الجارفة، فحتى المنعرج البرجوازي للرواية صارح بشكل كبير واقع البروليتاريا³، فأضحى هذا التحول له وقعه على الكتابة الروائية، وهو ما يبين أثر «المنعطف الذي أحدثه صعود البروليتاريا إلى حلبة التاريخ على طول الخط البياني للرواية البرجوازية، وكلما ظهر عمق الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا، كحدث رئيسي في المجتمع، كلما قلّت إمكانية الروائيين البرجوازيين في معالجة مشكلات المجتمع الأساسية معالجة

¹ - ولد جورج لوكاتش 1885 في مدينة بودابست، نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام 1909، انتقل إلى هايدلبرغ عام 1913 حيث تردد على حلقات عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، انضم لوكاتش إلى الحزب الشيوعي الهنغاري عام 1918، وخلال الفترة الممتدة من 1933 إلى 1944 اشتغل في أكاديمية العلوم بموسكو، ولدى عودته إلى هنغاريا أصبح عضواً في البرلمان وفي المجلس الرئاسي لأكاديمية العلوم المجرية، مثلما نال كرسي الأستاذية لعلم الجمال وفلسفة الحضارة في جامعة بودابست، اشترك في ثورة المجر عام 1965، وشغل منصب وزير الثقافة في حكومة إيمري ناجي، وإثر انهيار نظام الحكم الجديد تم ترحيله إلى رومانيا، لكنه استطاع بعد زمن قصير العودة إلى مسقط رأسه في بودابست، حيث كرّس نفسه منذ ذلك الحين لأعماله العلمية، ولقد توفي لوكاتش في صيف العام 1971. أنظر: جورج لختهايم، جورج لوكاتش، المرجع السابق، ص 05، 06.

² - المرجع نفسه، ص 18.

³ - هي الطبقة التي -من بين كل طبقات المجتمع- تعيش كليا من بيع عملها فقط، لا من أرباح أي نوع من أنواع رأس المال. ولا تتوقف معيشتها بل وجودها ذاته، على مدى حاجة المجتمع إلى عملها، أي أنها رهينة فترات الأزمة والازدهار الصناعي وتقلبات المنافسة الجامحة. بإيجاز إن البروليتاريا هي الطبقة الكادحة لعصرنا الراهن. أنظر: فريدريك انجلز، مبادئ الشيوعية، الحوار المتمدن، ع3949، بتاريخ: 2012/12/22، تم الاطلاع عليه بتاريخ:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=9060> :2017/02/13

عميقة»¹، وعليه فقد رصد لوكاتش² ثلاث أنماط للرواية الغربية في القرن 19³، رواية المثالية التجريدية، الرواية النفسية، الرواية التربوية، وقد قرن لوكاتش بين بعدين في دراسته للرواية، البعد الأول؛ باعتبار أن الرواية قد نشأت في المجتمع الرأسمالي، والثاني باعتبارها تستلهم القيم الملحمية التي يسعى الفرد إلى بلوغها، «تلك القيم التي كانت متاحة في عالم الملحمة، أو كما يسميه لوكاتش عالم الطهر الكامل (طفولة الإنسانية)، بينما فقد الإنسان الحديث هذه القيم في عالم الرواية، عالم القبح والإثم الكامل»⁴، إن ذلك الفقدان هو ما يجسد تصور لوكاتش لمفهوم الرواية، فهو يضعها ملحمة لوقائع تحاول أن تستعيد الآفاق الرحبية، حيث تخلت «عن ذلك المجال الرحب الذي تمثل في الأسلوب الخرافي، واتجهت فوراً نحو تصوير الحياة الخاصة للإنسان البرجوازي، ونلاحظ أن الروائي يطمح لأن يكون سكرتير الحياة، فظهر الاختلاف بوضوح خلال هذه الفترة في الشكل المنهجي. حيث تقلصت الآفاق التاريخية العالمية الرحبية التي كانت في بدايات الرواية، واقتصرت عالم الرواية أكثر فأكثر على الواقع اليومي في الحياة البرجوازية»⁵.

¹ - جورج لوكاتش: نظرية الرواية وتطورها، المرجع السابق، ص 81.

² - تتميز نظرية الرواية عند "لوكاتش" بانقسامها إلى قسمين (مرحلتين)، أو إلى نظريتين، ترتسم ملامح الأولى من خلال كتابيه (نظرية الرواية) الذي كُتب سنة 1914 ونُشر سنة 1920، و(التاريخ والوعي الطبقي) الذي نُشر سنة 1923 -وقد تبراَ منهما لاحقاً- وتتجلى الثانية في المرحلة التي أعقبت نشره لتقريره حول الرواية، الذي عنوانه لاحقاً ب: (الرواية كملحمة بورجوازية) 1935، على أن التقسيم الزمني لا يمكن أن يكون مقنعا كثيرا في محاولة فهم مسارات تفكير الباحثين في حقل العلوم الإنسانية.. أنظر في هذا الصدد: فايد محمد، سحنين علي: أبحاث في الرواية ونظرية السرد، طاكسيج للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر 2014، ص 9.

³ - أنظر: محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، منشورات الاختلاف،

كلمة للنشر والتوزيع، دار الأمان، منشورات ضفاف، ط1، لبنان 2015، ص 69

⁴ - فايد محمد، سحنين علي: المرجع السابق، ص 12.

⁵ - جورج لوكاتش: نظرية الرواية وتطورها، المرجع السابق، ص 50.

وعليه فمفهوم الرواية عند لوكاتش يرتكز على أسس نمذجة الرواية¹:

- رواية المثالية المجردة، يحمل بطلها قيماً أصيلة. (دون كيشوت لسرفانتيس)
 - رواية رومانسية الأوهام، يحمل بطلها حياة باطنية منعزلة عن حياة التناقضات (التربية العاطفية لفلوير)
 - الرواية التربوية، تحمل تركيباً بين النموذجين السابقين (ويلهيلم مستر لغوته).
- وبهذا فقد «بنى لوكاتش، في كتابه "نظرية الرواية" الشكل الروائي على فكرة "البطل الإشكالي" الذي يسقط في التيه حين يلتقي بالعالم، كأن بين الطرفين هوة متجددة لا يمكن عبورها. وتصدر القطيعة، كما رأى لوكاتش الذي صدمته حروب مروعة، عن بطل متدهور يبحث عن قيم أصيلة، في عالم متدهور بدوره وبوسائل لا يعوزها التدهور أيضاً»²، فذلك البطل الإشكالي وهو في بحثه عن القيم الأصيلة يحقق تلك النظرة العميقة التي تمنح وعياً يجمع بينه وبين العالم، محققاً أيضاً ذلك الحوار الجدلي بين القيم المطلقة والعالم المتماهي في ذاتيته، ولهذا يبقى «الطابع الإشكالي لمثل هذه القيم غير الجلية لا في وعي البطل ولا في وعي الكاتب، هو الذي يكون ويطلع الرواية كشكل في الأفاق اللوكاتشية»³، ومن هنا يمكن أن نشير إلى أن الرواية لدى لوكاتش «هي تاريخ بحث "منحط" (يسميه لوكاتش شيطاني) بحثٌ عن قيم أصيلة في عالم منحط هو الآخر ولكن على صعيد متقدم بشكل مغاير ووفق كيفية مختلفة»⁴. وبذلك يقدم جورج لوكاتش رؤيته الفلسفية في إطار مفهومه للرواية، ويجسد ذلك التمازج بين

1 - أنظر: فايد محمد، سحنين علي: أبحاث في الرواية ونظرية السرد، المرجع السابق، ص 19.

2 - فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب 1999، ص ص 37، 38.

3 - محمد ساري: الأدب والمجتمع، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر 2009، ص 40.

4 - لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسولوجيا الرواية، ت: بدر الدين عروديكي، دار الحوار للنشر والتوزيع،

ط1، سوريا 1993، ص 14.

الكيفية المغايرة في امتهان الفعل الروائي وبين ولوجه إلى داخل ذلك الانغماس السفلي للبحث عن تلك القيم الأصيلة.

وعلى غرار لوكانتش يقدم لوسيان غولدمان¹ Lucien Goldmann (1913-1970) نتاجا موسعا وأكثر تنظيما ودلالة، مستندا على ما جاء به أستاذه لوكانتش، ومرتكزا على تأسيس منهجية نظرية خاصة، ومنتبها إلى ضرورة إيضاح بعض الإشكالات التي تقيد بعض الفرضيات، مثلما أشار مثلا إلى أهمية مصطلح "البطل الإشكالي" الذي انتبه غولدمان إلى حضوره الهام في النقد الروائي، إلا أن هذا المصطلح لقي عند غولدمان بعض الإشكال، فاتجه إلى «تقييد مجال صلاحية هذه الفرضية لأنه إذا كان يصلح تطبيقها على مؤلفات لها أهميتها في تاريخ الأدب مثل "دون كيشوت" لسرفانتس²، و"الأحمر والأسود" لستندال³، و"مدام بوفاري" و"التربية

¹ - ولد لوسيان غولدمان ببوخارست، بعد البكالوريا هياً إجازة في الحقوق ببوخارست حيث احتك أول مرة بالفكر الماركسي، انتقل سنة 1933 إلى فيينا حيث اكتشف الأعمال الثلاثة الكبرى للوكانتش "الروح والأشكال" و"نظرية الرواية" و"التاريخ والوعي الطبقي"، هرب سنة 1940 من الاحتلال الألماني نحو مدينة تولوز الفرنسية، ثم مر خلسة إلى سويسرا إلى سنة 1943 وبفضل جان بياجيه تم تحريره وإعطاؤه منحة دراسية واستطاع تهييء رسالة دكتوراه في الفلسفة، ثم عيّن بعد ذلك مساعدا لجان بياجيه في جامعة جنيف حيث تأثر بأعماله حول البنوية التكوينية. بعد تحرير فرنسا عاد إلى باريس وهياً رسالة دكتوراه في الأدب بعنوان "الإله المختفي، دراسة في الرؤية المأساوية في أفكار باسكال ومسرح راسين"، وفي سنة 1964 أصبح مدير قسم علم الاجتماع في جامعة بروكسل الحرة، وأصدر "من أجل علم اجتماع الرواية". أنظر: مجموعة من المؤلفين، البنوية التكوينية والنقد الأدبي، راجع الترجمة: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية ط2، لبنان 1986، ص ص 11، 12.

² - ميغيل دي سيرفانتس، كاتب روائي ومسرحي وشاعر إسباني (1547-1616). مؤلف رواية دون كيشوت، كان أسيرا، لدى القراصنة الجزائريين / المغاربة. أطلق سراحه بعد سنوات بمساعدة هيئة دينية. أنظر: مؤيد عبد الستار، أهمية الرمز الثقافي البحث عن سرفانتس/دون كيشوت، الحوار المتمدن، ع4506، نشر بتاريخ: 08-07-2014، شوهذ بتاريخ: 01-01-2018:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=422923>

³ - هو روائي فرنسي، اسمه الحقيقي (هنري بيل Marie Henri Beyle)، ولد في مدينة كرنوبل (1783-1842)، أنظر: سيد غيث: أشهر روايات الأدب العالمي الخالدة، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ط1، مصر 2017، ص ص 317، 318.

العاطفية" لفلوبير¹، فإنه لن يكون من الممكن تطبيقها إلا ضمن نطاق محدود جداً، على "دير بارم" لستندال، فضلاً على أنه من المستحيل تطبيقها على مبدعات بلزاك التي تحتل مكاناً مرموقاً في تاريخ الرواية الغربية. على أن تحليلات لوكاتش، كما هي عليه الآن، تسمح لنا، كما يبدو، بمباشرة دراسة سوسولوجية جدلية للشكل الروائي²، ومن هنا ينغمس غولدمان في استسقاء المفاهيم اللوكاتشية للرواية مستفيداً مما جاء به هيجل، وماركس³، وسيجموند فرويد⁴، وجان بياجيه⁵، ويعتبر أن الشكل الروائي في

¹ - غوستاف فلوبير، روائي فرنسي (1821-1880)، ولد في روان، بين 1834 و1837 كانت لديه كتابات مدرسية وخارج نطاق الدراسة، لوحظ في ما بعد أنها كانت بدايات أدبية مبكرة. أنظر: غوستاف فلوبير، التربية العاطفية، منشورات عويدات، ط1، بيروت 1983، ص 460.

² - لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسولوجيا الرواية، المرجع السابق، ص 14.

³ - كارل ماركس "1818- 1883" Marx "من أشهر علماء الاجتماع الألمان، أكمل دراسته الجامعية في جامعة برلين، وواصل دراسته العليا في جامعة جينا الألمانية وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، اشتهر "ماركس" بنزعه الثورية الممزوجة بالعنف الثوري التي ظهرت في مقالاته ودراساته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بعد أن اختار الصحافة ميداناً لنشاطه الفكري بدلاً من العمل الأكاديمي في الجامعة. حصل "ماركس" على حق اللجوء السياسي في إنجلترا عام "1851" التي مكث فيها حتى وفاته، من أبرز أعماله العلمية كتابها الموسوم "رأس المال" Capital وكتابه الموسوم "الثورة الاشتراكية" الذي ألفه مع "فريدريك إنجلز". توفي "ماركس" في عام "1888" في إنجلترا. أنظر: غني ناصر حسين القريشي، علماء الاجتماع الاقتصادي، موقع جامعة بابل، كلية الآداب، نشر بتاريخ 11-17-2011، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 23-10-2017:

<http://www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/lecture.aspx?fid=8&lcid=22777>

⁴ - سيغموند فرويد (1856-1939)، ولد في عائلة يهودية في فرايبورغ، عندما بلغ الرابعة من عمره انتقلت عائلته إلى فيينا، حيث عاش وعمل حتى عام 1938م عندما اضطر إلى الهروب إلى إنجلترا بعد الاحتلال النازي للنمسا، تخرج من الثانوية 1873 بنفق، في عام 1881م حصل على شهادة في الطب من جامعة فيينا، وفي عام 1885م نال منحة للدراسة في باريس، كما كان أستاذاً مشجعاً ذا شخصية جذابة كاريزمية حتى أن فرويد حمل له في نفسه إعجاباً شديداً، ولدى عودته إلى فيينا عام 1886 اشتغل فرويد في عيادته الطبية. أنظر: جون ليشته، خمسون مفكراً أساسياً معاصراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ت: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت 2008، ص 58.

⁵ - ولد جان بياجيه (1886-1980)، في نويشاتل في سويسرا، يعتبر جان بياجيه عالم نفسي كبير، وعالم أحياء مطلع، بالإضافة إلى أبحاثه التي أثرت في مجال الرياضيات، وتأثيره على علم التربية، حيث كان إنتاجه =

الحقيقة هو انتقال الحياة اليومية للمجتمع الفردي ولويد الإنتاج من أجل السوق إلى الصعيد الأدبي، فيقول: «يبدو لنا الشكل الروائي في الحقيقة على أنه نقل إلى الصعيد الأدبي للحياة اليومية في المجتمع الفردي ولويد الإنتاج من أجل السوق. ويوجد تجانس دقيق بين الشكل الأدبي للرواية، كما أتينا على تحديده تبعاً للوكاتش وجيرار، وبين علاقة الناس اليومية مع الأموال عموماً، وبشكل أوسع، علاقة الناس مع الناس الآخرين في مجتمع منتج من أجل السوق»¹، فجعل غولدمان تماثلاً بين الجنس الروائي وبنية التبادل والتغير داخل المجتمع في مقابل الإنتاج وهذا ما أطلق عليه فيصل دراج² «رواية الرأسمالية المتغيرة»³ حين يكون الارتباط واضحاً بين الشكل الروائي والمجتمع الرأسمالي، ومن هنا جمع بين الشكل الروائي والتطور الرأسمالي الاقتصادي، من خلال ربط العمل الإبداعي بوعي الجماعة أو الطبقة الاجتماعية. «فالأديب يفعل ما فعل إما لأنه ينتمي، اجتماعياً، إلى فئة محددة، بإمكانه التعبير عن أفكارها، أو لأن سيرته الذاتية، وبسبب وقائع معينة، تتوافق مع تجارب فئة اجتماعية،

=العلمي غنياً وضخماً. أنظر: جان بياجيه، الاستمولوجيا التكوينية، ت: السيد نقادي، دار التكوين، ط1، بيروت 2004، ص 20.

¹ - لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسولوجيا الرواية، المرجع السابق، ص 22.

² - ولد الدكتور فيصل دراج، في بلدة الجاعونة الفلسطينية، في عام 1943. حصل على درجة البكالوريوس في الفلسفة من جامعة دمشق. وعلى دكتوراه في الفلسفة من فرنسا. شارك في إصدار سلسلة "الفكر العربي" (1977-1982). وعمل مديراً لقسم الأبحاث والدراسات في المركز العربي للدراسات الاستراتيجية 1996-2002، وأشرف بالتعاون مع جمال باروت، على إصدار كتاب "مصائر الحزب السياسي في العالم العربي"، وإيضاً على ترجمة كتاب "بؤس العالم" لبيري بورديو، في ثلاثة أجزاء، وترجم كتاب كلود لوفور "التعقيد" عام 2007. أنظر: باسل أبو حمدة، فيصل دراج، جريدة البيان الإلكترونية، نشر بتاريخ: 20-05-2012، اطلع عليه بتاريخ: 12-02-2018 <https://www.albayan.ae/paths/art/2012-05-20-1.1652899>

³ - فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المرجع السابق، ص 37.

لا ينتمي إليها بالضرورة، أو أن الأديب يبدع ما يشاء من دون أن يبتعد، في الحالات جميعها عن الأرض التي تهيؤها له الجماعة»¹

ومن هنا نستقي مفهوم غولدمان للرواية من خلال:

- طبيعة البطل الإشكالي.

- التقابل بين البنية الروائية والبنية الاقتصادية.

- التقابل بين الوعي الفردي والوعي الجماعي للفئة الاجتماعية.

في حين يعطي ميخائيل باختين² Mikhail Bakhtin (1895-1975) لمفهوم

الرواية مجالاً مفتوحاً على التعدد والاختلاف والتنامي والتطور، باعتبارها الجنس التعبيري المستمر والمتواصل في النمو، وذلك «كونها جنساً تعبيرياً "غير منته" في تكوينه، مفتوحاً على بقية الأجناس الأدبية الأخرى ومستمدّاً منها بعض عناصرها، مما جعل خطاب الرواية خطاباً "خليطاً" متصلاً بسيرورات تعدد اللغات والأصوات، وتفاعل الكلام والخطابات والنصوص، ضمن سياق المجتمعات الحديثة القائمة على أنقاض قطائع اجتماعية وإبستمولوجية مع مجتمعات القرون الوسطى»³، وقد استند باختين

¹ - فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المرجع السابق، ص 49.

² - ولد ميخائيل ميخايلوفيتش عام 1895 في أورويل ابناً لعائلة أرستقراطية ما لبثت أن أضحت معدمة، درس فقه اللغة في جامعة أوديسا ومن ثم في جامعة بتروغراد عام 1918، عمل في سلك التعليم الابتدائي في بلدة نيفيل الريفية (1918-1920) ومن ثم وبدءاً من عام 1920 في فيتبسك، عام 1929 نشر باختين كتابه "مشكلات عمل دوستوفسكي"، وفي العام نفسه قبض على باختين لأسباب ظلت غير معروفة ولكنها قد تكون متعلقة بارتباطه بالمسيحية الأرثوذكسية، ولأسباب صحية خففت العقوبة إلى حكم بالنفي إلى قازخستان، وفي عام 1936 حصل على وظيفة في كلية المعلمين في سارانسك، في عام 1963 نشر كتابه عن دوستوفسكي، أما كتابه عن رابليه وهو أطروحته أكملها عام 1940، وبعد أن تدهورت صحته استقر باختين في موسكو عام 1969. ولقد قضى السنين الأخيرة من حياته في معتزل في كليوفسك قرب موسكو، ومات عام 1975 عن عمر يناهز الثمانين عاماً. للتوسع أكثر أنظر: تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحوارية، ت: فخري صالح، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2012، ص 40.

³ - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ت: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 1987، ص 07.

كثيراً على الجانب الأسلوبي للجنس الأدبي منوهاً بضرورة التحام اللغة والتعبير للكشف عن النبرة الاجتماعية للفئات، وعليه فالرواية من منظوره هي «التنوع الاجتماعي للغات، وأحياناً للغات والأصوات الفردية، تنوعاً منظماً أدبياً»¹.
وعليه فإن باختين يستند على خلفية مزدوجة²:

- عبرلسانية، تداولية (لا ترفض الألسنية) تركز على تصور فلسفي غيري، يتبنى معطيات التحليل التاريخي للمجتمع.
 - نقدية، سيميائية تسائل النص الروائي من منظور تشريح العلاقات الداخلية والخارجية، وفي أفق تحليل سوسولوجي لأشكال التعبير الإيديولوجي.
- وبذلك يُخرج باختين النص الروائي من فضاء البرجوازية لينغمس داخل المجتمعات وبين نطاقات الثقافة الشعبية، من خلال تداخل الخطابات وتعدد الأصوات في تلك البنية، ليعطي للغة (الكلمة، الملفوظ، الخطاب) مكاناً الصدارة في ممارسته النظرية للرواية. وذلك للتنوع الذي يراه في تعدد اللغة القومية، هذا التعدد الذي ينسجم مع رؤية باختين في السند الإيديولوجي الذي يجعل الرواية تتجه إلى سُبُلِهِ ؛ «كون العلوم والفنون تتبع تحول الإيديولوجيا وتطورها، ولهذا السبب نجد هذا التشابه "الشبه العائلي" بينها، بناء على ذلك لن يتكلم باختين عن "علاقات تحدّد، بل عن علاقات تلاؤم وكفاية" بين هذه الأشكال المختلفة من الإيديولوجيا»³.

1-2 تلقي الرواية ومفهومها عند العرب:

مع انتشار الفن الروائي كجنس أدبي، استطاع العالم العربي أن يرسم معالمه على صفحات الحياة العربية، وحاول استنشاق هذه الروائح الغربية واستنفاها في بعدها

1 - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص 15.

2 - المرجع نفسه، ص 15.

3 - ترفيتان تودوروف: ميخائيل باختين المبدأ الحوارية، المرجع السابق، ص 64.

العربي، فكانت هناك محاولات مهّدت لبزوغ فجر هذا الجنس الأدبي، انطلاقاً مما كتبه "محمد بن براهيم"¹، باعتباره أول من لمس فضاءات الرواية في الجزائر، من خلال روايته "حكاية العشاق في الحب والاشتياق"، ولولا الأرياك الشديد الذي شهدته تقنيا لكانت أول رواية عربية، ومع ذلك فهي تعتبر لبنة أولى في حقول النص الروائي العربي «وإذا كان ذلك ممكناً تكون الرواية العربية الحديثة قد ولدت في الجزائر في منتصف القرن التاسع عشر، قبل ميلادها بأكثر من ستين سنة، التاريخ الذي لا يزال يؤرخ له بروايته "زينب" للدكتور محمد حسين هيكل²، سنة 1914»³، على أن البداية الفعلية للرواية العربية لحما ودما -حسب تعبير الدكتور غالي شكري⁴- لم تكن مع رواية "زينب" سنة 1914، بل كانت تلك البداية مع رواية "عودة الروح"⁵ لتوفيق الحكيم، هذه الرواية التي نشرها سنة 1933م، «واعتبرت كذلك لاكتمال بنائها واحتوائها على مضمون

¹ - معروف بالأمر مصطفى من شخصيات مدينة (الجزائر)، وقد كان (جده مصطفى باشا) دايا على الجزائر (1795-1805) وقضى اغتيالاً، كما كان أبوه (ابراهيم بن مصطفى) ت (1847م) صديقاً للسيد (حمدان حوجة) أما المؤلف فقد ولد سنة (1806م) وبذل أمواله لإعانة الفقراء وللهو أيضاً، وأتى على البقية للصوص حين سطوا على منزله في (القصبة) سنة (1885م). أنظر: عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2009، ص 34.

² - محمد حسين هيكل (1888-1956) روائي وصحافي وكاتب وسياسي مصري، ولد بقرية كفر غنام بمدينة المنصورة بمحافظة الدقهلية بمصر. أنظر: محمد حسين هيكل، مجلة القصة السورية، نشر بتاريخ: 23-11-2008، اطلع عليه بتاريخ: 12-11-2017: <http://www.syrianstory.com/m-haykalle.htm>

³ - عمر بن قينة: دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 145.

⁴ - غالي شكري (1935-1998) كاتب وباحث وناقد ومؤرخ مصري. اشتهر بأبحاثه وكتبه النقدية الكثيرة. حصل على الدكتوراه من السوربون بفرنسا، أسس مجلة القاهرة، وحصل على جائزة الدولة التقديرية في 1996. أنظر: غالي شكري، موقع المعرفة، اطلع عليه بتاريخ: 12-02-2018: <https://www.marefa.org/>

⁵ - يقول الدكتور غالي شكري: إن «الجوهر القومي، هو الذي أدى -في المستوى الأدبي- إلى ميلاد الشخصية المصرية في الفن، وبالتالي إلى ميلاد الرواية "المصرية" لحما ودما، الرواية المصرية التي لا تبدأ "بحديث عيسى بن هشام" ولا "بزينب"، وإنما "بعودة الروح". وهذا لا ينفي أن المولحي وهيكل كانا خطوتين هامتين في تاريخ أدبنا الروائي»، أنظر: غالي شكري، ثورة المعتزل دراسة في أدب توفيق الحكيم، المرجع السابق، ص 112، 113.

اجتماعي حي، ربط فيه المؤلف بين حياة أسرة صغيرة، ومصر كلها في مرحلة من التاريخ كانت تتلملح فيه من حكم المحتل الغاصب حتى أتيح لها أن تعبر عن حيويتها في ثورة 1919 التي تألفت فيها قوى الشعب المصري فقام قومة رجل واحد، أو فيها ذابت جموعه في شخصية واحدة يمثلها الزعيم سعد زغلول»¹.

وبعيدا عن التأصيل التاريخي وانغماسا في مفهوم الرواية عند العرب من خلال التلقي العربي لها، يراها الدكتور محمد زغلول سلام² في السياق الذي تحدث عنه محمود تيمور³ بأن المؤلف يعالج فيها «موضوعا كاملا أو أكثر زاخرا بحياة تامة واحدة أو أكثر، فلا يفرغ القارئ منها إلا وقد ألمّ بحياة البطل أو الأبطال في مراحلهم المختلفة، وميدان الرواية فسيح أمام القاص يستطيع فيه أن يكشف الستار عن حياة أبطاله ويجلو الحوادث مهما تستغرق من الوقت»⁴، ومن ثم فهي في مجالها المصطلحي «سرد قصصي نثري طويل يصوّر شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأحداث والأفعال والمشاهد»⁵، لكن ورغم ذلك فقد توغل بعض الباحثين في محاولات جادة لترسيم معالم للرواية في تلقيها العربي، مثل بعض التقسيمات الموضوعية (تخص موضوع الرواية) التي تناولها مثلا عبد الله العروي⁶، حين كشف عن الرواية تاريخية المنحى والرواية الإثنوغرافية، بين قلب المدينة الواسعة وبين وصف الضواحي، لكنه

¹ - محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة أصولها اتجاهاتها أعلامها، منشأة المعارف بالأسكندرية، القاهرة دت، ص 171.

² - محمد زغلول سلام، مفكر وأديب وباحث أكاديمي مصري (توفي في 2013)، انظر: موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، اطلع عليه بتاريخ: 2018-03-12: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

³ - محمد عبد الحميد مندور (1907-1965) أديب وناقد مصري حديث، أنظر: محمد مندور، موقع المعرفة، اطلع عليه بتاريخ: 2018-03-03: <https://www.marefa.org/>

⁴ - محمد زغلول سلام: المرجع السابق، ص 05.

⁵ - إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المرجع السابق، ص 176.

⁶ - عبد الله العروي (1933، أزمو) مؤرخ وروائي مغربي. أنظر: عبد الله العروي، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، اطلع عليه بتاريخ: 2018-03-03: https://ar.wikipedia.org/wiki/عبد_الله_العروي

في خضم ذلك يتساءل عن جدوى الفعل الروائي في العالم العربي، باعتبار أن الرواية ذات نشأة برجوازية أخذت تطورها الطبيعي والبطيء، لكن في عالمنا «ولدت الطبقة البرجوازية عندنا دفعة واحدة، بصفاتها وارثة عالم الأجانب المغلق، أكان الأجانب أتراكا أم فرنسيين، وهذه النقلة المباشرة لا تحمل في ذاتها عنصر الروائية المبني أصلا على التطور البطيء، فلا يمكن بالتالي التعبير عنها في شكل رواية كلاسيكية»¹.

وعليه يقرر أن نوعا من التصنع يظهر في ممارسة الفعل الروائي، فنجد «الرواية العربية تصف ضرورة الأطراف بوساطة شكل سردي أبداع أصلا لوصف المركز، لذا نراها تميل ميلا طبيعيا إلى التجريد والتقرير والتصنع، وهو ما يلاحظ بالأسف حتى عند نجيب محفوظ»²، وربما هذا المنحى الذي سلكه عبد الله العروى في بناء تصور موضوعي للرواية مقارنة بمنتجها الغربي لم يجد مكانا له في منتج المتلقي العربي، ويمكن أن نقول إن هذا الأخير سلك بالرواية مسلكا آخر في إنتاج نص روائي مختلف، ورغم ذلك «تبدو الرواية عامة، وضمنها الرواية المغربية أثناء تكونها وتطورها، تحت ضغط عوامل مختلفة ومعقدة»³، منفصلة من نظام وسياقات معينة أنشأتها، وهاربة نحو تجارب مختلفة ومتناقضة ومتداخلة، فهي «بتعبير السيميائية الدينامية، مجالا للكوارث والاختراقات الناتجة عن تعدد خطوط الانفلات وتنوع المستويات واكتساح موجات التشويش لفضائها غير المنضد، والمنفتح باستمرار، على أفق تجاوز الصيغ والأشكال الجاهزة»⁴. ليبقى مفهوم الرواية في فضائه الفسيح غير ملتزم بمصطلحات معينة ودقيقة، لكنه يجري في السبيل المنفتح الذي يُبقي على الإبداع في حرية غير مقيد بأطر آلية تحدّ من تدفقه، لذلك يظل كما هو عند الكثيرين

¹ - عبد الله العروى: الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب 1995، ص 242.

² - المرجع نفسه، ص 242.

³ - أحمد البيوري: دينامية النص الروائي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، الرباط 1993، ص 20.

⁴ - المرجع نفسه، ص 20.

مفهوماً منفتحاً يكون فيه التجريب والابتكار أهم طريقتين في إنتاج النص الإبداعي الروائي.

2- مفهوم علم الاجتماع:

اهتم الباحثون بدراسة المجتمعات وكل ما يطرأ عليها من تغيرات وما يكتنفها من علاقة وطيدة بسلوكيات أفرادها، وكل ما تتضمنه من تفاصيل ظلت طيلة أزمنة مواكبة لحركتها، وعليه فقد كان لعلم الاجتماع بناءاً منهجياً يسير وفق تلك التحوّلات ويدرس معطياتها ونتائجها، ويعتبر «أول من استعمل اصطلاح سوسيولوجي "علم الاجتماع" العالم الفرنسي "أوجست كونت"¹، وتبعه الفيلسوف الإنجليزي "ستيوارت مل"² استعمل هذا الاصطلاح في كتابه "علم المنطق" في عام 1843، وكان يعني هذان العالمان بهذا الاصطلاح الحقيقة والمنهاج الذي يجب أن يتبعه علم دراسة المجتمع»³.

ومن جهة أخرى وفي السياق نفسه فإن الكثير من الباحثين في هذه الحقول يؤكدون على أن هناك شخصيات علمية لها أثر كبير في رصد هذه المجالات المعرفية وبناء عوالمها الهامة التي تتوغل في تتبع كل ما يتعلق بالإنسان ومجتمعه، بل و«يجمعون على أن أبرز الشخصيات في تاريخ علم الاجتماع هم: "ابن خلدون"⁴، و"أوغست كونت"، و"هربرت سبنسر"⁵، و"إميل دوركهايم"¹، و"ماكس فيبر"²، وهم

¹ - أوغست كونت Auguste Comte (1798-1857) فيلسوف فرنسي، ولد في مدينة مونتبيليه Montpellier

يعدّ من أوائل المؤسسين لعلم الاجتماع. أنظر: فاروق عبد المعطي، أوغست كونت مؤسس علم الاجتماع الحديث، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان 1993، ص 07.

² - جون ستيوارت مل (1806-1873)، هو فيلسوف واقتصادي بريطاني، ولد في لندن. انظر: جون ستيوارت مل، الموسوعة الحرة، اطلع عليه بتاريخ: 11-10-2017: جون_ستيوارت_مل https://ar.wikipedia.org/wiki/جون_ستيوارت_مل

³ - فراس عباس البياتي: علم الاجتماع دراسة تحليلية للنشأة والتطور، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، عمان الأردن 2011، ص 12.

⁴ - العلامة بن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (1332-1406)، ولد في تونس وينحدر من أصل أشبيلي، تلقى العلم على عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس. أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، د ط، بيروت (لبنان) 2001، ص 03.

⁵ - هربرت سبنسر Herbert Spencer (1820-1906) فيلسوف بريطاني، مؤلف كتاب "الرجل ضد الدولة" الذي قدم فيه رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها. كان سبنسر، وليس داروين، هو الذي اوجد مصطلح "البقاء =

يمثلون الحقبة التي تشكّل فيها علم الاجتماع»³، ومن ثم فعلم الاجتماع تكوّن للتعمّق في دراسة المجتمع وحياة الجماعات وتفاعل الأفراد فيما بينهم، من خلال تفكيك السلوكات ودراسة المنتجات الفكرية التقليدية، حيث نجد هذا العلم «معنيّ بدراسة الحياة الاجتماعية والجماعات والمجتمعات الإنسانية، إنه مشروع مذهب وشديد التعقيد لأن موضوعه الأساسي هو سلوكنا ككائنات اجتماعية، ومن هنا فإن نطاق الدراسة الاجتماعية يتسم بالاتساع البالغ»⁴.

وقد تطرق "ابن خلدون" إلى تفاصيل تستقطب معالم هذا العلم وتتوغل في طبيعته وخصائصه وتحولاته، مستظهرا قيمة الدراسة العمرانية للفئات الاجتماعية، ومن هنا يقف على دلالات هذا العلم، ويعرّفه بأنّه «ما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش، والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشئ من ذلك من المُلْك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من

=للأصلح. أنظر: هربرت سبنسر، الموسوعة الحرة، اطلع عليه بتاريخ: 11-10-2017:

<https://ar.wikipedia.org/wiki>

¹ - إميل دور كايم David Emile Durkheim (1858-1917) ولد في مدينة إبينال بمقاطعة اللورين من أسرة يهودية تتمسك بتقاليد الدين، أتم رسالة الدكتوراه عن "تقسيم العمل الاجتماعي" ونشرها عام 1893، وفي عام 1906 شغل كرسي التربية بجامعة السربون، وقد نشر آخر أعماله عام 1912 "الصورة الأولية للحياة الدينية" قدم فيه نتائج دراساته للقبائل الأسترالية عن الدين والأخلاق، ولقد أصيب دوركايم بنوبة قلبية حادة مما عجل بوفاته سنة 1917م. أنظر: حميدة ميلود، أميل دور كايم خلفية تاريخية، جريدة الحياة العربية، ع 385 / 24-09-1994، ص 12.

² - ماكس فيبر Max Weber (1864-1920)، أستاذ القانون، والعلوم المالية، وعلم الاجتماع، في جامعات ألمانية عديدة وفي فيينا. أرسى ما بات يعرف بعلم الاجتماع الفهمي، وعلم الاجتماع الديني. أنظر: ماكس فيبر، العلم والسياسة بوصفهما حرفة، ت: جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت 2011، ص الغلاف.

³ - جيل فيريول: معجم مصطلحات علم الاجتماع، ت: أنسام محمد الأسعد، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت 2011، ص 06.

⁴ - أنتوني غدينز: علم الاجتماع، ت: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ك4، بيروت لبنان 2001، ص 47.

الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال»¹.

وفي هذا السياق يستجلي الكاتب الفرنسي أوغست كونت هذه العوالم الرحبة، حيث يعتبر هو أول من ابتكر هذا الاصطلاح² كي يميّزه عن بقية العلوم، «ويزعم كونت في قانون المراحل الثلاث الذي وضعه أن المسعى البشري لفهم العالم قد مرّ في ثلاثة أطوار: اللاهوتي، والميتافيزيقي، والوضعي، ففي المرحلة اللاهوتية، كان الفكر الإنساني مسيراً بالأفكار الدينية وبالاعتقاد بأن المجتمع ما هو إلا تعبير عن إرادة الله، وفي المرحلة الميتافيزيقية التي تصدرت الفكر البشري في فترة عصر النهضة الأوروبية، بدأ الناس ينظرون إلى المجتمع في إطاره الطبيعي، لا باعتباره ناجماً عن قوى فوق الطبيعة، أما المرحلة الوضعية التي دشنتها الاكتشافات والانجازات التي حققها كوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن، فقد اتسمت بتشجيع تطبيق الأساليب العلمية لدراسة العالم الاجتماعي، وانطلاقاً من هذا الاعتقاد، اعتبر كونت علم الاجتماع آخر العلوم التي نشأت في هذا الإطار على غرار ما آلت إليه الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء، غير أن علم الاجتماع هو الأكثر تعقيداً وأهمية من العلوم كافة»³. وفي فضاء يعمّق التصورات الكونتية ويتجاوز ذلك إلى بناء نظرة أكثر اتساعاً ودقة، قدّم الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي أميل دوركهايم رؤية تحيل اهتمام الدراسة من الأفراد

¹ - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أ.م. كاترمير، عن طبعة باريس 1858، مكتبة لبنان، ج1، بيروت 1992، ص 56.

² - ابتكر للمبحث الجديد اسمه الشائع الآن "علم الاجتماع/ سوسولوجي" وقد سمي كونت هذا الموضوع أول الأمر "الفيزياء الاجتماعية"، إلا أن بعض منافسيه المثقفين كانوا يستخدمون هذا الاصطلاح في ذلك الوقت، وحاول كونت أن يميّز آراءه عن مفاهيمهم، فنحّت مصطلح "علم الاجتماع" لوصف ميدانه البحثي. أنظر: أنتوني غدينز، علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 61.

³ - المرجع نفسه، ص 62.

إلى الوقائع الاجتماعية¹، وبذلك يعتبر «الهّمّ الفكري الرئيسي لعلم الاجتماع لدى دوركهايم هو دراسة الحقائق الاجتماعية، وبدلاً من تطبيق مناهج علم الاجتماع على دراسة الأفراد، فإن على علماء الاجتماع أن يركزوا بحوثهم على الوقائع الاجتماعية، أي على جوانب الحياة الاجتماعية التي تقولب أفعالنا بوصفنا أفراداً، مثل حالة الاقتصاد، أو تأثير الدين. وكان دوركهايم يعتقد أن للمجتمعات كينونة وواقعا مستقلا بحد ذاته، وبعبارة أخرى فإن المجتمع هو أكبر كثيراً من كونه تجمعاً لأفعال أفراده وأعضائه ومصالحهم»².

وفي هذا المضمار تركز الدراسة العلمية لمفهوم علم الاجتماع على عدة مفاهيم أخرى تصب في اتساع وتعدد مفاهيم هذا العلم، فنجد أن أهمها ما قدّمه عالم الاجتماع البريطاني موريس كينز بيرك³ Morris Ginsberg (1889-1970) حيث يرى أن علم الاجتماع هو «العلم الذي يدرس طبيعة العلاقات الاجتماعية وأسبابها ونتائجها وفق نهج ومستويات مختلفة كالعلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات»⁴، كما عرّفه ماكس فيبر على أنه «العلم الذي يفهم ويفسر السلوك الاجتماعي وهو يقصد

¹ - يُقرّ دوركهايم أن دراسة الحقائق الاجتماعية ليست بالأمر السهل، ويعود ذلك إلى أنها خفية وخبيثة ولا تتسنى ملاحظتها بصورة مباشرة، ولا بد على هذا الأساس من كشف هذه الحقائق بصورة غير مباشرة عن طريق تحليل آثارها أو بدراسة الوسائل التي يحاول المجتمع من خلالها التعبير عن هذه الخصائص مثل القوانين والنصوص الدينية وقواعد السلوك المكتوبة. أنظر: أنتوني غدينز: علم الاجتماع، المرجع السابق، ص 64.

² - المرجع نفسه، ص ص 63، 64.

³ - موريس بيرك، عالم اجتماع بريطاني، شغل منصب رئيس تحرير مجلة (Sociological Review) في الثلاثينيات، وأصبح فيما بعد الرئيس المؤسس لجمعية علم الاجتماع البريطانية عام 1951، وكان رئيساً لجمعية أرسطو ما بين 1942 و1943، ساعد في صياغة بيان اليونيسكو لعام 1950، تحت عنوان "المسألة العرقية".

أنظر: BULLETIN INTERNATIONAL DES SCIENCES SOCIALES, vol II N°1. Paris : 1950. Et Site Wikipidia : https://en.wikipedia.org/wiki/Morris_Ginsberg. Consulté le:

09.01.2018

⁴ - فراس عباس البياتي: علم الاجتماع دراسة تحليلية للنشأة والتطور، المرجع السابق، ص 12.

بالسلوك الاجتماعي - أية حركة أوفعالية مقصودة يؤديها الفرد وتأخذ بعين الاعتبار وجود الأفراد الآخرين»¹، في حين يعرفه العالم جورج زيميل² Georg Simmel (1858-1918) بأنه «العلم الذي يهتم بدراسة شبكة العلاقات والتفاعلات والمؤسسات على اختلاف أنواعها وأغراضها - فعلم الاجتماع كما يراه زميل - ينبغي أن يدرس العلاقات والتفاعلات كما تقع وتتكرر خلال فترات تاريخية مختلفة وفي موضوعات حضارية متنوعة»³.

وإذا أخذنا باعتبار ما ذهب إليه كونت ودوركهايم من اتساع هذا العلم، وما ذهب إليه الباحثون في هذا الاتجاه من خلال تنوع المفاهيم أو تباينها؛ «فإن ثمة نقاطاً أساسية تمثل ولو هيكلًا عامًا يتحرك من خلاله علم الاجتماع، ويتحدد به موضوعه الأساسي وهو هيكل يشير إلى: إن علم الاجتماع هو علم دراسة الإنسان والمجتمع، دراسة علمية، تعتمد على المنهج العلمي، وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث، وهذا البعد الأساسي في التعريف يعدّ حصاد تطورات علم الاجتماع منذ أن ولد على يد العلامة العربي "ابن خلدون"»⁴.

وبناء على ذلك، ومن خلال هذا التنوع الذي عرفه مفهوم علم الاجتماع، إلا أن الجوهر الذي ينغرس في قلب هذا الفضاء المتسع هو المجتمع والإنسان، فهو علم

¹ - فراس عباس البياتي: علم الاجتماع دراسة تحليلية للنشأة والتطور، المرجع السابق، ص 12.

² - ولد زيميل في برلين، وبعد دراسة الفلسفة (دافع عن أطروحة حول كانت) تكفل في الجامعة بحلقات دراسية قيمة، لكن رغم الحيوية والذكاء الحاد الذين قدم البرهان عليهما، فإنه لم يحصل على منصب رسمي نهائي، أبدى اهتماماً بتاريخ الفلسفة وبالحيثيات الاجتماعية الأكثر حضوراً، كما بالظواهر التي هي بشكل مسبق أقل أهمية (جمالية الوجه، الأطلال، المغامرة..). وفي عام 1914 تمكن زيميل أخيراً من الحصول على منصب في جامعة ستراسبورغ، وتوفي بعد ذلك بأربع سنوات. أنظر: فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية اعلام وتواريخ وتيارات، ت: إياس حسن، دار الفرقد، ط1، دمشق 2010، ص 71.

³ - فراس عباس البياتي: المرجع السابق، ص 13.

⁴ - عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، ع 44، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1998، ص 15.

يسهم في التعرف على خبايا المجتمعات وطرائق تفكيرها وصيغ منتجاتها الفكرية والتقليدية والمادية الحديثة والمتوارثة، وما يتمظهر من أنماط وقيم متعددة، كما يشارك في التنمية والتطوير والتخطيط والبناء.

3- مفهوم علم الاجتماع الروائي:

لقد سعى علم الاجتماع منذ بداياته إلى محاولات جادة للتوغل داخل فضاء المجتمع والأفراد، منتبها لخصوصيات كل معرفة في رواقها الذي تُبَيِّنُه وتُستظهره أدواتها الخاصة، فلسفيا واقتصاديا وسياسيا، وغير ذلك، ومنذ أن تأسس علم اجتماع المعرفة على يد كارل منهايم¹ Karl Mannheim (1893-1947) وهو يسترشد طريقا في البحث داخل النصوص وتفسيرها في أطر النسق الاجتماعي، ولذلك يرتبط التفسير الاجتماعي للرواية بهذا العلم، فيكون الارتباط مع الإنتاج الفكري والسياقات الاجتماعية التي أنتجتها، كما يرتبط بعلم اجتماع الأدب ويتفرع منه، وبالتالي فإن متابعة مفهوم علم الاجتماع الروائي ليس مهمة سهلة، فهو حقل ما يزال يكتتفه الغموض، وما زالت تتجاذبه الأفكار والتصورات، وقد أشار جاك لينهارت² Jacques Leenhardt (17 أبريل 1942م-..) إلى أن «علم اجتماع الأدب يستعيد نوعين من البحث شديدي التمايز، بالخصوص، فالنوع الأول، يعتبر الأدب منتجا للاستهلاك، والثاني، يكون فيه الأدب جزءا لا يتجزأ من الواقع الاجتماعي، أو بعبارة أخرى، وبالنظر إلى الأمور من زاوية أخرى، يكون المجتمع مكانا للاستهلاك الأدبي، ويكون

¹ - كارل منهايم، عالم اجتماع يهودي، مجري الأصل. ولد بهنغاريا لأب هنغاري وأم ألمانية، حصل على الدكتوراه في الفلسفة عام 1922م، حدد مجالات ومناهج علم اجتماع المعرفة من خلال كتابه (الإيديولوجيا والبيوتوبيا مقدمة في سوسولوجيا المعرفة)، خلال حياته في إنجلترا كتب منهايم ونشر العديد من الكتب والأبحاث، لكن مؤلفاته وأبحاثه في ألمانيا لا تزال تعتبر أهم أعماله وأكثرها أصالة وإبداعا. أنظر: كارل منهايم، الإيديولوجيا والبيوتوبيا مقدمة في سوسولوجيا المعرفة، ت: محمد رجا الديري، شركة المكتبات الكويتية، ط1، الكويت 1980، ص ص 349، 350.

² - يعدّ جاك لينهارت أحد تلامذة لوسيان غولدمان ورغم ذلك لم تمنعه التلمذة من نقده، كما يعد كتابه "قراءة سياسية للرواية: الغيرة لغرييه" تدعيما لمنهج غولدمان، وفي الوقت نفسه مساهمة في تطويره ونقد مفاهيمه. انظر: ابراهيم الخطيب، قراءة سياسية للرواية: الغيرة، ضمن كتاب البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص 123.

كموضوع للإبداع الأدبي»¹، وعليه يضع جاك لينهارت الأدب في مقابل المجتمع الاستهلاكي حين يكون فيه الأدب كسلعة، وهنا لا يتطرق هذا النوع إلى داخل النصوص، ويضع الأدب في مقابل المجتمع فيرتبط هذا النوع بالنص لسانا وأدبا وقضايا وظواهر.

ورغم هذه التساؤلات التي حمل مفاتيحها الباحثون في مجال النقد الأدبي الاجتماعي، إلا أن هناك محاولات جادة لتفكيك هذه العوالم والتدخل من أجل لمس فضاءات هذا النوع من الأسئلة بشكل هادف وفاعل، فقد درس هذه الحقول وخرق ضبابيتها وتناول أطروحاتها كتاب ونقاد لهم وزنهم المعرفي، وهذا ما حققته الكاتبة الفرنسية مدام دي ستايل² Germaine de Stael (1766-1817) التي مهدت لهذه العلاقة العلمية العميقة من خلال كتابها "حول الأدب باعتباره في علاقاته مع الأنظمة الاجتماعية"³ فأكدت على أنها تريد أن تُظهر هذه العلاقة بين الأدب والأنظمة الاجتماعية، من خلال مراعاة الخلفيات الاجتماعية والثقافية والإيكولوجية، وبالتالي «لا يمكن أن يُفهم تاريخ أدب ما ويُدرس إلا ارتباطا بالحالة الاجتماعية

¹ Jacques Leenhardt « La sociologie de la littérature quelques étapes de son - 1 histoire», in «Revue internationale des sciences sociales», Volume XIX (1967), N° 4, p 555.

² - روائية وناقدة فرنسية. ولدت عام 1766 في باريس لأسرة ثرية وذات مكانة نبيلة. وهي، انطلاقاً من رغبات أدبية تجلت لديها باكراً - لكنها لم تستند إلى موهبة حقيقية على أي حال - ارتبطت منذ صباها بالصالونات الأدبية النسائية التي كانت مزدهرة لدى نساء طبقات النبلاء في فرنسا ذلك الحين. ولقد كتبت مدام دي ستايل العديد من النصوص والرسائل طوال حياتها. أنظر: ابراهيم العريس، تأملات حول الثورة الفرنسية لمدام دي ستايل، جريدة الحياة، اطلع عليه بتاريخ: 2018-03-03: <http://www.alhayat.com/article/442078>

³ - Madame de Stael : De la littérature considérée dans ses rapports avec les institutions sociales. Charpentier Libraire-éditeur. Paris 1860. P02.

والأخلاقية لدى الشعب الذي أنتجه»¹ وبالإضافة إلى ذلك جاءت كتابات أخرى على غرار هيبوليت تين، وأوغست كونت، وماركس في رؤيته حول المنتج الفكري وعلاقته بأدوات الإنتاج، وما جاء به فرنان ديفوار، في قفزة نوعية تقترب بشكل كبير من سوسولوجيا الأدب، حيث «نشر فرنان ديفوار»² (Fernand Divoire) عام 1912، بطريقة ساخرة، نسا بعنوان "مدخل إلى الإستراتيجية الأدبية" الذي استخلص الدرس عن "حرب الضفتين" وعن الصراعات التي انخرطت فيها مجموعات صغيرة بحثاً عن الشرعية عند نهاية المدرسة الرمزية، ينطبق على النص القول "من فمك أدينك" فهو يعبر عن آمال الكاتب وخيبته، وهو كذلك وصف لوسائل وصول الكتاب الشباب الذين يواجهون القانون القاسي للعرض والطلب»³.

كما أن إميل دوركهايم له بصمة خاصة في ذلك، باعتباره المؤسس النظامي لعلم الاجتماع، دون أن يلج إلى عوالم الفن، لكن غوستاف لانسون⁴ Gustave Lanson (1857-1934) لعب «على هذا الصعيد دوراً أساسياً. في نظره، كما في نظر

¹ - بول آرون وألان فيلا: سوسولوجيا الأدب، ت: محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت لبنان 2013، ص 23.

² - Fernand Divoire, né le 10 mars 1883 à Bruxelles et mort le 18 juillet 1951 à Vaucresson, est un écrivain d'origine belge et naturalisé français en 1912. Voir : Fernand Divoire, L'encyclopédie lire, consulté le 11-10-2017 : https://fr.wikipedia.org/wiki/Fernand_Divoire

³ - بول آرون وألان فيلا: المرجع السابق، ص 19.

⁴ - غوستاف لانسون هو مؤرخ وناقد أدبي فرنسي، تحصل على الدكتوراه في الأدب سنة 1879، ساهم بقوة في مجال المنهج الموضوعي والتاريخي في دراسة الأعمال الأدبية، أنظر : Présentation de Gustave Lanson : Gustave Lanson , fr.scribd, sur : <https://fr.scribd.com/document/329322638/Presentation-de-Gustave-Lanson>. Consulté le 09-01-2018.

أسلافه "خصوصا لهارب La harpe عند نهاية القرن الثامن عشر" يرمي التاريخ الأدبي إلى تنظيم نتاج الكاتب ومؤلفاته»¹.

ولوكاتش الذي جسّد رؤيته من خلال منظور علم الاجتماع في فضاء البطل الإشكالي، هذا البطل الذي يقع في دائرة صراع بينه وبين العالم، فهو يتحدث عن شخصية إشكالية غارقة في الجدل، ومن ثم فالرواية في بعدها الاجتماعي هي «تاريخ بحث منحط (يسميه "كافرا") عن قيم أصيلة من قبل بطل إشكالي في عالم منحط»²، على أن لوسيان غولدمان يدلّل على أن المصطلحات التي يستخدمها جيرار³ وبالتالي لوكاتش، ذات بعد هيدغري، «بيد أنه يضيف عليها غالبا مضمونا يختلف بوضوح عن المضمون الذي يمنحه لها هيدغر»⁴.

ويستفيض لوسيان غولدمان في منح الأفكار اللوكاتشية أبعادا أخرى، حيث رسم للعالم الروائي مجالا اجتماعيا غير فردي، بل يكون العمل الإبداعي رؤية للواقع الاجتماعي لفئة جماعية معينة، تتقابل فيها التفاصيل الأدبية مع التفاصيل اليومية الاجتماعية، حياة النص في مقابل حياة المجتمع، ويكون المجتمع شريكا في بناء النص الروائي للمبدع الفرد، فيحوّل الفردي إلى جماعي، والجماعي أداة توجيه فردية سواء لغاية تلك الجماعات أو لأهداف قد تختلف عنها، أو قد تناقضها تماما، وهذا ما يمكن وصفه بـ«الوضعيات، والوضعيات المضادة، ثم التجاوز الذي هو وجه الكلية»⁵،

¹ - بول آرون وألان فيلا: سوسولوجيا الأدب، المرجع السابق، ص 27

² - لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسولوجيا الرواية، المرجع السابق، ص 16.

³ - تتفق تحليلات رينيه جيرار في أغلب الأحيان مع تحليلات لوكاتش التي سبقتها أربعين عاما، غير أن فكر لوكاتش بوصفه فلسفة للتاريخ، يقتضي فكرة صيرورة المعرفة وأمل التقدم وخطر الانكفاء، أنظر: المرجع نفسه، ص 16.

⁴ - المرجع نفسه، ص 16.

⁵ - Mohamed Salim Negged : La sociocritique de L. Goldmann, épistémologie critique : de la théorie à l'analyse de Phèdre. Université d'Alger2. P06.

هذه الوضعيات التي يمكن تفكيكها من أجل الوصول إلى رؤية للعالم، يدرس من خلالها وعي الطبقات الاجتماعية فيما هو وعي قائم وممكن، أين يمكن "تجاوزها" داخل "كلية" لاستخراج فضاءات أخرى تفيد معرفة شاملة لهذه الفئات الاجتماعية، فما بين الفردي والجماعي يتمركز العمق الدلالي لتلك الفئات، ذلك «أن الظواهر الفنية، ولا سيما الأدبية منها هي، من جهة، وقائع جماعية، ومن جهة أخرى، تتميز بإبداعات فردية، وفي الوقت نفسه، بصدى يختلف باختلاف الأفراد الذين يتلقون هذه الأعمال الفنية. هذا التوتر بين الفردي والجماعي المندرج في طبيعة العمل الأدبي ذاتها هو الذي يؤسس المفارقة — وكذلك، بالتالي، الفائدة — في قراءة الأدب قراءة سوسولوجية. تشكل هذه الأخيرة صعوبة ثانية، وتتغذى من اقتباسات من الفلسفة السياسية (من بينها الماركسية)، ومن علم الاجتماع ومن الشعرية وعلم الجمال ومن التاريخ تنشأ عن هذا التنوع والتعدد طرق شتى متعددة ومتنوعة أيضا في رؤية الروابط بين الأدبي والاجتماعي»¹ ومن ثم لتصنع تصورا يربط ما هو نصي أدبي بما هو اجتماعي، ليس تعبيراً تاماً عن الواقع أو انعكاساً له أو نقله بحذافيره، وإنما هو تصوّر للواقع من خلال آليات متعددة كتبها الكاتب في إطار حلقة اجتماعية وتاريخية وسياسية واقتصادية معينة شاركت فيها، وفي هذا السياق «يرى غولدمان أن القيم الروحية للنفس البشرية تعبر عن نفسها بأشكال وبنى جمالية عديدة: إن نظرة إلى العالم تتكوّن فيها، هذه النظرة لا تعبر عن "أفكار" أو "رغبات" مجموعة أو فرد، بل عن وعي ممكن لديهما — أي وعي حقيقة العلاقات الاجتماعية لا انعكاسها الذي تشوّهه الإيديولوجيا»². وسنتطرق إلى عوالم غولدمان في اشتغاله على الرواية وتنظيراتها من خلال الفصل القادم حول البنيوية التكوينية.

¹ - بول آرون وألان فيلا: سوسولوجيا الأدب، المرجع السابق، ص 10، 11.

² - المرجع نفسه، ص 36.

II- النقد الروائي الاجتماعي:

1- النقد الروائي الاجتماعي والإيديولوجيا:

ينبني التفاعل المبدئي في دراسة الأدب والواقع من خلال تلك العلاقة التي تربط بينهما، ثم من خلال الخلفية الإيديولوجية، لتسترشد طريقاً لتفسير النصوص ودراستها في سياق الواقع الاجتماعي والإيديولوجي، فقد وجدت الواقعية سبيلاً لمحو الوقائع القاسية التي حفلت بها الرومانسية الرمزية، وشكلت بذلك في معتركها الجديدة أدوات مستحدثة تخرج بالعمل الأدبي من البرجوازية إلى وقائع أكثر توغلاً في المجتمع، ومن هنا فالواقعية «لفظاً ومذهباً فنياً مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بالقرن التاسع عشر، بل وبفلسفته أيضاً وبحياته الاجتماعية»¹، وبظهور الرواية الواقعية ساعد ذلك في ظهور النقد الروائي الإيديولوجي، وعليه تتمثل الإيديولوجيا داخل النطاق الأدبي الروائي في امتهان الكاتب لرؤية موضوعية يتجاوز فيها ذاتيته وإن خاض في الأمور الذاتية، فذلك التجاوز يتيح للعمل أن يأخذ مساحته من التصوير الفني الدلالي الهادف، ولعل المنتج الإبداعي يكون في صورته هذه انعكاساً للتحويلات الفكرية في المجتمع، بل وتعمقاً في بنيته للعلاقات الداخلية وما تحويه من تصورات وأفكار، وهذا ما يجعلنا نقف عند مفهوم الإيديولوجيا من جهة وعلاقتها بالنقد الاجتماعي، والرؤية للعالم.

على أن تحديد مفهوم الإيديولوجيا من المهمات الصعبة التي تناولها الدرس النقدي الأدبي والفكري الفلسفي، حيث يتوغل هذا المصطلح في عدة علوم إنسانية وحقول معرفية يسير وفق تطورات مختلفة، ويقدم عبد الله العروي في بحثه عن مفهوم الإيديولوجيا أربعة أنماط²:

¹ - ليلي عنان: الواقعية في الأدب الفرنسي، دار المعارف، سلسلة كتابك 175، القاهرة 1984، ص 05.

² - عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط8، المغرب 2012، ص ص 11، 12.

- إيديولوجيا سياسية: تكون عقيدة تعبر عن الوفاء والتضحية والتسامي، بينما تكون عند الخصوم أقنعة تتستر وراءها نوايا خفية لا واعية يحجبها أصحابها حتى عن أنفسهم لأنها حقيرة لنئمة.
- إيديولوجيا اجتماعية: يتفق فيها أعضاء المجتمع في الولاء لقيم مشتركة ويستعملون منطقاً واحداً. فتحدد الإيديولوجيا أفكار وأعمال الأفراد والجماعات بكيفية خفية لا واعية.
- إيديولوجيا الكائن: كائن الإنسان المتعامل مع محيطه الطبيعي.
- إيديولوجيا مشتركة: تشترك بين المجالات السابقة، حدود الانتماء إلى أيديولوجيا سياسية، وحدود الدور التاريخي الذي يمرّ به المجتمع ككل، وحدود الإنسان في محيطه الطبيعي.

وهنا يظهر هذا المزج من خلال تلاحم هذه الإيديولوجيات في نطاق أوسع، مع أن حميد الحميداني¹ ينتقد² عبد الله العروي في عدم فصل الإيديولوجيا كقناع عن الإيديولوجيا الكونية، لكنه في الوقت نفسه يقدم نظرة هامة في مفهوم الإيديولوجيا المشتركة، بحيث يعطي تصوراً للإيديولوجيا في ثوبها الكوني الإنساني الذي يخضع لمفهوم النقد الذاتي والتطور، فإذا بقيت الإيديولوجيا في ثوب القناع ظلت سياسية منبعثة من الذاتية والأنانية والحقارة، إلا إذا اشمطت على انسجام بين جميع الأدوار المذكورة سابقاً، «فالإيديولوجيات دائماً تحمل نزوعاً إلى الشمولية والكونية في

¹ - يُعتبر الدكتور حميد لحداني، من أبرز الأسماء المغربية التي أغنت الخزانة الأدبية المغربية والعربية بعدد كبير من المؤلفات النقدية الجادة، في الرواية والقصة القصيرة والأدب العربي عموماً. أنظر: محمد نجيم، حميد الحميداني، تمثالات ال"ق.ق.جدا"، جريدة الاتحاد، نشر بتاريخ: 25-04-2013، اطلع عليه بتاريخ: 10-03-2018 : <http://manager.alittihad.ae/details.php?id=40272&y=2013&article=full>

² - أنظر: حميد لحداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسولوجيا الرواية إلى سوسولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب 1990، ص ص 18، 19.

منظومتها هي نفسها، أما إثبات أنها كونية أو غير كونية، فهذا في الواقع يتجاوز الإيديولوجيا في ذاتها إلى المتأملين فيها، فعندما يلاحظ هؤلاء تخلي إيديولوجيا ما عن تعصبها لنفسها، وحملها لمضمون انتقادي لذاتها وليس فقط لانتقاد غيرها من الإيديولوجيات فإنهم يكونون بإزاء إيديولوجيا تتجاوز في الواقع الإطار السياسي لترقى إلى مستوى الرؤية إلى العالم»¹، ومن ثم تتضح العلاقة بين الإيديولوجيا والرؤية للعالم من خلال المفهوم المشترك للإيديولوجيا الذي يضعها داخل الرؤية الشمولية التي يتبّعها المتأمل في كشف أنساق الفئات وطبيعتها، مع أن لوسيان غولدمان يبعد أي تطابق بين الإيديولوجيا والرؤية للعالم، لكي لا يقع مفهومه هذا مع المفاهيم الضيقة للإيديولوجيا، وتتصف نظريته بالرؤية الكونية التي لا تتجه إلى فريق معين، محاولاً أن يوضح هذه الرؤية لا من خلال الكاتب فقط وإيديولوجيته بل من خلال مستويات الوعي والبنية الدلالية والتجاوز، هذا التجاوز الذي لا يقف بالضرورة في أهداف العمل الأدبي أو قصدية الكاتب، بل خارج الوعي الممكن نفسه، ورغم ذلك فقد انتقد البعض هذا الفصل الكبير، وحاول أن يقف على شذرات فقط تفصل بين الإيديولوجيا والرؤية للعالم، وفي هذا ما ذهب إليه حميد الحميداني حين جسد الفرق بينهما في الأهداف فقط ونمط الممارسة، وحقق ذلك في الجدول التالي²:

الأهداف	الممارسة الفكرية	
نفعية	غلبة الوهمي على الحقيقي	الإيديولوجيا
معرفية	وصفية	رؤية العالم

¹ - حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 18، 19.

² - المرجع نفسه، ص 23.

ومن خلال هذا التفريق الذي يحاول أن يقلل من التمييز الفعلي بين الإيديولوجيا والرؤية للعالم، فإنه واقع الأمر يحقق تفريقاً علمياً هاما بين هذين المصطلحين، وهما في إطارهما المعرفي من خلال الممارسة الفكرية، فيحققان المفهوم الإجرائي لكل منهما، وخصوصاً أن عمليات البحث النقدية القائمة على الموضوعية في أبلغ صورها تكشف من خلال ما قدمه حميد الحميداني هذا التمييز الذي ربما قصده لوسيان غولدمان نفسه.

وعلى غرار ذلك وبالدخول إلى عالم النقد الاجتماعي الروائي، فإنه في الأساس قد ارتبط في مسيرته بداية بالنقد الجدلي، هذا الاتجاه الذي ارتبط هو أيضاً بدوره «بالمادية التاريخية، وأخذ منها ركائزها الأساسية، وأهمها أن النتاج الأدبي، بما في ذلك الرواية، هو شكل من أشكال البنية الفكرية للمجتمع، ومادام المجتمع يشهد صراعاً بين طبقاته حول المصالح المادية، فهذا يعني أيضاً أن الصراع موجود على مستوى الفكر، ومن هنا تدخل الرواية، باعتبارها أدباً، أي شكلاً من أشكال الفكر»¹، وبالتالي يقف هذا الاتجاه على جعل الرواية إيديولوجياً، ولا تكون إيديولوجياً واحدة، لأن لكل فئة اجتماعية فكرها وبنيتها الاجتماعية، «وهكذا فإن النقد السوسولوجي للرواية - في بداياته الأولى - لم يكن يناقش قضية تميّز الرواية والأدب بشكل عام عن الإيديولوجيا، وأول من طرق هذا الموضوع، هو "جورج بليخانوف"²، وفي سياق آخر كان ربط اللغة بالإيديولوجيا، باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية من جهة، وبنية شكلية من جهة أخرى، مثلما كانت عليه "مدرسة باختين"³ التي «تأثرت تأثراً عميقاً بالماركسية في

¹ - حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 56.

² - المرجع نفسه، ص ص 57، 58.

³ - لم تكن مدرسة باختين مهمة باللغويات التجريدية التي أصبحت أساس البنيوية فيما بعد، بل كانت مهمة باللغة - أو الخطاب - من حيث هي ظاهرة اجتماعية. أنظر: رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ت: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1998، ص 38.

إيمانها بأن اللغة لا يمكن فصلها عن الإيديولوجيا»¹، على أن الدراسات فتحت أبواباً مشرعة في تلقي مفهوم الإيديولوجيا في مقابل الرواية، وكانت هناك مساهمات حاولت كشف العلاقات الكامنة بينهما، مثلما ذهب إلى ذلك بيار ماشيري² Pierre Macherey حين استرشد من خلال تحليلاته طبيعياً لولوج الإيديولوجيا إلى النص الأدبي، فنجد الإيديولوجيا داخل النص، تتحوّل من صورتها الخام إلى صور متعددة حسب المتلقين والقراء لدواخل هذا النص، حيث تعتبر الإيديولوجيا أساساً هاماً في عالم النص الإبداعي، وهنا يرى بيار ماشيري -حسب تفسير حميد لحميداني- أنه «عند قراءة النص من طرف أصناف متعددة من القراء، فإن كلّ جماعة تعزل النص -عن وعي أو عن غير وعي- ما تراه مناسباً لتصورها الخاص وتلغي الباقي، مما يجعلها تقدم تأويلاً خاطئاً للنص ذاته، لأن الكاتب لا يُضمّن بالضرورة إيديولوجيته خفية أي تتحرّك بسريّة بين الإيديولوجيات المعروضة»³، لكنه في الوقت نفسه يحيط منته الحكائي عن قصد أو عن غير قصد بتراكمات معرفية وتاريخية وإشارات لها دلالتها في عوالم التلقي الموضوعي، لأن العمل الإبداعي قد يرسم خارج الدوائر القصصية التي يستهدفها الكاتب، معاني حافة -حسب تعبير محمد أركون- يستخرجها الباحث في دلالات النص المتعددة من خلال تغيرات الوضعيات داخل النص، وهنا «يمكن وصف تطور المتن الحكائي بأنه أشبه بمرور من وضعية إلى أخرى، نظراً

¹ - رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، المرجع السابق، ص 37.

² - فيلسوف فرنسي. ولد عام 1938. أستاذ في جامعة ليل الثالثة (فرنسا). من مؤلفاته: Pour une théorie de la production littéraire (1966). Hegel et la société (1984). Avec Spinoza (1992). أنظر: بيار ماشيري، بما يفكر الأدب تطبيقات في الفلسفة الأدبية، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت 2009، (الغلاف).

³ - حميد لحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 27.

لاتصاف كل وضعية بصراع المصالح، أو بالصراع بين الشخصيات»¹. مع أننا إذا وضعنا النص الروائي والمجتمع والإيديولوجيا في سياق واحد، نجد أن هناك عقبات كثيرة لتحديد هذه التفاعلات المفاهيمية، وهذا ما دفع الباحث أحمد كامل ناصر² إلى القول بأن «أهم العوائق التي تعترض حركة النقد الأدبي نحو تحقيق الموضوعية المعرفية، تكمن في العوامل الشخصية والإيديولوجية التي تشكل مجموعة القيم والمعتقدات والثقافة الحضارية التي يدين بها الناقد نفسه، تلك الثقافة التي تحكمت في تكوينه، وشكلت نتاجه الأدبي وبلورت تصوره إزاء النقد الأدبي بشكل عام. وطبعته بطابع البيئة التي تتقف وتفاعل مع أحداثها. هذا الافتراض يشير إلى وجود تعارض بين الالتزام الأيديولوجي الذي تمليه البيئة الثقافية والظروف الاجتماعية على الناقد، وبين الالتزام العلمي الذي يقتضي الحياد وتقرير الحق ورفض الباطل، بغض النظر عن انتماءاته وقناعاته الفكرية»³.

¹ - تشومافسكي: نظرية الأغراض، ضمن كتاب "نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلانيين الروس"، ت: إبراهيم الخطيب، ط1، بيروت لبنان 1982، ص 185.

² - كاتب ومترجم فلسطيني. ولد في مدينة الطيرة الواقعة في المثلث الجنوبي سنة 1961، نشر عدة مقالات نقدية أدبية في مجلات أكاديمية محكمة مثل: مجلة الرسالة الصادرة عن المعهد الأكاديمي لإعداد المعلمين العرب في كلية بيت بيرل أهمها دراسة بحثية بعنوان "تصور أدونيس للغة الشعر العربي الحديث" (2007) ودراسة نقدية أخرى. أنظر: أحمد كامل ناصر، الحوار المتمدن، اطلع عليه بتاريخ: 20-03-2018:

<http://www.ahewar.org/m.asp?i=7492>

³ - أحمد كامل ناصر: أيديولوجية النقد الأدبي، الحوار المتمدن، ع 4436، الموقع: اطلع عليه بتاريخ 27-04-2014، الموقع: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=412386>.

2- قضايا النقد الروائي الاجتماعي ومقولاته عند لوكاتش

اهتم جورج لوكاتش¹ مثله مثل كبار الباحثين والمتعمقين بما أنتجه الفكر الماركسي، حيث «طوّر النظرة الواقعية إلى الأدب تطويراً ينطوي على قدر كبير من العمق، وكان يميل إلى الجانب الهيجلي من الفكر الماركسي»²، فوقف عند أبعاد التساؤلات الفكرية والفلسفية الجدلية، متعمقا في خصوصية الإنسان في مقابل عواصف المادية والانحطاط، واعتبر لوكاتش العمل الأدبي حاملا للعديد من المتناقضات، فشخص رؤيته داخل عوالم المتن الروائي، خاصة بعد كتابه "نظرية الرواية" سنة 1920، وكتابه "التاريخ والوعي الطبقي" سنة 1923، الذي أنتج مقولة الكلية، وهي المقولة التي انتزعها من العوالم الفلسفية لهيجل مضميا عليها خصوصية الفكر الماركسي³، خاصة أن «الأقسام الأساسية من كتابه "التاريخ والوعي الطبقي" هو نظرية دياليكتيكية حقيقية تقوم باجتثاث الخلاف السخيف بين الماديين والروحانيين»⁴، ومن هنا يمكن أن نتطرق إلى بعض مقولات لوكاتش الأساسية التي رسمت جوانبا عميقة من فلسفته التي أضحت فيما بعد جوهرها في المعالجة النقدية داخل نطاق البنيوية التكوينية.

¹ - إن لوكاتش خلال تلك السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى كان موزعا بين كانطية لاسك الجديدة وبين هيجلية ديلثاي الجديدة وبين لا عقلانية كيركغارد الدينية، وبين النزعة الجمالية للحلقة الملتقة حول ستيفان جورج وغوندولف. بينما عكس تفكيره السياسي تأثير جورج سوريل الذي كان حينذاك -على الصعيد الفلسفي- من المعجبين بهنري برغسون، أنظر: جورج لختهايم، المرجع السابق، ص 46.

² - رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، المرجع السابق، ص 55.

³ - إن المنهجية الجدلية تهدف عند ماركس إلى معرفة المجتمع ككلية. أنظر: جورج لوكاتش، التاريخ والوعي الطبقي، ت: حنا الشاعر، دار الأندلس، ط2، بيروت لبنان 1982، ص 34.

⁴ - جورج لختهايم: جورج لوكاتش، المرجع السابق، ص 82.

2-1 الكلية La totalité

يعتمد مفهوم الكلية على إدراك ضرورة الأخذ بالبعد الشمولي في تفسير الظاهرة الاجتماعية، هذا البعد الذي لا يتحقق في الاتجاه الفردي بحيث يكون مجرد جزء من قطاع شامل، فوجهة «نظر الفرد لا يمكن أن تقود إلى أية كلية، وعلى أكبر تقدير تقود إلى مظاهر من قطاع جزئي، وأغلب الأحيان إلى شيء مبعثر فقط»¹، وبالتالي فالكلية تعني «تحقق الاكتمال الشمولي في تفسير أي ظاهرة باعتبارها نسقاً متكامل العناصر، أخذاً بعين الاعتبار كل الأنظمة المؤثرة والمتأثرة بها»²، وهنا نقف عند محاولات لضبط هذا النسق المعرفي عند لوكاتش فتكون الكلية المقصودة التي «تحدد بالتصور الهيجلي قبل كل شيء هي "كلية المواضيع" التي ترصد علاقات البشر فيما بينهم، وترصد العلاقات والمؤسسات المختلفة التي تتوسط علاقات البشر ببعضهم وعلاقاتهم بالطبيعة»³، ومنه تحاول الكلية أن تضع الأجزاء على حالاتها في رؤية شمولية واسعة كي يتحقق لدى المشتغلين بذلك فهم المجال الكلي لحقب تاريخية معينة، تلك الأجزاء التي تتميز في نظر الفرد انطلاقاً من وعي زائف -ربما- بالشمولية، فلم يكن لوكاتش مركزاً على التبادل الجدلي بين البنية التحتية والبنية الفوقية رغم أهميتهما، بقدر ما كان مركزاً على علاقة الأجزاء بالكلية من خلال علاقة جدلية، بحيث حين تتجمع الأجزاء المختلفة في تصوراتها تعطي وحدة كلية، وعليه فإن تأسيس مفهوم الكلية من خلال الذات الكلية يتجاوز الطرح الفردي المجزأ، بل يشترط لوكاتش ذلك في قوله: «إن

¹ - جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، المرجع السابق، ص 34.

² - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 48، 49.

³ - فيصل درّاج: نظرية الرواية والرواية العربية، المرجع السابق، ص 28.

الكلية لا يمكن طرحها إلا إذا كانت الذات التي تطرحها هي ذات كلية، وإذا أرادت الذات أن تعي نفسها فهي ملزمة أن تطرح الموضوع ككلية»¹.

وعليه فقد أضحت فكرة الكلية أساسا هاما في النظرية النقدية عند لوكاتش، وهو متأثر بأصحاب «الاتجاه الكلي الشمولي Totalitarism الذين ويرون أن فهم أي ظاهرة ومنها الظواهر الأدبية - يتطلب دراسة كل ما له علاقة بها بوجه عام»².

2-2 الانحطاط La dégradation

تعتبر انطلاقة لوكاتش في كتابه "نظرية الرواية" مفتاحا هاما في معرفة البعد الفلسفي الذي يؤصل رؤية الانحطاط لديه، إنه يواجه مرحلة رسمت داخله حيزا من المأساوية، في إطار بحثه عن الإنسان المختلف، الإنسان الذي يمجّد الإنسانية في أبعد صورها، خارج إطار التأثيرات الأيديولوجية النفعية والضيقة، يتساءل لوكاتش عن العوائق التي تعرقل الأدب في خلق إنسان جديد، ويقول إنها «تكمن قبل كل شيء بدون شك في بقايا الوعي البرجوازي. فأدبنا لا ينمو متحررا من نفوذ الثقافة والفن البرجوازيين. والتأثير الضار، الذي يمارسه مختلف تيارات مرحلة الانحطاط هذه، موجود على نحو بادٍ للعيان في نظريتنا وممارستنا، على مختلف المستويات وبمختلف الأشكال»³.

إن الصورة التي رسمها فيكتور هوغو⁴ Victor Hugo (1802-1885) في روايته "البؤساء"¹ جعلت لوكاتش يصفها بلوحة غنائية تعبّر عن «إحساس عام بالحياة

¹ - جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، المرجع السابق، ص 34.

² - أحمد سالم ولد اباه: البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية 2005، ص 43.

³ - جورج لوكاتش: دراسات في الواقعية، ت: نايف بلور، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط3، بيروت 1985، ص 64.

⁴ - شاعر وكاتب وروائي ومسرحي فرنسي عظيم، وهو من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية، وعضو الأكاديمية الفرنسية منذ عام 1841، درس الأدب اللاتيني والحقوق، مارس السياسة وأصبح نائبا عن باريس في =

لدى الجماهير الواسعة في المجتمع الرأسمالي، إن تلك الصلات التي كانت تشد الناس بعضهم إلى بعض، والتي يمكن إدراكها مباشرة ومعايشتها، أخذت تختفي أكثر فأكثر، وهي صلات ولدتها درجات أكثر بدائية في تطور المجتمع، والإنسان يشعر باستمرار بأنه أشد عزلة وأنه يجابه مجتمعا يكشف عن لا إنسانيته أكثر فأكثر»²، هكذا يتساءل لوكاتش، ففي مقدمة كتابه "نظرية الرواية" يتألم في يأس عن التحوّلات التي لمست العقل والنفوس، متأسفاً عن "عصر الملحمة"، ذلك العصر الذي «يدع الإنسان والطبيعة موحدتين في انسجام لا نقصان فيه. فالإنسان، في ذاته، موحد، لا فواصل بين داخله وخارجه، ولا مسافة بين فعله وعقله، ولا جسر بين مغامرته والإقليم الذي يصل إليه، كما لو كانت العلاقات كلها جداول رائقة تصب في نهر من حميم»³.

هكذا يتساءل، ويتأسف، ويحتار، ويتظلم، وينعي، ما بين زمنه والزمن الماضي الذي أضحي صورة متخيّلة لا تلمس واقعه بشيء، فلوكاتش يضع الملحمة أمام الرواية في محاولة لنعي الزمن الزائل، فيكشف اللثام عن مضي تلك الآثار التي كانت، فانط كل ما أمامه، «وإذا تأملنا كلمة الانحطاط في معجم لوسيان غولدمان وخاصة في كتابه "من أجل علم اجتماع الرواية"، نجدها كلمة مفتاحية ليس فقط في هذا الكتاب

=البرلمان الفرنسي، عاش في المنفى تسعة عشر عاما (1852-1871)، قال عنه الكاتب الروسي الكبير إنه من أحب الكتاب وأقربهم إلى قلبه. أنظر: فيكتور هوغو، هان الإيسلندي، ت: زياد العودة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، د ط، دمشق 2009، ص الغلاف.

¹ - أراد فيكتور هوغو في روايته الكبيرة "البؤساء" أن يجلو للقارئ موضع جان فالجان الاجتماعي والنفسي، فوصف بقوة تعبير غنائية رائعة، سفينة في عرض البحر، سقط منها أحد الناس. السفينة تمضي في سيرها وتختفي تدريجيا في الأفق. أما ذلك الإنسان فقد ترك يصرع في عزلة قاتلة أمواج البحر العاتية الغاشمة إلى أن يغرق أخيرا وحيدا يائسا مخيب الأمل. إن هذه اللوحة الموحية تتم لدى فيكتور هوغو عن مصير الإنسان الذي يرتكب هفوة في المجتمع. والأمواج العاتية ترمز عنده للإنسانية مجتمع عصره. أنظر: جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، المرجع السابق، ص 39.

² - جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، المرجع السابق، ص 39.

³ - فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المرجع السابق، ص 11.

وإنما في فلسفة أستاذه لوكاتش الذي جعل من هذا المصطلح سر تفسير التاريخ وتحولاته في الأزمنة الحديثة التي يلعبها»¹.

2-3 البطل الإشكالي L'hero problématique

من خلال الخلفية التي اتسم بها الإطار الفلسفي لمفهوم الرواية عند لوكاتش، ومن خلال المقارنة التي تأثر بها بين زمنين منفصلين (زمن الصفاء الأول، وزمن الإثم الكامل)، يقف بنا لوكاتش هنا عند مفهومه للبطل الإشكالي الذي سيتمّ حتماً توغّله في تناقضات المجتمعات الحديثة التي يعيشها بعيدا عن زمن الملحمة، فهذا البطل «يعيش اغترابا مزدوجا، فهو من جهة يعيش متناقضات العالم الخارجي الذي أنتج رواية تصدر عن زمن كله حروب، ومادية قاتلة، وهو من جهة أخرى يعيش حيرة داخلية، يغذيها البحث عن حقيقة لم يرها ولم يعيشها»²، فتتجسد القطيعة بين عالمين يحاول البطل أن يللم ما أمكنه، وهو في ذلك ساعٍ إلى إعادة بلورة القيم الأصيلة والمبادئ السامية «دون أن يدري أن بحثه مغمّس بالانحطاط وملوّث به، وأن بحثه الضليل يأخذ بأدوات العالم الذي يواجهه، والتي لا تأتلف مع الإيجابي والإلهي والأرواح الطاهرة»³، ورغم ذلك تظل «الرواية عنده هي تاريخ بحث متدرج، بحث عن القيم الحقيقية في عالم متدرج أيضا، ولكن على مستوى آخر بطريقة مختلفة، ولكنها تلك -بغير أن يعبر عنها صراحة في الرواية- تنظم بطريقة ضمنية جُماع عالمها. ومن الطبيعي أن هذه القيم خاصة بكل رواية، وتختلف من رواية إلى أخرى»⁴.

إن البطل الإشكالي الذي كشف عنه لوكاتش في عالم الرواية، هو البطل الكامن داخل الملحمة، فأخرجه لوكاتش من عالمه المثالي إلى واقع سفلي يواجه فيه مصيره،

1 - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 56.

2 - فايد محمد، سحنين علي: أبحاث في الرواية ونظرية السرد، المرجع السابق، ص 13.

3 - فيصل درّاج: نظرية الرواية والرواية العربية، المرجع السابق، ص 38.

4 - السيد يسين: التحليل الاجتماعي للأدب، مكتبة مدبولي، د ط، القاهرة 1992، ص 41.

هو بطل يحاول أن يعود إلى جزيرته المتخيلة التي فارقها من خلال ظهور الجنس الروائي المتصل بعالم الواقع المتعدد والذي يحمل تناقضات عديدة، هو الشخصية التي يحاول أن يكشف بها لوكاتش خيبة الرواية في عالم الصراعات الذي فصل وقطع الرباط مع البطل الملحمي، ليتجه بالرواية إلى خلق الديالكتيك الذي يتفاعل ما بين البطل والعالم، ومن هنا يتكشف لنا البطل الإشكالي في بحثه أو محاولات فهمه لهذا الظلام الدامس الذي يحاصره.

2-4 الانعكاس La réflexion

في مضمون هذا المصطلح يعتبر لوكاتش الرواية انعكاسا غير حرفي للواقع، أي بعيدا عن النقل المباشر أو السطحية أو التوازي بين شيئين متماثلين، «فقد رفض النزعة الطبيعية Naturalisme، العملية التي كانت نزعة جديدة آنذاك في الرواية الأوروبية، وعاد إلى النظرية الواقعية القديمة»¹، لكن في رؤية أخرى تحقق وتتيح للواقع أن يكون منغمسا داخل النص الروائي ومشملا على مؤشرات تحتوي الكثير من الوقائع والأحداث المادية والمعنوية وطبائع متنوعة للعلاقات الإنسانية الاجتماعية، من خلال ما يستعمله الكاتب من ألفاظ ودلالات ومعاني وتراكيب، هي في حد ذاتها من منتجات المجتمع، ومن ثم فالانعكاس «معناه "تشكيل بنية ذهنية" تصاغ في كلمات»²، تكون تلك البنية متصلة بعمق الطبيعة المكانية والزمانية الإنسانية والاجتماعية في تعالقمهم جميعا، «فالعمل الأدبي لا يعكس الظواهر الفرد المنعزلة بل يعكس العملية المتكاملة للحياة»³.

¹ - رمان بيلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، المرجع السابق، ص 55.

² - المرجع نفسه، ص 55.

³ - المرجع نفسه، ص 55.

2-5 التشيؤ La réification

يتصل مفهوم التشيؤ بتجسيد فكرة المادية في البعد الإنساني، بحيث يتجسد في المجال الاجتماعي كسلع مادية، أي تتحوّل الظواهر الإنسانية في بعدها الفكري إلى أشياء، وقد استند لوكاتش في هذا المجال على ما قدّمه التحليل الماركسي لعلاقات السلعة كمنتج في مقابل أثر وجودها الإنساني، أي من «حيث هي نتاج للعمل الإنساني، ويعتقد لوكاتش أنه رغم أن السلعة مرتبطة بهذا العمل فإنها تتفصل عنه، بحيث يبدو العمل في آخر المطاف في صورة شيء جامد ومستقل عن العالم الإنساني»¹، وذلك بتحويل البعد الإنساني في مجال علاقاته إلى أشياء يمكن تجسيدها بعيدا عن المجرّد واللامتادول ماديا وخضوعها إلى منطق التبادل التجاري، وبهذا يكون البشر سلعا «يخضعون لقوى وأشياء خارجة عن إرادتهم، ويظهر العالم الاجتماعي (الإنساني) على هيئة عالم من الأشياء، شأن العالم الطبيعي الأصلي، بحيث يبدو كأنه مستقل عن الفعل الإنساني، شأنه في ذلك شأن استقلال قوانين الطبيعة عن ظواهرها»²، لتتعمق صورة التشيؤ في الداخل وتندمج وترتبط مع الذات، «كما أن النظام الرأسمالي يحدث ويعيد إحداث ذاته بدون انقطاع اقتصاديا على مستوى أرفع، كذلك، في مجرى التطور الرأسمالي، فإن بنية التشيؤ تنغرس أكثر فأكثر عمقا، في وعي الناس»³. ومن ثم تتراءى هذه الصورة العميقة في تفاعل بين النظام الاقتصادي الذي يستند على صيغ المنفعة بشكلها السلبي القاهر، فيكون واقع الأزمة⁴ الذي يحوي

1 - كمال بومنير: من غيورغ لوكاتش إلى أكسل هونيث نحو إعادة بناء مفهوم التشيؤ، مجلة جامعة الجزائر 2، المجلد الثاني، ع04، أكتوبر 2013، ص 79.

2 - المرجع نفسه، ص 79.

3 - جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، المرجع السابق، ص 88.

4 - هي تلك الأزمة التي تصيب البضائع الموجهة للسوق عندما تعرض للمنافسة، وهذا هو حال المجتمع المنتج للسوق وتكون الأزمة بهذا المفهوم تجرية مريرة ومأساة، عندما يجتازها كل إنسان واع تقوده بحتمياتها وقهرها إلى إدراك وضعه المستلب، وسر انحطاطه وكشف جوهر التشيؤ الذي يحاصر وجوده الاجتماعي ويحوّله إلى سوق=

مراكز التفكير في إطار تشييء العالم بكل علاقاته، موضوع التحولات والتفاعلات التي تعمق اندماج التشيؤ لينحصر الإنسان وشبكة العلاقات الاجتماعية المتنامية على الصعيد الذاتي والموضوعي داخل قوانين مستقلة تخضع لها، ولعل لوكاتش ركز على تجاوز التشيؤ كبعد يدمج الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عالم الأشياء، من خلال وعي البروليتاريا لأنه «وحدته يتمكن أن يبين كيف الخروج من أزمة الرأسمالية»¹، حيث تعتمد في ذلك على وعي طبقي حقيقي، ومن ثم تحويل المجتمع من مساره القائم ونفي الأنماط التي أوجدت للإنسانية التشيؤ.

=بضاعة لا غير. أنظر: محمد الأمين بحري، البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 62.

¹ - جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، المرجع السابق، ص 74.

3- التنظير الروائي والأنماط الشكلية للرواية

انطلاقاً من البعد التاريخي لتطور الرواية، وفي فضاء تاريخيتها الجمالية الكلاسيكية اعتبر هيجل الرواية تعبيراً عن التطور التاريخي للبرجوازية، وبالتالي هي في نظره "ملحمة بورجوازية"، أي «أن الرواية تتطوي على الخصائص الجمالية العامة للقصة الملحمية الكبيرة وللملحمة، من جهة. وتتأثر بكل التعديلات التي جاء بها العصر البرجوازي الذي هو من طبيعة أخرى مخالفة، من جهة ثانية»¹، حيث يرى لوكاتش أن هيجل رسم على معالم الرواية -المنشقة تاريخياً وفنياً عن الملحمة في بعدها البطولي والقيمي- بعداً آخر جعل تلازم الرواية وظهورها مع تدهور الإنسان ونزوله من الفضاء الفني الشعري العميق إلى مساحات النثر التي لا يتكافئ مع تلك الجمالية الفنية المكتفة، ورغم ذلك يشيد لوكاتش بأفضلية المبادرة في الكشف عن تفاصيل هامة في القراءة المعرفية والنقدية للبعد الروائي، ذلك أن «الجمالية الكلاسيكية لم تتمكن من الوصول إلى نظرية متكاملة عن الرواية إلا أنه مع ذلك، كان لها السبق في طرح المشكلة بصورة دقيقة في مجملها»².

وباعتبار الرواية عند لوكاتش كشفاً هاماً عن التدهور الإنساني في رحاب الضياع والتشتت، خلافاً لما وقفت عليه الملحمة من قيم تقذف بالأمال نحو بلوغ مراتب التوافق بين الذاتي والموضوعي، فإنه يجسد نظريته في واقعية الرواية كمأساة تعبيرية متبنياً حضوراً قوياً للبعد الفكري الهيجلي، وموظفاً للخصائص الفلسفية التي تناول بها هيجل موضوع الرواية، ومستشرفاً في مفهومه الروائي بلوغ الوحدة الكلية في محاولة لتجاوز عوالم الأبعاد الرأسمالية القاتمة، ومن جهة أخرى تناول لوكاتش موضوعاً يصب في بناء النظرية الروائية، مشكلاً به زاوية للرؤية النقدية ذات بعدٍ بالغ في الأهمية وهو

¹ - جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، المرجع السابق، ص 19.

² - المرجع نفسه، ص 24.

«التفاوت الموجود أحيانا بين الانتماء الاجتماعي، والانتماء الفكري للكاتب»¹، فهذه الخصوصية في التفاوت تحيل إلى الكشف عن سطح الانتماء الاجتماعي للكاتب في بعده المنسجم مع جماعته، ومن جانب آخر تبنيه لرؤية خاصة تعبر عن تصور الفكري لكل الفضاءات الاجتماعية والقيم التي يعيشها.

وعليه فقد قدّم لوكاتش في دراسته للرواية مراحل خمسة²، بدايتها كانت مع "الرواية في طور التكوين" حيث تزامن ظهورها مع قيام المجتمع الرأسمالي، في خضم الصراعات القائمة داخل عمق الإيديولوجية البرجوازية، فاستثمرت الرواية بالإضافة إلى واقع الضياع والتشتت الذي تنتمي لموضوعه الموروث الثقافي الإقطاعي، ومن ثم واجه كبار مؤسسي الرواية الحديثة آنذاك «الاسفاف الذي كان يؤدي إليه المجتمع البرجوازي الناشيء»³، فيما تمثلت المرحلة الثانية في "توظيف الواقع اليومي"، حيث اتجهت الرواية إلى التفاصيل اليومية، مبتعدة عن ذلك التصور الملحمي القيمي وأبعاده السامية، «واقصر عالم الرواية أكثر فأكثر على الواقع اليومي في الحياة البرجوازية»⁴، لتكون المرحلة الثالثة في "السيادة الحيوانية في الشعر"، حيث «ظهر التعارض ما بين المبدأ الشعري والنثري، على أنه شكل محكوم عليه بالمغالاة الخرافية (هوفمان، إدمان، إلخ) وكذلك التخلي التام عن ميدان الواقع الاجتماعي، ومحاولة خلق الواقع الشعري كواقع (سحري) محض»⁵، وفي المقابل انغمست الرواية في جانب آخر محاولة تشكيل الواقع كواقع بحرفيته من خلال تلك الصورة التي قدمها التوظيف للواقع

1 - حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 62.

2 - تطرق لوكاتش إلى هذه المراحل في كتابه (نظرية الرواية وتطورها)، حيث خصص لكل مرحلة شرحا مفصلا يحتوي على تفاصيل تحقق رؤيته في مفهوم الرواية.

3 - جورج لوكاتش: نظرية الرواية وتطورها، المرجع السابق، ص 44.

4 - المرجع نفسه ص 50.

5 - جورج لوكاتش: المرجع السابق، ص 60

اليومي"، في مجال يتوغل أكثر داخل التناقضات التي زعزعت الحياة البرجوازية، ومن هنا فقد استسلمت الحركة الرومانسية «دون مقاومة لذلك النثر الذي اعتبر كمصير محتوم ونهائي»¹، على أن المرحلة الرابعة اتسمت بـ "الواقعية الجديدة وتفكك الشكل الروائي" حيث كان اتجاه الرواية نحو الدخول في عالم اللاجدوى، مركزا على سمات الترفيه، ومن تصاعد الصراع البروليتاري، فأضحى «التبرير هو النزعة الطاغية على الإيديولوجيا البرجوازية بصورة دائمة وملحة، وكلما تزايدت تناقضات المجتمع الرأسمالي، كلما عمل هذا التبرير بوسائل منحطة على تمجيد الرأسمالية ونشر الأكاذيب الخسيسة لتشويه صورة البروليتاريا الثورية والعمال الثائرين»²، حيث انتقل أسلوب الرواية من الفنية السردية إلى خطاب التحليل وتحولات الوصف داخل شخصيات لم يعد فيها للفردية وجود، كما فعل "إميل زولا"، حيث رأى لوكاتش أن الشخصية صارت تنسحب إلى الوسطية مبتعدة عن النموذج الملحمي البطولي، فاستند في ممارسته الروائية على التجربة الواقعية ومفارقا عوالم الكشف الإبداعي الفني الخلاق.

وفي السياق نفسه تأتي المرحلة الخامسة التي تجسدت في "آفاق الواقعية الاشتراكية"، وهناك حيث استلمت البروليتاريا مكانة هامة في مقابل وسائل الإنتاج، وذلك بحصولها على زمام الحكم، من خلال كفاح كبير ضد الهزائم التي خلفتها عليهم البرجوازية التي تراجعت وانكفأت بعيدا عن صوت البروليتاريا المنتصرة التي اشتغلت على هدم أطر المجتمعات الطبقية، وعليه فقد «أنتجت هذه العناصر كلها نموذج رواية جديدة تماما في الواقعية الاشتراكية»³.

¹ - جورج لوكاتش: نظرية الرواية وتطورها، ص 61.

² - المرجع نفسه، ص ص 68،69.

³ - المرجع نفسه، ص 85.

وعلى غرار هذه التمثلات التاريخية للرواية فقد قسم جورج لوكاتش الرواية تاريخياً واجتماعياً من خلال العلاقة الجدلية بين البطل والعالم في ثلاثة نماذج، حيث يضيف بول آرون وألان فيلا¹ في كتابهما "سوسولوجيا الأدب" نوعاً آخر ظهر في كتاب جورج لوكاتش (الرواية التاريخية)² تراءى في روايات ليو تولستوي³ Léon Tolstoi، كما حلل من خلاله لوكاتش «مؤلفات ولتر سكوت⁴، وشارل دو كوستر⁵ وستندال وغوغول⁶، محاولاً دوماً أن يتفحص علاقاتها العميقة بعصرها والإمكانات التي كان

- ¹ - بول آرون أستاذ في الجامعة الحرة ببروكسل، وألان فيلا أستاذ في جامعتي باريس 3 وأوكسفورد. هما مؤلفا كتاب تدريس الأدب. كما ساهما بتحرير معجم الأدبية. أنظر: بول آرون وألان فيلا، المرجع السابق، (الغلاف).
- ² - يرى جورج لوكاتش أن الرواية التاريخية نشأت في مطلع القرن التاسع عشر، وذلك زمن انهيار نابليون تقريباً (إذ ظهرت رواية سكوت "ويفرلي" عام 1814. أنظر: جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، ت: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، بغداد 1986، ص 11.
- ³ - ليو تولستوي، روائي وكاتب، وفيلسوف ديني روسي (1828-1910). درس أساليب التربية، أنشأ مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين، وخلال هذه الفترة التي امتدت من سنة 1863 إلى سنة 1877 تفرغ للأدب وكتب خير إنتاجه القصصي. أنظر: ليو تولستوي، دم وخمر، سلسلة مطبوعات كتابي، الكتاب 42، القاهرة د ت، ص ص 07، 08.
- ⁴ - سير والتر سكوت Sir Walter Scott كاتب روائي ومسرحي وشاعر اسكتلندي (1771-1832)، بدأ حياته الأدبية بكتابة الأغاني الشعبية، ثم هجر الأغاني إلى الرواية، وكان في قصصه الروائي، يعتمد إلى إحياء التاريخ الأوسط. أنظر: سير والتر سكوت، ت: محمود محمود محمد، سلسلة عيون الأدب الغربي ع02، القاهرة 1938، ص 01.
- ⁵ - شارل ديك وستر Charles de Coster (1827-1879) روائي بلجيكي، ولد في ميونيخ وتوفي في إكسل، كان لأدبه أثر مهم في نشوء الوعي القومي البلجيكي، وهياً الأرضية لولادة أدب بلجيكي مبتكر. أنظر: عزيمة فوال بابتي، موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2009، ص ص 228، 229.
- ⁶ - نيكولاي غوغول (1809-1852)، كاتب روسي يُعد من آباء الأدب الروسي، من أعماله الأكثر شهرة رواية النفوس الميتة وقصته القصيرة المعطف، أنظر: نيقولاي غوغول، الموسوعة الحرة ويكيبيديا، اطلع عليه بتاريخ: 2018-03-21: <https://ar.wikipedia.org/wiki/غوغول>

يوفرها الشكل الروائي في زمانهم»¹، وبذلك فقد نمذج لوكاتش الرواية في ثلاثة أشكال؛ رواية المثالية المجردة، والرواية السيكولوجية، وكذلك الرواية التعليمية:

أ- **رواية المثالية المجردة:** يتجسد فيها وقوع البطل في مواجهة فشله، أين تغيب عنه آمال بلوغ القيم الأصيلة، وتتناثر حوله الأوهام في واقع مؤلم يعبر عن قساوته حين يتصادم البطل معه فيواجهه عندما يفصح عن خيبة محاولة توفيقه بين الواقع والمثال. ونبصر ذلك في رواية "دون كيشوت" لسرفانتس، و"الأحمر والأسود" لستندال، فرواية "دون كيشوت" «قدّمت بطلا يبحث عبثاً عن قيمٍ ليس في إمكان العالم أن يوفرها له: إن وعيه ضيقٌ جداً قياساً على تعقد العالم»².

ب- **الرواية السيكولوجية:** يترأى فيها البطل خارج نطاق واقعه متجهاً إلى أغوار رومانسيته الحاملة، تتخبط داخله نفسيته وهي تواجه ما في الخارج، بل تتجاوز ما هو في الخارج وذلك في صراع يكون لذاته الأثر الأكبر، كما في رواية "التربية العاطفية" لفلوبير، وهي «بطل تفيض روحه عن حدود العالم: هو بطل يلاحق أيضاً قيماً مستحيلة التحقق، لكنه يعرف تفاهة مسعاه»³. من خلال ذلك التناقض الذي يحمله هذا البطل تتجسد خصوصية هذا البعد السيكولوجي.

ج- **الرواية التعليمية:** فيها يحاول البطل أن يربط بين الذات والواقع، «وتنتهي بوضع حدود للذات وهو ما يعتبر تراجعاً عن ذلك البحث اليائس والذي لا يتقبل فيه مع ذلك لا عالم الاتفاق هذا، ولا يهمل معايير القيم المتضمنة فيه، ويفعل البطل ذلك بنضج ووعي تامين، يسميهما لوكاتش "النضج الرجولي"»⁴، لكن يبقى حضوره منكسراً في مواجهة عالم منحط، ويتمثل هذا الاتجاه في رواية "فيلهم مايستر" للكاتب يوهان فون

¹ - بول آرون وألان فيلا: سوسولوجيا الأدب، المرجع السابق، ص 36.

² - المرجع نفسه، ص 35.

³ - بول آرون وألان فيلا: المرجع السابق، ص 35.

⁴ - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 69.

غوته¹ «وبطلها يعرف الطبيعة الإصلاحية للعالم الذي نشأ فيه ويضبط مشروعه تدريجياً على إيقاعه»².

¹ - يوهان فوفغانغ فون غوته، أديب ألماني (1749-1832)، ولد في فرانكفورت أكبر المدن الألمانية بعد برلين وهامبورج، في سنة 1756 يكتب أولى قصائده، بين 1765 و1768 درس في جامعة "ليبزج"، وبين 1770 و1771 واصل دراسة القانون في "شتراسبورج" وحصل على "الليسانس"، وواصل كتابة أعماله المسرحية. أنظر: يوهان فولفجانج جوته، تاسو، ت: عبد الغفار مكوي، المركز القومي للترجمة، ع1358، د ط، القاهرة 2009، ص 6.

² - بول آرون وألان فيلا: سوسولوجيا الأدب، المرجع السابق، ص 35.

II- النقد السوسيوثقافي عند باختين وبيير زيبا

1- الأشكال التكوينية للغة الخطاب عند باختين

تعدّ الخطوات الأولى في مسار بناء سوسيوثقافيا النص الروائي من خلال مساهمات ميخائيل باختين في دراسته للرواية، من أولى الخطوات في استكشاف عوالم هذا النسق باعتباره ركز على كفاءات الصياغة اللغوية ذاتها، فهو من أوائل من ولجوا إلى النسق النصي في قراءة نقدية تسندُ البنية الاجتماعية داخل النصوص إلى أبعاد المعطى السوسيوثقافي، أي تهتم بالدراسة الشكلية للبنية الأدبية، فهو لم «يركز اهتمامه على الطريقة التي تعكس بها النصوص الأدبية المجتمع أو المصالح الطبقية، بل على الطريقة التي تصاغ بها اللغة»¹، ومن ثم أراد أن يبحث عن "الأصوات المخالفة" ويحررها من أي سلطة، حيث يعيد لها حضورها في النسق الذي تكون عليه وهي تحتفظ باستقلالها وحيويتها، وفي ذلك شكّل من خلال دراساته النظرية التطبيقية نمطين هامين للروايات، الأول في دراسته لروايات تولستوي، أين يخضع المؤلف جميع الأصوات إلى منطق، أي وجهة نظر واحدة لا تتعدى الحقيقة التي يضخها الكاتب في الداخل، وأطلق باختين على هذا النوع من الروايات مصطلح «وحيد الصوت أو المونولوجي للرواية»²، بينما النوع الثاني فهو «متعدد الأصوات أو الديالوجي»، الذي نتج أيضا من خلال اشتغال دوستويفسكي³ على تطويره، وهنا «لا يمتزج وعي هذه الشخصيات المختلفة بوعي المؤلف، أو تدعن الشخصيات لوجهة نظره، بل تظل

1 - زمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، المرجع السابق، ص 39.

2 - المرجع نفسه، ص 39.

3 - يؤكد باختين أن «دوستويفسكي هو خالق الرواية المتعددة الأصوات Polyphone لقد أوجد صنفا روائيا جديدا بصورة جوهرية». أنظر: ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، ت: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب 1986، ص 11.

محتفظة بتكاملها واستقلالها»¹، وهذا ما عالجه من خلال مؤلفاته النقدية المتعددة منها: "مشكلات شعرية دوستوفسكي"² 1929، و"الماركسية وفلسفة اللغة" 1977، ودراسته عن "رابليه"³ 1965، منتبها إلى ضرورة دراسة اللغة في نطاقها الاجتماعي مكثفا علاقة بين اللغة والواقع، وبعيدا عن فصلها عن هذا السياق تعارضا مع ما ذهب إليه الشكلاونيون، وذلك على أساس وجود دلائل يمكن وزنها في نطاق الفكر الإيديولوجي، أو الإيديولوجيا في مضمونها الدلالي باعتبارها نسقياً مجموعة من الدلائل، «ولذلك فدراسة الدلائل اللغوية تعني في الوقت نفسه التعامل مع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومع الإيديولوجيات⁴ الموجودة في الواقع»⁵، ومن هنا يمزج في إطار تجديدي مُختلف بين اتجاه شكلي أسلوبي ولساني، وبين استثماره لتجليات الفكر الماركسي وخصوصيات النقد الاجتماعي والإيديولوجي في فضاء السوسيونصية، وهو المنتج القادر على بلورة كل هذه العلاقات فيما بينها، خاصة وأن الرواية لديه هي «تنوعٌ كلامي (وأحيانا لغوي) اجتماعي منظمٌ فنياً وتباين أصوات فردية. والتفكك الداخلي للغة القومية الواحدة إلى لهجات اجتماعية وطرق تعبير خاصة بمجموعات

1 - رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، المرجع السابق، ص 39.

2 - أشار المترجم لكتاب رمان سلدن أن ترجمة هذا الكتاب بـ "قضايا الفن الإبداعي عند دوستوفسكي" هي ترجمة غير دقيقة لكلمة Poetics التي تقابل الفن الإبداعي في الترجمة العربية. أنظر: المرجع نفسه، ص 39.

3 - فرانسوا رابليه François Rabelais (1483-1553) هو كاتب فرنسي في عصر النهضة، وطبيب، وراهب، وعالم باليونانية، وأحد إنساني النهضة. يعتبر أحد أعظم الكتاب على مستوى العالم، وكذلك أحد مؤسسي أسلوب الكتابة الأوروبي الحديث. تعد روايتا (غارغانتوا وبانتاغرويل) أنجح أعماله على الإطلاق. أنظر: بشار عليوي، فرانسوا رابليه الاحتفاء بالموروث الشعبي، جريدة المدى، ع3568، السنة الثالثة عشر، دمشق 02-08-2016، ص 13.

4 - يرفض باختين وجود علاقة سببية بين البنية التحتية والبنية الفوقية «ويرى بهذا الصدد، أن العلاقة بين البنية التحتية والبنية الفوقية ليست علاقة سببية بالمعنى الذي يحدده التيار الوضعي للمدرسة الطبيعية، فالبنية الفوقية ليست مجرد نتيجة، ولكنها امتداد للبنية التحتية، وتجلى آخر لها على المستوى الإيديولوجي». أنظر: حميد لحميداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 75.

5 - المرجع نفسه، ص 75.

معينة، ولغات مهنية jargons، ولغات أجناس أدبية، ولغات أجيال وأعمار متفاوتة، ولغات اتجاهات، ولغات أفراد ذوي نفوذ وكلمة مسموعة، ولغات حلقات وتعليقات عابرة، لغات أيام بل ساعات اجتماعية سياسية (فلكل يوم شعاره ومفرداته ونبراته)، هذا التفكك الداخلي لكل لغة في كل لحظة من لحظات وجودها الاجتماعي هو المقدمة الضرورية للجنس الروائي¹، وهنا تتفاعل الكثير من العوامل والدلائل والأبعاد الاجتماعية المحضة والسياسية واللغوية والدينية والفلسفية وحتى القيم الأخلاقية والإنسانية الصرفة، في بناء تصور يمزج كل ذلك في نسق التفاعل اللغوي الذي يجسد القراءة النقدية الفاعلة لكل أنماط التفكير داخل الحيز الاجتماعي الكلي، هذا الحيز الذي يتفرع منه التفكك الذي يتوغل في عمق كل إطار لا يفارق مختلف الإطارات الأخرى التي باجتماعها تعطي مفهوماً لحيز الجماعة أو المجتمع ككل، وهو موضوع الأداة السوسيوثقافية عند باختين في دراسته للرواية، فهو يقيم دعائم النقد الروائي على مستويين هامين، الأول يتمثل في التنوع الكلامي (التفكك الداخلي للغة)، والثاني يكمن في (تعدد الأصوات وتباينها) مما يعطي المسار الفعلي للأسلوبية الروائية وخصائصها الكامنة في تفاعل هذه الموضوعات.

ويندرج التنوع الكلامي عند باختين من خلال المضامين اللغوية في سياقاتها الاجتماعية، فكل طبقة اجتماعية معينة (فئة اجتماعية) نمط كلامي، تشتغل عليه الكتابة الروائية في تصوير مشاهد وحوارات معينة، ويتجسد لديه التنوع الكلامي في أبلغ صورته داخل فضاء الرواية الفكاهية، أين تتفكك اللغة بين تلك الأنماط لتعطي تناغماً بين بعدها اللساني اللغوي وطبيعتها الاجتماعية، ويشير باختين في معرض حديثه عن رابليه أن سخريته «وتهكمه من الكلمة الإنسانية الكاذبة، بالمناسبة، في

¹ - مختارات من أعمال ميخائيل باختين: الأسلوبية المعاصرة والرواية، ت: يوسف الحلاق، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة 2008، ص19.

هدمه التراكيب النحوية عن طريق المحاكاة الساخرة وإيصال بعض لحظاتها المنطقية والنبوية التعبيرية حتى حدود اللامعقول»¹.

يتجه الخطاب الروائي في تشكيله التكويني نحو التنوع ويتأسس عليه، أي التنوع الكلامي، والتعدد اللغوي والصوتي، في صياغات منتجة لخصوصية الخطاب، فتنج علاقات متعددة تكوينية بين مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والفنية، منتهجا مقولات لها أبعادها النقدية، انطلاقاً من التنوع الكلامي ومروراً بكل المضامين الأخرى كتعدد الأصوات، والدلائل اللغوية، البعد الكرنفالي، والتداولية الحوارية للخطاب.

¹ - مختارات من أعمال ميخائيل باختين: الأسلوبية المعاصرة والرواية، المرجع السابق، ص ص 94، 95.

2- الأنماط الإجرائية للنقدية الحوارية

اعتبر باختين أن الرواية في بعدها التاريخي المتنامي لم تتطور إلا تحت ظلال تعددية الأصوات الإيديولوجية، وهنا ترتفع نسبة الأهمية لهذا البعد النظري في التحليل السوسيونصي لديه، وبالتالي يتجاوز التحليل التقليدي في الدراسة النقدية الذي كان يعتمد على الأبعاد البلاغية في اللغة التي نشأت وفق الدراسات الشعرية، ولعل الدخول إلى عوالم النص من خلال ثنائية نصية لغوية ودلالية اجتماعية وإيديولوجية يحقق التنوع الذي بحث عنه باختين في دراسته، فهو قد ابتعد عن الجوانب الفردية التي تكون أساسية في الشعر وتدل على موقف صاحبها، حيث كانت الرواية حسبما ذهب باختين «موضوعاً لتحليلات إيديولوجية تجريدية، ومجالاً لأحكام يصدرها الإعلاميون»¹ قابضة في السطحية والمعنى الضيق، ومن ثم يتجاوز باختين الأساس الفردي إلى تعدد صوتي ولغوي يفرضه عالم الرواية، وينسجم مع الانفتاح الذي لا يبقى الرواية في معبد كاتبها، بل يبنّي أسلوب الرواية على دعائم تتماثل فيما بينها من خلال العلاقات المتداخلة في عمق الرواية، ومن خلال الحوارية المنتجة للصراع الإيديولوجي الذي تعبّر فيه كل أديولوجيا عن موقفها دون أن تتجاوز إحداها الأخرى، «حيث تتصارع الأصوات الإيديولوجية ولا تكون هناك غلبة لإيديولوجيا ضد أخرى، ويكون موقف الكاتب تام الحياد، ولدراسة هذه الحوارية لا بد من البحث عن تعددية الأصوات في النص ذاته سواء على المستوى التركيبي أو على المستوى الدلالي»². ومن هنا تتمظهر تجليات الحوارية في ثلاثة أشكال³:

¹ - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص 37.

² - حميد لحداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 81.

³ - المرجع نفسه، ص 81.

- التهجين L'hybridation

- العلاقة المتداخلة ذات الطابع الحوارية بين اللغات

L'interrelation dialogique des langues.

- الحوارات الخالصة Les dialogues purs

وعليه يتمثل الجانب الإجرائي ومفرداته للنقدية الحوارية في عمق الأبعاد التي تضخها الأسلوبية في النص من جهة، وانفتاح النص صوتيا من جهة أخرى، وذلك من خلال:

1-2 تعدد الأصوات La polyphonie : يعدّ هذا المصطلح من أهم المفردات النقدية التي توصل إليها باختين من خلال دراسته لأعمال دوستوفسكي، فقد تجاوز النقد المباشر الذي كان يعطي كل السلطات إلى الكاتب، إلى نقد يفجر مكامن خفية داخل النص، وعلى هذا يشير إلى أن «كثرة الأصوات وأشكال الوعي المستقلة وغير الممتزجة ببعضها، وتعددية الأصوات polyphone الأصلية للشخصيات الكاملة القيمة - كل ذلك يعتبر بحق الخاصية الأساسية لروايات دوستوفسكي»¹، وقد عالج ذلك في ضوء مفهومه لتعدد اللغات والأصوات الفردية، حيث يعتبر هذا الجنس من الأجناس الأدبية التي لها خصوصية استقطاب التنوع الاجتماعي بكل ما يملك من خلفيات لسانية وثقافية وإثنوغرافية وإيديولوجية تتمظهر في التنوع الصوتي المتعدد وتتسكّل لتصنع النموذج الشامل لدراسة رؤية كامنة في الحوارات الخالصة، وما تستعمله في فضاء تنوع الصيغ والأساليب اللغوية والتعبيرية، واستغلال المساحات الكرنفالية، فتتعدد الأصوات وبذلك تتعدد الشخصيات المتحاورة مستندة إلى رؤاها المختلفة فكريا وإيديولوجيا، من خلال تكثيف الحوار الذي يُبعد السرد المباشر والمبطن في لغة الكاتب، فتستقل كل الشخصيات وتأخذ مكانا هاما في مقابل الشخصية

¹ -ميخائيل باختين: شعرية دوستوفسكي، المرجع السابق، ص 10.

الرئيسية التي لا تأخذ كل المساحة، بل تصبح جزءا من أجزاء هذا التكوين المتعدد الذي يقدم مختلف الآراء والتصورات والتشكيلات الإيديولوجية، ومن هنا فإن «الرواية المتعددة الأصوات ذات طابع حوارى على نطاق واسع، وبين جميع عناصر البنية الروائية توجد دائما علاقات حوارية»¹، فينتج الحوار بالتوازي مع وجود الوعي بحيث تكون جميع العلاقات الداخلية للرواية تمتلك طابعا حواريا.

2-2 الأسلبة La stylisation : يعتبر باختين الرواية ككل «ظاهرة متعددة الأسلوب واللسان والصوت، ويعثر المحلل فيها على بعض الوحدات الأسلوبية اللامتجانسة التي توجد، أحيانا، على مستويات لسانية مختلفة وخاضعة لقواعد لسانية»²، هذه الوحدات الأسلوبية اللامتجانسة تتسجم فيما بينها وتتداخل لتحقيق نسق أدبي كلي، وبالتالي تحقق تلك الأجزاء الجسد الكلي للرواية، أي أن الرواية عبارة عن وحدات مجتمعة، وتكون الأسلبة في مستوى التهجين القصدي، أي أنها تعتبر «إحدى طرائق إبداع صورة اللغة في الرواية، وتتميز الأسلبة عن التهجين بأنها لا تحقق توحيدا مباشرا للغتين داخل ملفوظ واحد، بل الأسلبة لغة واحدة مُحَيِّنة وملفوظة، لكنها مقدمة على ضوء اللغة الأخرى. وتلك اللغة الأخرى تظل خارج الملفوظ ولا تتحين أبدأ، وفي الأسلبة نجد وعيين لغويين مفردين: وعي مَنْ يشخص (وعي المؤسلب)، ووعي مَنْ هو موضوع للتشخيص والأسلبة»³.

ومن هنا يسوق باختين النماذج الأساسية للوحدات الأسلوبية، مثل «السرد المباشر الأدبي، أسلبة مختلف أشكال السرد الشفوي التقليدي أو المحكي المباشر، أسلبة أشكال

¹ - ميخائيل باختين: شعرية دوستوفسكي، المرجع السابق، ص 59.

² - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص 38.

³ - المرجع نفسه، ص 30.

السرد المكتوب: الرسائل، المذكرات الخاصة، الخ... أشكال أدبية متنوعة من خطاب الكاتب، خطابات الشخصيات الروائية المفردة أسلوبياً...»¹.

2-3 التهجين L'hybridation: يتجسد التهجين في كونه «مزج لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، وهو أيضا إلتقاء وعيين لغويين مفصولين بحقبة زمنية، و بفارق اجتماعي، أو بهما معاً، داخل ساحة ذلك الملفوظ ولا بد أن يكون قصدياً»²، وهو ما يجعل حضور ملفوظات معينة تمتلك فضاءها الدلالي داخل ملفوظ واحد من أجل إعمار قصد معين وتكثيفه، فالتهجين يكون مندرجا في إطار استحضار وإع لتلك الدلالات التي تنتجها لغتين في ملفوظ يحقق درجة التمازج المتوخاة.

2-4 تداخل العلاقات الحوارية للغات L'interrelation dialogique des languages.

إن ذلك التداخل الذي جسد فيه باختين خطابه الروائي تجلى أساسا في ما بين المتكلم وملفوظه، فكلامنا يضم الكثير من «كلمات الآخرين منقولة بدرجة من الدقة والتحيز جد متباينة، وكلما كانت حياة الجماعة التي تتكلم ثرية، متنوعة ومرتفعة، كلما اتخذ كلام الآخر وملفوظه، بوصفه موضوع نقل مهتم وموضوع شرح ومناقشة وتثمين ودحض ومساندة وتطوير، حيزاً كبيراً داخل موضوعات الخطاب كلها»³، فنتمكن الرواية من خلال سماتها النظرية أن تجلب لها العديد من العلاقات الحوارية، والأجناس التعبيرية، أين تبقى الأجناس محافظة على طبيعتها وأصالتها، وعليه فإن «التعدد اللساني المدرج في الرواية (مهما تكن أشكال إدراجه) هو خطاب الآخرين داخل لغة الآخرين، وهو يفيد في تكسير التعبير عن نوايا الكاتب، وهذا الخطاب يقدم التفرّد في

¹ - أنظر: ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص 38.

² - المرجع نفسه، ص 28.

³ - المرجع نفسه، ص 105.

أن يكون ثنائي الصوت»¹، وبالتالي تتجسد تلك الثنائية في الطابع الحوارية. لأن الرواية من خلال أصواتها المتعددة لا تشتمل على إيديولوجيا واحدة تمثل السياق العام للنص الروائي، ومن ثم تمثل موضوعها الخاص؛ بل نجد التنوع الداخلي المتعدد أيضا لسانيا وثقافيا، بحيث يبقى السارد بعيدا عن أي تأثير يطغى على ذلك التعدد، وعليه استندت مدرسة باختين في فهمها للغات على أنها غير تجريدية بل لها علاقة بالمجتمع، لذلك «كان الاستبصار الأساسي الذي توصل إليه فولوشينوف هو أن "الكلمات" علامات اجتماعية فعالة دينامية، قادرة على تقبل معان ودلالات مختلفة، لدى الطبقات الاجتماعية المختلفة، في المواقف الاجتماعية والتاريخية المختلفة»².

2-5 الحوارات الخالصة Les dialogues purs :

إن الطابع الحوارية الذي يجسده باختين في رؤيته النقدية للرواية، يظهر من خلال ذلك الصراع الإيديولوجي للأصوات التي تتفاعل في الداخل، وترسم لحضورها طرقا متنوعة، تنتزع من خلالها اتجاهاتها الجدلية الممتلئة بالتوافق والتناقض في الآن ذاته، ولذلك وضع باختين الكاتب في حياد تام؛ «أي إنه يقول بحياد الكاتب المطلق، هذا الحياد الذي لا يمكن معه أبداً أن تكون الرواية - في جملتها - دلالة إيديولوجية واحدة هي المعبرة عن قصدية الكاتب»³، ويركز هذه التفاعلات في ما أسماه بالحوارات، والحوارات الخالصة التي «لا تختزل من حوارات الشخصيات (نشير بالعودة إلى الحوار الأكثر عمقا للغات، وبالتالي، إلى الرؤية للعالم) وبحسب ميخائيل باختين فإن الحوارات الخالصة تشتغل في معاني أكثر اتساعاً، فالحوارية تهتم أيضا بالمونولوج

¹ - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، المرجع السابق، ص 91.

² - رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، المرجع السابق، ص 38.

³ - حميد لحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 82.

داخل المقاسات التي تمتلك أبعاد التناص»¹، فهو يفتح النص الحوارى العميق "الحوارات الخالصة" على أبعاد أخرى تستقطب رؤى متعددة يوظفها الحوار متجاوزاً رؤية الكاتب نفسها إلى بناء إبداعى نصى حوارى متسع، ذلك الاتساع ما يكون الرؤية للعالم، ومن ثم ينتج عند باختين من خلال الحوارات الخالصة التي تمتلك أبعاداً تتجاوز السطحي إلى العميق حيث يستتبط ويستقرأ في ذلك العمق رؤية للعالم لا يشكلها الكاتب، بل تتشكل من خلال عدة عمليات مركبة.

2-6 الكرنفال Le carnaval : تقوم هذه المفردة على تكسير الطبقيّة من خلال تفكيك الحدود بين الثقافة الأرستقراطية والثقافة الشعبية، حين تتداخل هذه الشخصيات المتنوعة والمتعددة بمختلف طبقاتها في سياق واحد هو هذه الاحتفالات (الكرنفال)، فيتحول و«ينقلب فيها الترتاب الهرمي رأساً على عقب (فيغدو الحمقى عقلاء والملوك شحاذين)، وتختلط الأضداد (الحقيقة والوهم، والنعيم والجحيم)، وينتهك المقدس وتعلن "نسبية منتشية" تبسط نفسها على كل الأشياء»²، وتتفكك كل المعايير في إطار جماعي لا يشكل طبقيّة داخله، بل يمزج كل الأضداد داخل هذه الظاهرة المتحررة، وهنا «يستخدم باختين مصطلح "الكرنفالية" Catnivalisation لوصف أثر ظاهرة الكرنفال في تشكيل الأنواع الأدبية»³، ويحدد بيير زيمما⁴ Pierre Valéry Zima

¹ Heliane Kohler : Le dialogime dans la fiction narrative de Caio Fernando Abreu, in - «Une domestique dissipée», textes réunis et publiés par Christoph Singler. Paris 2001. P 154.

² - رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، المرجع السابق، ص 40.

³ - المرجع نفسه، ص 40.

⁴ - ولد في براغ سنة 1946، ودرس علم الاجتماع والأدب في جامعة أدنبرج بباريس، وعمل بجامعة بيلفيلد وكلاجنفورت بالنمسا، ومعهد الأدب العام بجامعة جروننغ بهولندا، وله دراسات متعددة مذكورة بالبيبلوغرافيا الشارحة، أنظر: بيير زيمما: النقد الاجتماعي، ت: عايدة لطفى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 1991، ص 10.

مفهوم الكرنفالية عند باختين مبينا أن الكرنفال «هو أكثر من مجرد "حدث" Happening "احتجاجي" Contestataire بالمعنى الحديث للمصطلح، إنه ثقافة فرعية Subculture نقدية تشكك طقوسها وأنشطتها في الأخلاق السائدة والمعايير المتبعة، التي تقدم في سياق محكوم بقانون خارجي، كاريكاتوري وهزلي»¹.

¹ - بيير زيما: النقد الاجتماعي، المرجع السابق، ص 157.

3- بيير زيماء والنقد السوسيوثقافي:

استطاع الناقد التشكسولوفسكي بيير زيماء أن يتوغل في عوالم البحث السوسيوثقافي من خلال أعماله التي جدد فيها العلاقة بين النص والمجتمع، معتبرا أن «الفضل في إقامة رابط ألسني بين الأدبي والاجتماعي يعود إلى الشكلايين الروس، ولا سيما تينيانوف (Tynianov)، والواقع أن تينيانوف وزملائه من الشكلايين الروس كانوا قد بذلوا جهودا جبارة لإيضاح الصلات بين الأدب والمجتمع»¹، وفي هذا السياق يرى بيير زيماء أن الشكلايين الروس لم ينظروا إلى «المجتمع أبدا على أنه مجموع من اللغات الاجتماعية متعددة الصوت والمتداخلة فيما بينها، أو المتنافسة تنافسا شديدا يؤدي بها إلى التناحر والتصارع، وذلك رغم إنجازهم الكثير من الدراسات عن الأدب»² إلا بعد زمن، حيث توجهت الجهود إلى تفعيل هذا الدور الشكلي وبعث أبعاد نظرية من خلال السيمياء الاجتماعية، «وعليه فقد بات يُنظر إلى الفلسفات، والإيديولوجيات السياسية والنظريات العلمية على أنها لغات، شأن النصوص الأدبية، وقد أتاحت لهم وجهة النظر "النصية" هذه أن يتبصروا في المجتمع على ضوء مظهره الكلامي»³، فتتبين من خلال ذلك الروابط التي تصل ما بين الخطاب والمجتمع، كما تطرق بيير زيماء في كتابه "النص والمجتمع" إلى العديد من المسائل التي تعالج العلاقات بين اللساني (الكلامي) والاجتماعي، أي النص في مقابل المجتمع، منها التناص والسياق الاجتماعي، واللهجات الاجتماعية والخطابات، وغيرهما.

كما أن بيير زيماء أضاف الكثير في فضاء كتابه الهام "من أجل سوسيوثقافية النص الأدبي" 1978م، هذا الكتاب الذي أفصح فيه عن دراسة جد فاعلة ومنظمة

¹ - بيير ف زيماء: النص والمجتمع آفاق علم اجتماع النقد، ت: انطوان أبو زيد، المنظمة العربية للترجمة، ط1،

بيروت 2013، ص ص 22، 21.

² - المرجع نفسه، ص 22.

³ - المرجع نفسه، ص 23.

ونقدية في مجال سوسيلوجيا الرواية والنص الأدبي، منتبها لخصوصية بحثه وانتقاده لما سبق من آراء، وهذا ما لخصه الباحث حميد لحداني في كتابه "النقد الروائي والإيديولوجيا"، طرح مجموعة من الانتقادات، فرأى أن «تفسير النصوص الأدبية وفق الأسلوب الذي اتبعه "لوكاتش"، أي عن طريق مقابلتها مباشرةً مع إيديولوجيات مناظرة لها، لا يمثل في الواقع إلا واحداً من التفسيرات الممكنة للنص»¹.

ومن خلال كل ما تقدم يمكن أن نصل إلى تلك المفاهيم والرؤى النقدية التي فتحت نوافذها على تلك العلاقة بين الرواية والمجتمع، تلك العلاقة لا تنبني فقط على تنوع العطاء بين هاذين المصطلحين، بل على ذلك التمازج الذي يكون فيه المجتمع مادة حية في مجال النقد الروائي بما فيه من لهجات وخطابات ولغات وتمظهرات لوقائع إثنوغرافية تمثل لغة الفئة وما تحويه من أبعاد فكرية وتاريخية، وفي مجال استنطاق تلك العوالم التي تصنعها الرواية وهي تستمد حضورها من تلك التفاصيل التي تنبعث من خصوصية كل فئة اجتماعية.

¹ - حميد لحداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 84.

البنوية التكوينية والرؤية للعالم

- من البنيوية إلى البنيوية التكوينية

- نشأة البنيوية

- مراحل تطور البنيوية

- نشأة البنيوية التكوينية

- المرجعيات المعرفية للبنوية التكوينية

- البعد الفلسفي

- البعد النقدي

- البعد الهرمنيوطيقي

- مفهوم البنيوية التكوينية ومبادئها الأساسية

- مفهوم البنيوية التكوينية

- البنيوية التكوينية، المنهج والدلالة

- الأدوات الإجرائية للبنوية التكوينية

- الانتقادات الموجهة للبنوية التكوينية

يندرج مصطلح الرؤية للعالم *La vision du monde* في إطار المنهج البنيوي التكويني الذي يهدف إلى تفسير المنتج الأدبي بالاعتماد على دراسة وتحليل البنيات من خلال أدوات إجرائية لها فاعليتها في هذا التحليل، حيث يعتبر مفهوم الرؤية للعالم المحطة الفاصلة التي يصل إليها الباحث في استكشافه لمعالم النص الأدبي، فتتسجم داخله جميع الأدوات الإجرائية والمقولات التي اجتمعت لتسهم في بلورة هذه الرؤية، وذلك أن مبادئ البنيوية التكوينية تتلاحم من أجل بلوغ المضمون العميق للمنتج الأدبي.

ولكي نصل نحن أيضا في دراستنا للرؤية للعالم من خلال نماذجنا المقترحة، كان من الواجب البحثي أن نستنتج عوالم البنيوية التكوينية في مختلف تجلياتها المنهجية، بدايةً من بحثنا في مفهوم ونشأة البنيوية ومراحل تطورها، باعتبارها الجزء الهام الذي تستند عليه هذه النظرية، ثم روافد ومرجعيات البنيوية التكوينية باعتبارها الطريق الفعلي للوصول إلى عوالمها النقدية، هذه الروافد التي كانت أجزاءً تلحم هذا الفضاء وتكسبه حضوره الفلسفي والإجرائي، وعلى هذا الأساس المنهجي يمكن التطرق إلى مفهوم البنيوية التكوينية وأدواتها الإجرائية وبعض والانتقادات الهامة التي وجهت إليها، فمعرفة الروافد تأتي في اعتبارنا تمهيدا لبلوغ مفهوم البنيوية التكوينية، ومن ثم معرفة الأدوات التي اجتمعت كي توضح كيفية الدخول إلى فهم وتفسير هذه النصوص.

1- من البنيوية إلى البنيوية التكوينية:

1- نشأة البنيوية Structuralisme:

انطلقت الرؤية النقدية من خلال مسار تاريخي طويل نحو تبصر واستكشاف النص الأدبي ومحاولة الوصول إلى أبعد نقطة تستفسر علاقاته بمختلف المجالات الإنسانية، فكان النقد السياقي يهتم بتحويلات النص الأدبي في مقابل التحولات التاريخية والاجتماعية والنفسية والتأثرية الانطباعية وغيرهم، مراعيًا كل أثر يأتي من خارج النص إلى داخله، مرتبطًا بانعكاساته على تلك المجالات تأثيراً وتأثيراً، إلى أن اهتم النقاد من خلال بحوث جادة وفاعلة بخصوصية النص الأدبي كمادة للدراسة داخل عوالم النص نفسه، ولم يتأت هذا الدخول إلا من خلال تطورات ظهرت نتيجة عوامل متعددة ساهمت في بروزها الحاجة إلى الاستزادة من تفسير الظواهر التي افتقرت لها مناهج أخرى، ومن هنا فقد «ظهرت البنيوية كمنهج ومذهب فكري على أنها ردة فعل على الوضع الذري الذي ساد العالم الغربي في بداية القرن العشرين، وهو وضع تغذى من وانعكس على تشظي المعرفة وتفرعها إلى تخصصات دقيقة متعددة تم عزلها بعضها عن بعض لتجسد من ثم مقولة الوجوديين حول عزلة الإنسان وانفصامه عن واقعه والعالم من حوله، وشعوره بالاحباط والضياع والعبثية»¹، وكانت الانطلاقة من أعمال ومجهودات الشكلايين الروس فقد وضعوا «حجر أساس الشعرية البنيوية، ثم طور أكاديميو حلقة براغ² اللغوية هذا الأساس حتى صار نسقا أوليا للبنيوية الأدبية في

¹ - ميجان الرويلي، سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المرجع السابق، ص 67.

² - أفرز تأسيس مدرسة براغ (1926-1939) على يد العالمين اللسانيين الروسيين ياكسون و تروبتسكوي ثم التحاق بعض العلماء الأوروبيين بها فيما بعد كفاندريس J. Vandryes, E وطنبير L. Tesnière ومرتينى وبنفنسيت أعمالا كبيرة فيما يخص البحث في ميدان اللسانيات، سواء فيما يتعلق باللغة الأدبية والشعرية أو فيما يخص الأنساق الصوتية والمشاكل المرتبطة بعلم اللهجات. أنظر: المصطفى شادلي، البنيوية في علوم اللغة، ت: سعيد جبار، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2015، ص 104.

القرن العشرين»¹، ومن جهة أخرى «تعتبر أطروحات حلقة براغ اللغوية (التي أثرت في اللقاء الدولي الأول للسلافيين المنعقد ببراغ والمنشورة أوراها في المجلد الأول من أعمال الحلقة 1929م) خطوة أولى نحو نظرية بنيوية في اللغة واللغة الأدبية واللغة الشعرية»²، وعليه فقد كانت البنيوية³ في بدايتها تستجلي عوالم اللغة، وتستنتق مكنوناتها من خلال نظامها، فقد ظهرت «أول الأمر، كمنهج علمي تحليلي في حقل الألسنية، أتاحت للغة فرصة الدخول إلى الميدان العلمي التجريبي، قبل أن تصبح منهجا عاما تستخدمه العلوم الإنسانية، ومنها النقد الأدبي»⁴، ومنه أضحت البنيوية في بُعدها الجديد منهجا شموليا يهدف إلى تجميع كل العلوم وتفسير الظواهر عموما، فكان الجانب اللغوي منطلقا هاما لتحديد العلاقة بين الإدراك والمُدرك، ومدى تفاعل هذه العملية في تحديد الأفكار والمفاهيم، «ومن هنا كان النظام اللغوي ونظام الإشارة (العلامة) عموما هو المثل للدراسة البنيوية»⁵، حيث تركز الدراسة على وضع مجال بين الدال والمدلول يكون مفتاحا للفهم والتفسير، لتكون «أهمية اللغة إذن من أنها هي نظام الدلالة بامتياز، وهي من ثم وسيلة التواصل والمعرفة، فكان لمجهودات فرديناند دي سوسير⁶ (اللغوي السويسري) بالغ الأثر على البنيوية عموما (والعلوم الإنسانية

¹ - رمان سلدن: من الشكلائية إلى ما بعد البنيوية، مراجعة: ماري تريز عبد المسيح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2006، ص 61.

² - المرجع نفسه، ص 63.

³ - تكونت البنيوية أساسا، ومع بداية هذا القرن، في مجالين: في مجال اللسانيات أو البحث اللغوي مع العالم السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure، وفي مجال الأنتولوجيا أو البحث في المجتمعات القديمة مع كلود ليفي ستراوس C. Levis Strauss، أنظر: يمني العيد: في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1985، ص 28.

⁴ - محمد عزام: فضاء النص الروائي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 1، سوريا 1996، ص 27.

⁵ - ميجان الرويلي، سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المرجع السابق، ص 68.

⁶ - فرديناند دوسوسير Ferdinand de Saussure (1857-1913) عالم لسانيات مشهور، ولد في جنيف في واحدة من أشهر العائلات، عائلة اشتهرت بإنجازاتها العلمية، وبذلك يكون معاصرا مباشرا لكل من إميل دوركهايم=

على وجه الخصوص)¹، فتوجه من خلال نظريته إلى دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، وقدّم فارقا بين اللغة المنطوقة والمكتوبة، ولذلك يؤكد على أنه «بفصل لغة الكلام، يتم في الوقت نفسه فصل، 1° ما هو اجتماعي عن ما هو فردي، 2° وما هو جوهري عن ما هو ملحقات وعرضي أكثر أو أقل، فاللغة ليست وظيفة المتكلم، هي المنتج الذي يسجله الفرد بشكل سلبي، ويتدخل التفكير من خلال نشاط التصنيف»²، هذا النشاط الذي تحدث عنه بشكل تفصيلي في حقول محاضراته الهامة.

وعليه فقد أضحى المنهج البنيوي هو المنهج الفاعل في الدراسة الأدبية باعتبارها نسقا لغويا يمكن لهذا المنهج أن يستكشف بنياته الشكلية والخطابية مستبصرا العلاقات الكامنة بين تلك البنيات والأنساق، فالبنية هي محل البحث والاستنباط، هي محل الكشف والاستكشاف، لذلك «فإن كلمة "Structure" مشتقة من الفعل اللاتيني "Struere" بمعنى "يبني" أو "يشيد"، وحين تكون للشيء "بنية" (في اللغات الأوروبية) فإن معنى هذا -أولا وقبل كل شيء- أنه ليس بشيء "غير منتظم" أو "عديم الشكل" amorphe، بل هو موضوع منتظم، له "صورته" الخاصة، و"وحدته" الذاتية»³، ومن جهة أخرى فإن «بنية» الشيء في اللغة العربية هي "تكوينه"، وهي تعني أيضا

=وسيفغونود فرويد، نشر وهو في سن الحادية والعشرين مذكرة نالت ثناء كثيرا وكان عنوانها "مذكرة عن النظام البدائي لأحرف العلة في اللغات الهندو-أوروبية"، وفي عام 1880 بعد أن ناقش أطروحته حول "الحالة المطلقة للجر بالإضافة في السنسكريتية" انتقل إلى باريس، وفي عام 1881م عيّن محاضرا في الكلية التطبيقية للدراسات العليا، ثم أستاذا في جامعة جنيف. ونال عمله "محاضرات في علم اللغة العام" شهرة كبيرة، حيث درّس هذه المادة في السنوات بين 1907 و1911. أنظر: جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة المرجع السابق، ص ص 307، 308.

¹ - ميجان الرويلي، سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المرجع السابق، ص 68.

² - Ferdinand De Saussure: Cours de linguistique générale, Editions Talantikit, Béjaia

2002., p. 23.

³ - زكريا ابراهيم: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، ط1، القاهرة 1990، ص 29.

"الكيفية" التي شيد على نحوها هذا البناء أذاك»¹، كما تعد البنية في المجال الاصطلاحي، حسب عالم النفس جان بياجيه «بالتقريب الأول، نظاما من التحوّلات يتألف من قوانين (تقابل خصائص عناصرها) وتظل قائمة وتزدهر بلعبة التحوّلات نفسها»²، وفي مقابل هذا يمكن القول إن «البنية هي "القانون" الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته، إنها نسق من التحوّلات له قوانينه الخاصة باعتباره نسقا يتميز بثلاث خصائص: الكلية والتحلّات والتنظيم الذاتي، كل تحوّل في عناصر البنية يُحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى»³.

لذلك فإن البنية تعتمد في حضورها وتتميز بثلاث عناصر: الكلية، والتحوّلات، والضبط الذاتي، ومعنى الكلية La totalité هو «أن البنية لا تتألف من عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن "الكل"، بل هي تتكون من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق، من حيث هو "نسق"»⁴، أما التحوّلات Les transformations فتعني أن «المجاميع الكلية» تنطوي على ديناميكية ذاتية، تتألف من سلسلة من التغيرات الباطنة التي تحدث داخل "النسق" أو "المنظومة"، خاضعة في الوقت نفسه لقوانين "البنية" الداخلية»⁵، أما الضبط الذاتي أو التنظيم الذاتي Autoréglage «فهو أن في وسع "البنيات" تنظيم نفسها بنفسها، مما يخفظ لها وحدتها، ويكفل لها المحافظة على بقائها، ويحقق لها ضربا من "الانغلاق الذاتي"»⁶، ولذلك فإن معركة البنيوية جاءت في ثياب البحث في البنية من خلال نظامها الداخلي وطرائق تحوّلاتها، وعليه فقد ظهرت

1 - عبد الوهاب جعفر: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه، دار المعارف، ط1، الاسكندرية 1989، ص 02.

2 - جان بياجيه: البنيوية، منشورات عويدات، ط4، بيروت باريس 1985، ص 08.

3 - زكريا ابراهيم: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، المرجع السابق، ص 233.

4 - المرجع نفسه، ص 30.

5 - المرجع نفسه، ص 31.

6 - المرجع نفسه، ص 31.

البنيوية كمنهج وطريقة تستنطق الظواهر الإنسانية المتعددة وتستجلي علاقاتها وأنظمتها، باعتبار أن «أهم ما يميز البنيوية أنها تهتم بتقعيد الظواهر وتحليل مستوياتها المتعددة في محاولة للقبض على العلائق التي تتحكم بها»¹، وإذا كانت البنيوية كما أشار رولان بارت² Roland Barthes (1915 - 1980) هي «محاولة نقل النموذج اللغوي إلى حقول ثقافية أخرى»³، فإن هذا الدخول إلى عالم البنية اللغوية شكّل تحوُّلاً هاماً في سياق الدراسة النقدية الأدبية، هذا التحوُّل الذي يشرحه "جونثان كولر"⁴ Jonathan Culler في البعد الذي يجعل الاستعادة من علم اللغة داخل حقول الظواهر الثقافية يعتمد على «اعتقادين أساسيين، الأول: أن الظواهر الاجتماعية والثقافية ليست مجرد موضوعات أو أحداث مادية، بل هي موضوعات أو أحداث ذات معنى، وبالتالي فهي إشارات. والثاني: أن هذه الظواهر ليست جواهر أو ماهيات قائمة في ذاتها، بل إنها محددة بشبكة من العلائق، الداخلية والخارجية»⁵، ولذلك أضحي

¹ - عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي: معرفة الآخر-مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة-، ط2، المغرب 1996، ص 39.

² - ولد في شيربورغ، ولم يكد يبلغ من العمر سنة واحدة حتى توفي أبوه في معركة بحرية في بحر الشمال، وهكذا أشرفت أمه على تربيته، وقبل أن يكمل دراسته الابتدائية والثانوية في باريس، أمضى بارت طفولته في بابون في جنوب-غرب فرنسا. بين 1934 و1947م عانى مننوبات مختلفة من مرض السل، وفي أثناء فترة النقاهة المفروضة عليه أخذ يقرأ كل شيء بنهم، ونشر مقالاته الأولى عن أندريه جيد André Gide. وبعد أن درّس في رومانيا ومصر حيث التقى بـ أ. ج. غريماس (Greimas)، ثم في "كلية الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية"، عُيّن بارت في "الكلية الفرنسية" عام 1977م. أنظر: جون ليتشه، خمسون مفكراً أساسياً معاصراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 253.

³ - عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي: المرجع السابق، ص 41.

⁴ - يعتبر من أهم الباحثين المعاصرين المتخصصين في النقد البنيوي والدراسات اللغوية والأدبية المقارنة؛ تخرج في هارفارد وقام بالتدريس في كمبردج وغيرها من جامعات أوروبا وأمريكا؛ وقد أصبحت أعماله عن البنيوية والتفكيرية من الكتابات التقليدية التي رادت الطريق وأصبحت من المراجع الأساسية المعتمدة. أنظر: جونثان كلر، شعرية الرواية، ت: السيد إمام، مجلة إبداع، ع07، 01 يوليو 1995، ص، ص 110.

⁵ - عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي: المرجع السابق، ص 41.

هذا المنهج نموذجاً هاما للتحوّل الذي طرأ على الدراسة النقدية التي لم تعد تستند على ظروف تاريخية أو قدرة جمالية عند الكاتب، وبالتالي «انعكست مفاهيم البنيوية على كثير مما ساد قبلها وأثرت فيه تأثيراً كبيراً، فالأدب لم يعد إبداعاً عبقرياً يعتمد على قدرة المؤلف الخارقة، بل أصبح صيغة كتابية مؤسسية تحكمها قوانين وشيفرات تميّط اللثام عن هذا "اللغز" القار من أفلاطون إلى عصرنا هذا»¹.

وإذا رجعنا إلى الإشكالية التي تحاول أن تحدد كيفية النظر إلى البنيوية سواء باعتبارها منهجاً أو باعتبارها علماً، فإنه بالعودة إلى مفهومها وطريقة تعاملها مع الظواهر، يتجلى لنا - كما أسلفنا الذكر - «أن أهم ما يميز البنيوية أنها تهتم بتقعيد الظواهر وتحليل مستوياتها المتعددة في محاولة للقبض على العلائق التي تتحكم بها، وهذا ما يجعل البنيوية منهجاً لا فلسفة، وطريقة وليس إيديولوجياً، أي باختصار، ما يجعل منها علوماً كثيرة تهتم باستخراج المستويات التحليلية للظواهر الإنسانية وكشف شبكة العلائق والأنساق السائدة فيها»².

¹ - ميجان الرويلي، سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المرجع السابق، ص 74.

² - عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي: معرفة الآخر، المرجع السابق، ص 39.

2- مراحل تطوّر البنيوية:

لم تتكون مفاهيم البنيوية في صورتها الحديثة إلا بعد ارهاصات عديدة كان لها الأثر الكبير في تغيير الرؤية للعمل الأدبي خصوصا، ولذلك يمكن أن نترصد تطور هذه المفاهيم من خلال عدة اتجاهات نقدية رصدت المعالم الفعلية للبنيوية، وقدمت الأرضية المفاهيمية والمصطلحية لها.

2-1 مدرسة جنيف:

قدمت مدرسة جنيف الفضاء الفاعل لبروز البنيوية في شكلها الحديث، وذلك من خلال مجهودات المفكر والعالم الألسني السويسري فيرديناند دو سوسير الذي منح لطلبته الدخول في مجالات علمية مختلفة، وقدم محاضرات متعددة جمعها تلامذته في كتابه "دروس في اللسانيات العامة"، وعليه فقد ظهر في هذه الأعمال عدة مصطلحات هامة كان لها الأثر في توجيه الفكر البنيوي، مثل «فكرة (النظام) أو النسق "Systemes" وثنائيات: (اللغة والكلام) و(المدلول والمدلول) و(الآنية والزمانية) وغيرها من المفاهيم التي شكلت الجوهر البنيوي بعد ذلك»¹، حيث أخرج النص الأدبي من امتزاجه بكل ما يحيط به إلى فضاء اللغة، «وعلى الرغم من أنه لم يستعمل كلمة (بنية) فإن الاتجاهات البنيوية كلها قد خرجت من الألسنية، فقد مهد لاستقلال النص الأدبي بوصفه نظاما لغويا خاصا، وفرّق بين اللغة والكلام: (فاللغة) عنده هي نتاج المجتمع للملكية الكلامية، أما (الكلام) فهو حدث فردي متصل بالأداء وبالقدرة الذاتية للمتكلم»². ولذلك فإن هذه الفروق قد قدمت صورة واضحة لاستقلالية العمل الأدبي عن طريق اللغة، «ولئن ميّز سوسير بين ثلاثة أنواع من اللغة، فإن تمييزه بين اللغة

¹ - يوسف وغيليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، رابطة إبداع الثقافية، ط1، الجزائر 2002، ص 117.

² - محمد عزّام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق 2003، ص 12.

كنظام واللغة كحدث فعلي يمارسه فرد ما قد استحوذ على اهتمام البنيويين وأرسى دعائم البنيوية في الفضاءات الثقافية الأخرى كافة»¹.

كما وجدت البنيوية في فرنسا حقلاً مثمراً حقق طموحها وانتشارها الواسع، فقد «تأثر رواد النقد البنيوي الفرنسي بسوسير، ودفعهم هذا التأثير إلى الكشف عن أنساق الأدب وأنظمتها وبنياتها، باعتبار الأدب نظاماً رمزياً يحوي نظاماً فرعية، فذهب (بارت) إلى تعقيد القصة وتحليل السرد، بينما اهتم (تودوروف)² بأدبية الأدب، أو بما يجعل من الأدب أدباً»³.

2-2 الشكلايون الروس:

إن ما قدّمه الشكلايون الروس يعتبر من أهم التأسيسات لفضاء البنيوية، فمن خلال مجهوداتهم وما قدمته حلقة براغ (دراسة المظاهر الصوتية للغة)، انبثقت عن هذا المنطلق دراسات متعددة تكشف خصوصية هذا التوجه الجديد في البحث النقدي، فمن «المعلوم أن مدرسة "الشكليين الروس" ظهرت في روسيا بين عامي 1915 و1930، ودعت إلى الاهتمام بالعلاقات الداخلية للنص الأدبي، واعتبرت الأدب نظاماً ألسنياً ذا وسائل إشارية (سيمولوجية) للواقع، وليس انعكاساً للواقع»⁴، ومن هنا، يظهر لنا جلياً، أن مصطلح البنيوية، في بداياته، كان أول ظهور له في رحاب البحث مع الشكلايين الروس، وذلك من خلال ما جاء «في البيان المنهجي الذي أصدره إثنان منهما (لعلهما

¹ - ميجان الرويلي، سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المرجع السابق، ص 70.

² - تيزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov (1939-2017)، بلغاري المنشأ، عاش في باريس منذ عام 1963، كان ناقداً، ومؤرخاً، وفيلسوفاً، نشرت له مؤلفات عديدة. أنظر: تيزفيتان تودوروف، الأمل والذاكرة خلاصة القرن العشرين، ت: نرمين العمري، منشورات العبيكان، ط1، الرياض 2006، ص الغلاف.

³ - محمد عزّام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، المرجع السابق، ص 12.

⁴ - المرجع نفسه، ص 11.

جاكسون¹ ويوري تينانوف² سنة 1928، في خصوص العلاقة بين نماذج التحليل اللغوي والأدبي»³، وفي سياق موازي يمكن القول بأن تشكّل المفاهيم الشكلانية لم يتأت إلا باجتماع حلقتين هامتين هما:

« 1- حلقة موسكو اللسانية (التي تكونت سنة 1915م)، ويطلق عليها اسم MLK وكان عنصرها البارز هو ياكوبسون، الذي كان إذ ذاك مهتما بالإنثوغرافيا السلافية وفلسفة اللغة، 2- حلقة سان بترسبورغ (لنينكراد) ويطلق عليها اسم Opoiiaz، والتي كان معظم أعضائها من طلبة الجامعة، على أنه كان هنالك عنصران مشتركان يجمعان بين أفراد الحلقتين هما: الاهتمام باللسانيات، والحماسة للشعر الجديد»⁴، وكان لجهود هذين التجمعين العلميين أثر كبير في صياغة اتجاه جديد للمنهج النقدي، حيث كان الأدب الروسي مصابا بأزمة منهجية و«خاضعا لهيمنة نقد سوسولوجي له خلفيات سياسية وإيديولوجية، وبذلك أصبحت العلاقة السببية بين الأدب والحياة أشبه بعقيدة مغلقة»⁵، فلا يمكن أن يتطور داخلها الأدب ويتحرر وهو في سياقات تحوّل كل مجرى أدبي وإبداعي إلى حقولها، وتستقطب أي حركة تحاول أن تخرج عن هذا النسق، وعليه فلم «تظهر الشكلانية إلا بعد الأزمة التي أصابت النقد والأدب

¹ - رومان جاكسون Roman Jakobson ولد في موسكو (1886-1982)، يعتبر، عموما، واحدا من أهم علماء اللغة في القرن العشرين، ومن أكبر مؤيدي التوجه البنيوي في اللغة خصوصا. أنظر: جون ليتشه، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 138.

² - يوري تينانوف (1894-1943) (Iouri Tynianov/ Jurij Tynjanov) من أهم الكتاب و النقاد والروائيين والمترجمين ومنظري الأدب، يعتبر من المؤسسين الفعليين للمدرسة الشكلانية الروسية. كما يعد من المؤسسين الفعليين لحلقة الأبوياز التي كانت تعنى بدراسة شكل اللغة الشعرية. (Poétique). أنظر: جميل الحمداوي، يوري تينانوف، صحيفة المثقف، ع 2881، نشر بتاريخ: 2014-07-26، شوهد بتاريخ: 2018-03-02، الموقع:

<http://www.almothaqaf.com/qadaya2014/882661.html>

³ - يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، المرجع السابق، ص 118.

⁴ - إبراهيم الخطيب: نظرية المنهج نصوص الشكلانيين الروس، المرجع السابق، المقدمة، ص 10.

⁵ - المرجع نفسه، ص 10.

الروسيين، بعد انتشار الإيديولوجية الماركسية، واستفحال الشيوعية، وربط الأدب بإطاره السوسولوجي في شكل مرآوي انعكاسي؛ مما أساء ذلك إلى الفن والأدب معا¹، وعليه فقد اهتم الشكلانيون واعتمدوا على مبدئين أساسيين هما²:

- المبدأ الأول: وقد لخصه ياكوبسون قائلاً: "إن موضوع علم الأدب ليس هو الأدب وإنما الأدبية *Littérarité*" وبذلك حصروا اهتمامهم في نطاق النص.

- المبدأ الثاني: ويتعلق بمفهوم الشكل، فقد رفضوا رفضاً باتاً ما كانت تذهب إليه النظرية النقدية التقليدية من أن لكل أثر أدبي ثنائية متقابلة الطرفين: هي الشكل والمضمون، وأكدوا أن الخطاب الأدبي يختلف عن غيره ببروز شكله.

ومن هنا فقد انغمس البحث عند رومان جاكوبسون Roman Jakobson في نطاق أدبية الأدب، وقد أكد «على وظيفة اللغة في خلق القواعد الشكلانية، ورأى أن التحليل الأدبي ينبغي أن يتضمن البحث عن (الوحدات ذات الدلالة)، والبحث عن (العلاقات) الترابطية في النص الأدبي. وقد لخص مبدأ الشكلانيين بعبارة واحدة هي: "إن موضوع علم الأدب ليس الأدب، بل الأدبية" أي العناصر التي تجعل الأثر الأدبي أدبياً، أو المميزات التي يكون بها الأثر الأدبي أدبياً. كما استطاع أن يكتشف مفهوم (القيمة المهيمنة)، باعتبارها عنصراً بؤرياً للأثر الأدبي، يحكم، ويحدد، ويغير العناصر الأخرى، ويضمن تلاحم بنية النص الأدبي»³.

2-3 حلقة براغ

تشكلت الحلقة إثر قدوم ياكوبسون إلى براغ محملاً بمفاهيم جديدة تستجلي تحولات هامة في قراءة مختلفة للعمل الأدبي، «وهكذا أسس هناك حلقة براغ اللسانية التي

¹ - جميل الحمداوي: التعريف بالشكلانية الروسية، صحيفة المثقف، مؤسسة المثقف العربي، نشر بتاريخ 05-07-2014، آخر زيارة في 15-08-2017 بتوقيت: 12:52.

² - إبراهيم الخطيب: نظرية المنهج نصوص الشكلانيين الروس، المرجع السابق، المقدمة، ص 10.

³ - محمد عزام: فضاء النص الروائي، المرجع السابق، ص 25.

تولدت عنها، فيما بعد، اللسانيات البنيوية»¹، على أن هناك من يرجع تأسيسها إلى اجتماع عدد من الباحثين من بينهم ياكسون لمناقشة محاضرة ألقاها زميل لهم في مجال البحث اللغوي، حيث كان مولدها في «06 أكتوبر 1926، عندما اجتمع فيليم ماتزيوس -مشرف الحلقة الدراسية الإنجليزية بجامعة تشارلز- مع أربعة من زملائه (رومان ياكسون، هافرنيك B. Havranek، وترنكا B.Trnka، وريبكا J. Rybka)» لمناقشة محاضرة ألقاها بيكر H. Beeker، اللغوي الألماني الشاب، وقد أضفى ماتزيوس على المجموعة شكلا تنظيميا واتجاها نظريا واضحا، ثم سرعان ما تامت الحلقة حتى صارت اتحادا دوليا يتكوّن من حوالي خمسين أكاديميا»²، كما أن هناك من يرجع بدايتها إلى فيلام ماثيزيوس، حيث «أسس العالم التشيكي فيلام ماثيزيوس (Vilem mathesius) وبعض معاونيه نادي براغ اللساني (Prague circle) سنة 1926، وأصبح هذا النادي يعرف فيما بعد بمدرسة براغ، أو المدرسة الوظيفية، أو المدرسة الفونيمية، وقد بلغت هذه المدرسة ذروتها في الثلاثينيات، وما زال نفوذها مستمرا إلى يومنا هذا»³.

وتفعيلا لدور العالم الكبير "ماثيزيوس"⁴ Vilèm Mathesius (1882م - 1945م) تدافعت الآراء والتعليقات لتعتبره الأب المؤسس لحلقة براغ¹، ومن هنا فقد ساهمت حلقة

1 - إبراهيم الخطيب: نظرية المنهج نصوص الشكلانيين الروس، المرجع السابق، المقدمة، ص 09.

2 - لوبومير دوليزل: بنيوية مدرسة براغ، ت: حسام نايل، موسوعة "كمبريدج في النقد الأدبي"، مجلد 8، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ط1، مج8، ع1045، القاهرة 2006، ص 62.

3 - أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر 2005، ص 136.

4 - واحد من ألمع العلماء ليس في اللسانيات فحسب، بل في اللغة والأدب الإنجليزي أيضا، وقد أسس بمعونة معاونيه نادي براغ اللساني، ثم شغل منصب أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة كارولين الأمريكية. وفي سنة 1911م نشر مثيريوس نداءه الأول لمنهج جديد غير تاريخي لدراسة اللغة بعنوان "حول كمونية الظواهر اللغوية" ومن أهم الأبحاث التي قام بها، استعمال الدراسة الوظيفية للتمييز بين النحو والأسلوبية، ومن إسهاماته التي نالت شهرة كبيرة في اللسانيات تمييزه بين مفهومي "الموضوع" و"الخبر"، وتطويره لمفهوم الجملة الوظيفي. أنظر: المرجع نفسه، ص

براغ في بناء تصور هام وفاعل للبنيوية من خلال دراستها للبنية الصوتية من جهة، ومساهمتها في تحولات الأفكار البنيوية من جهة أخرى، حيث «تعتبر بنيوية براغ خطوة في تطوير الفكر النظري الذي ساد القرن العشرين، كانت بمثابة محطة من محطات النموذج المعرفي ما بعد الوضعي في اللغويات والشعرية الذي استهله فردينان دوسوسير والشكلانيون الروس»² بل «كانت هذه الحلقة باعثة على نشوء حلقات لغوية أخرى قدمت ميراثا بنيويا معتبرا مثل: حلقة كوبنهاغن (يامسليف³ وبروندال⁴..) سنة 1931، وحلقة نيويورك (سابير⁵، بلوم فيلد⁶، تشومسكي⁷...) سنة 1934، هذه الروافد البنيوية، لم تأخذ صيغتها المنهجية النقدية المنظمة إلا مع المدرسة الفرنسية، ممثلة بجماعة "Tel quel" ومجلتها الموسومة بالاسم نفسه»⁸، ومن خلال هذه الجماعة استطاع روادها أن يقفوا على أرضية صلبة لنظرية حديثة أسهمت في توسيع مجال البنيوية حين تدرس العمل الأدبي باعتباره يهتم بتشكيل البنيات وتنوعها، وكان

¹ - ماري آن بافو، جورج إليا سرفاتي: النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ت: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت لبنان 2012، ص 190.

² - لوبومير دوليزل: بنيوية مدرسة براغ، المرجع السابق، ص 66.

³ - لويس هيلمسليف Louis Hjelmslev (1899-1966)، عالم لغة وسيميوطيقا (نظرية العلامات) دانماركي. أنظر: جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 281.

⁴ - فيغو برونالد Veggo Brondal (1887-1942) عالم لغويات دانماركي. أنظر: Identifiants et Référentiels pour l'enseignement supérieur et recherche : Brondal viggo : 056743874.

In site : <https://www.idref.fr/056743874>. Vu le: 12-05-2018.

⁵ - إدوارد سابير Edward Sapir (1884-1939) لغوي أمريكي (ولد في ألمانيا وهاجر إلى أمريكا). أنظر: محمد سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة نصوص ودراسات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية دت، ص 14.

⁶ - ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (1887-1949) لغوي أمريكي. أنظر: عبد العزيز حليبي،

اللسانيات العامة واللسانيات العربية تعاريف أصوات، منشورات دراسات سال، ط1، المغرب 1991، ص 14.

⁷ - نعوم تشومسكي Noam Chomsky، ولد في فيلادلفيا عام 1928م، نال درجة الأستاذية هناك هام 1976. أنظر: جون ليشته، المرجع السابق، ص ص 112، 113.

⁸ - يوسف وغيليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، المرجع السابق، ص ص 118، 119.

من أبرز روادها «رولان بارت، ميشال فوكو¹، جاك دريدا²، جوليا كريستيفا³،...» الذين دعوا إلى نظرية جديدة في الكتابة، هي ليست انعكاسا للواقع "كما هي الحال في المناهج السياقية" ولكنها إنتاج له..⁴، وعليه فقد شمل بحثها عدة مجالات، نحددها فيما يلي: «الصوتيات الوظيفية الآنية، والصوتيات الوظيفية التاريخية، والتحليل الوظيفي والعروضي وتصنيف التضاد الفونولوجي، والأسلوبية اللسانية الوظيفية، ودراسة الوظيفة الجمالية للغة ودورها في الأدب والمجتمع والفنون»⁵.

ويمكن أن نلخص إلى أن مدرسة براغ من أهم المدارس التي أضافت تحولا هاما في تطور البنيوية وشكلت من خلال المستوى الوظيفي للغة نسقا له أبعاد مختلفة داخل اللغة نفسها، «وعلى الرغم من أن هذه الحركة هي حركة بنيوية في حد ذاتها، إلا أنها اختلفت عن البنيوية، لأنها لم تقتصر على الوصف العلمي، بل تعدته إلى التحليل الوظيفي والتفسير الواقعي، وأثبتت أن المناهج الفونولوجية صالحة للدراسات الآنية والزمانية على حد سواء»⁶.

2-4 مدرسة كوبنهاجن

لقد ساهمت مدرسة كوبنهاجن بقدر كبير في مجال الدراسة اللسانية باعتبارها من أهم التيارات البنيوية الحديثة، وقد ظهرت في أوروبا في مطلع القرن العشرين، وقدم

¹ - ميشال فوكو Michel Foucault (1926-1984) فيلسوف فرنسي، توفي على إثر إصابته بمرض متعلق بالإيدز. أنظر: جون ليشته، المرجع السابق، ص 231.

² - جاك دريدا Jacques Derrida (1930-2004) فيلسوف فرنسي، ولد في الجزائر لعائلة يهودية جزائرية. أنظر: المرجع نفسه، ص 221.

³ - جوليا كريستيفا Julia Kristeva، أديبة وفيلسوفة فرنسية، ولدت عام 1941، جاءت إلى باريس من بلغاريا كطالبة عام 1965. أنظر: المرجع نفسه، ص 291.

⁴ - يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، المرجع السابق، ص 119.

⁵ - أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، المرجع السابق، ص 136.

⁶ - المرجع نفسه، ص 155.

باحثوها دراسات علمية في مجال البحث اللغوي حيث «صاغوا عناصر اللغة في رموز جبرية، وتراكيبها في معادلات رياضية. وقد أحدث هذا الأمر ردود أفعال عنيفة من قبل اللسانيين على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والفلسفية»¹، ومن أهم مبادئ هذه المدرسة التي نشأت داخل عوالم الفضاء النقدي لمدرسة "جنيف"، ومدرسة "براغ"²: -

تعتبر اللغة ليست مادة، وإنما هي صورة أو شكل.

- جميع اللغات تشترك في أنها تعبر عن محتوى.

- يوضع لتحليل اللغة نظرية صورية رياضية تصدق على جميع اللغات.

- تقوم على النقد الحاد للسانيات التي سبقتها وحادت في نظرها عن مجال اللغة بانتصابها خارج الشبكة اللغوية.

- تقوم على النسقية التي تنصب على داخل اللغة، فهي تصدر منها وإليها ولا تخرج عن دائرة اللغة المنظور إليها على أنها حقل مغلق على نفسه وبنيته لذاتها.

- تسعى إلى إبراز كل ما هو مشترك بين جميع اللغات البشرية.

وفي سياق التأسيس لهذا الحقل المعرفي «يرجع الفضل في تأسيس مدرسة كوبنهاجن إلى اللساني الدانماركي لويس يلمسليف³، صاحب النظرية البنيوية التحليلية الشهيرة: الرياضيات اللغوية (Glossematics)»⁴، هذه النظرية التي يرجع انشاؤها إلى يلمسليف رفقة هان جورج أولدل، حيث اشتركا معا سنة 1933 «في بلورة بحث

1 - أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، المرجع السابق، ص 157.

2 - محمد الصغير بناني: المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر 2001، ص 76.

3 - ينتمي يلمسليف إلى أسرة لها باع في العلم فقد كان والده مديرا لجامعة كوبنهاجن، وانصرف في بداية مشواره اللساني إلى اكتشاف اللساني المقارني راسموس راسك الذي اهتم بدراسة نحو اللغات البلطيقية، ويعد الدارسون يلمسليف أبرز لغوي أفاد في المناهج.. الرياضية والمنطقية في دراسة اللغة دراسة شكلية مجردة، من مؤلفاته المهمة كتاب "البروليغومين". أنظر: نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، د ت، ص 116.

4 - أحمد مومن: المرجع السابق، ص 157.

علمي متخذين موقفا مغايرا من مدرسة براغ، وفي عام 1935، اقترح هذان الباحثان تسمية النظرية الجديدة التي كانا بصدد تقديمها في المؤتمر الدولي الثاني للعلوم الصوتية بعلم الفونيمات (Phonematics) بوصفها نظرية متميزة عن نظرية براغ الفونولوجية، وأثناء المؤتمر الدولي الثالث للسانيات، الذي انعقد بكوبنهاجن سنة 1936، كانت رغبة التمايز عن علماء مدرسة براغ قد تجسدت بخلق مصطلح: الغلوسيماتيك¹، لتخرج بفضائها النقدي من مساحات الفلسفة وتجسد رؤيتها العلمية الرياضية، فتهتم تحديدا بدراسة وتحليل الظواهر اللغوية، وتستقي الأبعاد الإجرائية في التوغل داخل النصوص وتعاملها معها، ولذلك «جاءت هذه النظرية لتتخلى عن الدراسات اللغوية المتأثرة بالفلسفة، والأنثروبولوجيا واللسانيات المقارنة، وتقيم لسانيات علمية مبنية على أسس رياضية ومنطقية وكلية (Universal)، تعنى بوصف الظواهر اللغوية، وتحليلها، وتفسيرها بطريقة موضوعية، وتتميز هذه النظرية عن باقي النظريات اللسانية الأخرى بدرجة لا مثيل لها من التجريد النظري وخاصة في مجال التعريف والتنظيم والتصنيف»².

¹ - أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، المرجع السابق، ص 158.

² - المرجع نفسه، ص 159.

3- نشأة البنيوية التكوينية

لقد حاولت البنيوية من خلال فضاءاتها النقدية وكل تحولاتها أن تنقل على النص، وتقدم دراسات متنوعة لشكلية الإبداع، وعزله تماما عن سياقاته الاجتماعية والتاريخية والنفسية والثقافية وغيرهم، وفي هذا انحسرت في رواق ضيقٍ شكّل عقبةً صعبةً في استنطاق مكونات النص الإبداعية، مما جعلها تبحث عن توازن تقف عليه، ويسير بها على مساحات تشكّل جديد يمنح فرصة لبعض الأطر أن تساهم في تحليل النص والانغماس داخله، ولذلك ظهرت البنيوية التكوينية التي حاولت أن تجسد ذلك التوازن، وأن تخلق تفاعلات جديدة لهذا الشكل مما يتيح البحث عن البنيات العميقة والسطحية المؤسسة لأي فضاء بشكل يساهم فعليا في إبراز كيمياء الإبداع التي تتراوح بين الشكلية وما يحيط بها من مجالات متنوعة، أي الانتقال من المساحات الضيقة إلى مساحات أكثر اتساعا في معرفة النص، كما أسهم هذا الفضاء الجديد في بعث روح علمية اجتماعية داخل النص، وذلك من خلال خلق تفاعل بين النتائج والفئة الاجتماعية، بحيث لا يكون هذا النتائج انعكاسا مباشرا للواقع الاجتماعي، بل يتضمن بنيات ذهنية داخل المجموعة الاجتماعية، وهذه البنيات الذهنية «هي بنيات عمليات غير واعية، ومن هنا فإن إدراكها لا يمكن أن يتحقق بوساطة دراسة النوايا الشعورية للمبدع، ولا بوساطة تحليل محايث، وإنما بوساطة بحث بنيوي¹، ذلك أن الفرد الذي يعبر عن الطبقة الاجتماعية، وعن رؤيتها للعالم، إنما يتصرف انطلاقا من هذه البنيات التي تسود المجموعة التي يعبر عنها»².

¹ - إن هذه البنيات متوغلة داخل الفئات الاجتماعية، ودراستها تكشف الخصوصية التي كوّنت ذلك المجتمع، وتكشف من خلال مظهراتها حركة الفئة الاجتماعية، أي لكي تتحقق البنيوية التكوينية لا بد من كشف بنية الجماعة (البنية العميقة) في سياق التحولات الاجتماعية والتاريخية والنفسية وغيرهم حسبما أكده غولدمان في عدد من كتبه.

² - محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، المرجع السابق، ص 229.

ومن هنا فقد أسس هذا المنهج الجديد المفكر والناقد الفرنسي لوسيان غولدمان، رغم أن العديد من المفكرين ساهموا في بلورة الكثير من مفاهيم البنيوية التكوينية خاصة منهم «المجري جورج لوكاتش والفرنسي بيير بورديو»¹، غير أن المفكر الأكثر إسهاما من غيره في تلك الصياغة هو الفرنسي الروماني الأصل لوسيان غولدمان، وكانت طروحات غولدمان حيث ربط البنيوية التكوينية كمفهوم علمي بعدة مستويات، فترتبط على «المستوى السيكولوجي (وعلى هذا المستوى فقط) بفرويد، وعلى المستوى الإبيستمولوجي بهيجل، وماركس، وبياجي، وعلى مستوى التاريخ الاجتماعي بهيجل وماركس، وغرامشي»²، ولوكاتش، وبالماركسية ذات النفس اللوكاتشية، وغني عن القول إن هذه الأسماء تشير فقط إلى بعض النقاط المرجعية الخاصة»³، ومن هنا يتجلى المفهوم الغولدماني لخط سير المفهوم العلمي للبنيوية التكوينية، من خلال هذه المرجعيات التي تستقي منها منهجها، وتتشكل من فضاءاتها المعرفية والنفسية والاجتماعية والتاريخية، ومن ثم فإن غولدمان وعلى المستوى السوسيوثقافي يؤكد على أن أهم اكتشاف للبنيوية التكوينية، بل الاكتشاف الأساسي لها هو «محتوى الذات العبر- فردية»⁴ (أو الجماعية)، والصفات البانية لكل سلوك ثقافي، عاطفي أو عملي

¹ - بيار بورديو Pierre Bourdieu (1930-2002)، عالم اجتماع فرنسي، غزير الانتاج، وهو مؤلف لأكثر من 35 كتابا. أنظر: جون سكوت، خمسون عاما اجتماعيا أساسيا، ت: محمود محمد حلمي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت 2009، ص 110.

² - أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci (1891-1937)، فيلسوف إيطالي. أنظر: أنتونيو غرامشي، الموسوعة الحرة ويكيبيديا، اطلع عليه بتاريخ: 2018-03-21: أنطونيو-

غرامشي <https://ar.wikipedia.org/wiki/غرامشي>

³ - Lucien Goldmann : science humaines et philosophie, édition delga. Paris 2014., p. 223.

⁴ - نجد مصطلح (transindividuel) قد ترجمه الدكتور يوسف الأنطكي بمراجعة الدكتور محمد برادة إلى (الذات الفوق فردية)، ولعل ترجمة هذا المصطلح إلى "الذات العبر الفردية" أقرب إلى مفهومها، باعتبار أن المعنى يصب في مفهوم عبور الذات الفردية إلى الذات الجماعية، أو بمعنى آخر الفرد الجماعي.

لهذا المحتوى»¹، وهذا يعني أن بنية الفئات الاجتماعية تتدخل في بنية السلوك الثقافي والوجداني والعملي لهذه الذات، فتتجاوز الفرد ووعيه بذاته، إلى ما ينتجه السلوك الجماعي أي العبر فردي، لأنه يؤثر في سلوك الفرد عن وعي أو بدون وعي، لذلك يقول غولدمان إن «قطاع الذات العبر فردية للحياة الإنسانية يشمل كل شيء، داخل سلوك الأفراد، اجتماعيا وتاريخيا، بشكل مباشر أو غير مباشر، وهذا يعني بالخصوص كل ما يتعلق بعمل الأفراد في العالم الطبيعي والاجتماعي (الغذاء، الحماية، تنظيم العلاقات بين- إنسانية، الثورات، الحروب، إلخ.. و، انطلاقا من هنا، يشمل هذا كل الحياة الثقافية، والمتعلقة بموضوعنا، وبكل إبداع أدبي صالح»².

ومن هنا يتبين لنا سعي غولدمان إلى إحداث هذا المنهج الذي يعد فرعا من فروع البنيوية، ليحاول التوفيق بين ما جاءت به البنيوية في صيغتها الشكلية وما جاد به الفكر الماركسي والجدلي الذي يركز على دمج الواقع الثقافي في العملية النقدية من خلال التفسير المادي، وذلك لأن البنيوية التكوينية «نشأت استجابة لسعي طائفة من أعلام الفكر الماركسي ونقاده، محاولة منهم للتوفيق بين أطروحات البنيوية الشكلية، ومبادئ الطرح الماركسي وغاياته، من أجل تحقيق هدفين في وقت واحد، يتمثل الهدف الأول في محاولة إنقاذ البنيوية الشكلية من انغلاقها على النص المدروس وحده، وينصب الهدف الثاني على محاولة إنقاذ المنهج الاجتماعي من إيديولوجيته التي كانت تنقد الأدب من وجهة نظرها فحسب»³، وفي هذا السياق تكون «البنيوية التكوينية» أو التوليدية Genetic structuralism قد نشأت استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين وعلى رأسهم لوسيان غولدمان L.Goldmann للتوفيق بين أطروحات

¹ Lucien Goldmann : science humaines et philosophie. *op. cit.*, p. 223. -

² Ibid, p. 124. -

³ - سامر فاضل الأسدي: البنيوية وما بعدها النشأة والتقبل، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، ط1، الأردن 2015، ص180.

البنيوية، في صيغتها الشكلانية، وأسس الفكر الماركسي الجدلي الذي يركز على التفسير المادي الواقعي للفكر والثقافة عموماً، وهو سعي لتجاوز مفهوم البنية المغلقة للنص، ومحاولة لربطه بسياقه الاجتماعي، من خلال تأكيد العلاقة بين خارج النص وداخله»¹.

ومن هنا قدّم المنهج البنيوي التكويني محاولة جادة في خلق الإطار الفاعل الذي يمزج بين الشكلية التي انتجتها البنيوية في النقد، وبين البعد الاجتماعي الذي كان يفرض منطقه على الدراسة، لأن النص الإبداعي لم ينشأ بعيداً عن المجموعة الاجتماعية التي ساهمت في إنتاجه، ولأن النص الإبداعي لم ينشأ في ذاته منعزلاً، بل جاء من خلال نسق معين للحياة ولسلوك الأفراد والجماعات، لذلك فدراسة البنيات من خلال المنهج البنيوي التكويني لا تكون داخل بنية مغلقة ساكنة، بقدر ما تكون لها وظيفة دياكرونية «الأمر الذي يعني ربطها الدائم بذاتٍ ووظيفةٍ دالة في التاريخ وليس خارجها»²، وعليه تكون البنية في البعد الغولدماني لها وظيفة ودلالة لا يمكن أن تتخلى عنهما، ولذلك هو لا يكفّ «عن تذكيرنا بأن علينا أن ندرك، أن لكل بنية دلالة، وأن هذه الدلالة نتاج ذاتٍ فاعلةٍ ومحققةٍ لوظيفةٍ، فإذا حذفنا الذات واستبعدنا الوظيفة دمرنا دلالة البنية، وحولناها إلى مجرد نسق جبّري مغلق»³.

ولقد أسهم في ظهور البنيوية التكوينية عدة روافد، منها الأدب الواقعي في روايات ستندال، حيث يعتبر «علامة بارزة في الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، قرن الثورة الصناعية والثقافة معا، خاصة في روايته "الأحمر والأسود"، و"دير بارم" وتأتي

¹ - عبد الله خضر حمد: مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، د ت، ص 164.

² - جابر عصفور: نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998، ص 142.

³ - المرجع نفسه، ص ص 141، 142.

أهمية أدب ستندال في التحليل النفسي والواقعي لشخصيات المجتمع»¹، بالإضافة إلى كل من الفرنسي بلزاك² وفلوبير، حيث يعتبر من مؤسسي المدرسة الواقعية في الأدب، وغيرهما، كما أسهم الأدب الطبيعي مثلما هو عند إميل زولا³، وأسهمت الفلسفات المادية بكل تنوعها منذ أرسطو إلى ماركس، وعلم الاجتماع الوضعي، وعلم الاجتماع الألماني (جورج زيمل، ماكس فيبر، وكارل مانهايم، ..)، ومدرسة فرانكفورت السوسيولوجية.

¹ - جابر عصفور: نظريات معاصرة، المرجع السابق، ص 317.

² - هو أونوريه دي بلزاك (Honoré de Belzak) (1799-1850) من أهم رواد الأدب الفرنسي في القرن

التاسع عشر. أنظر: المرجع نفسه، ص 298.

³ - إميل إدوارد شارل أنطوان زولا (Emile Edouard Charles Antoine Zola) (1840-1902)، روائي فرنسي ورائد المدرسة الطبيعية، ولد من أب إيطالي وأم فرنسية، يعتبر هو الذي صاغ اصطلاح "الطبيعية" كمنهج علمي بعيدا عن الواقعية، ومع هذا فإن زولا يعترف في تواضع علمي بأن المؤسس الحقيقي للمذهب الطبيعي هو الروائي الفرنسي جوستاف فلوبير الذي مهد الطريق أمامه بروايته "مدام بوفاري"، أنظر: نبيل راغب، المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1977، ص ص 123، 124

II- المرجعيات المعرفية للبنيوية التكوينية¹

1- البعد الفلسفي:

يسهم هذا البعد في بلورة المستوى الجدلي الذي تقف عليه البنيوية التكوينية بكل معالمها الهامة، هذا البعد الجدلي الذي يبنى على تصورات تناظرية بين ما هو واقعي وما هو إبداعي، حيث يمثل غولدمان هذا التناظر بين البنية الروائية بكل أبعادها الفنية والدلالية، والبنية الاجتماعية بكل ثوابتها وتحولاتها، ومنه فقد «كان غولدمان يناظر في الوقت ذاته بين بنيات ذلك الشكل الروائي، والبنيات التي تطورت بواسطتها الحياة الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي»²، ولذلك فإن هذا التناظر وهذا المستوى الجدلي يضعنا أمام الصورة الفعلية للمرجعية الإبستمولوجية لمفهوم البنيوية التكوينية «حيث وجدت مركزها الفكري في ظل الفلسفة الماركسية، بوصفها فلسفة مادية تؤكد العلاقة بين المستوى الثقافي والمستوى الاقتصادي في المجتمع، ويتجلى الأثر الماركسي في ثلاث نقاط: الضرورة الاقتصادية، والطبقات الاجتماعية والضمير الممكن»³، ومن ثم فإن هذه التناظر بين ما هو واقعي وما هو إبداعي يجعل من العمل الروائي الفني يقف على تحولات موازية، ودراساته المنهجية تماثل هذه التحولات، لذلك «رفضت البنيوية التكوينية عزل النص وإغلاقه على نفسه، ويؤكد لوسيان غولدمان على مبدأين أولهما هو تبين نوع العلاقة الموجودة بين الفكر والواقع، وثانيهما أن للفكر موقعه الطبقي في المجتمع، وهذا ما يجعل النص يحمل رؤية للعالم، يتوجه النقد في تحليله للكشف

¹ - لقد تناولنا في هذا البعد التقسيمات التي رسمها الدكتور محمد الأمين بحري من خلال كتابه "البنيوية التكوينية، من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية"، حيث قدم هذه المستويات لمعرفة المرجعيات الإبستمولوجية لمصطلح رؤية العالم، الذي يعتبر من المعالم الرئيسية للبنيوية التكوينية.

² - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 97.

³ - بشير تارويرت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي، دار الفجر للطباعة والنشر، ط1، الجزائر 2006، ص

عنها، وبذلك يصبح من مهمة الناقد البحث عن هذه العلاقة بين النص والواقع الاجتماعي، ثم تحديد الموقع الفكري الذي تنهض منه هذه العلاقة»¹، وبالتالي فالبعد الفلسفي تفسره جدلية التناظر بين بنية العمل الإبداعي -البنية الروائية- من جهة والبنية التي يتفاعل من خلالها المجتمع الرأسمالي -البنية الاجتماعية-. ويظهر هنا البعد العام للبنوية التكوينية التي قامت على استكشاف المجتمع من الداخل في بنياته الداخلية، ولم تبق عند حدود النص كبنية شكلانية، بل تجاوزت البنية الفلسفية حدود فريديتها بإدخالها ضمن بنية أكبر وأوسع من أجل فهم موازي لأسباب تكوينها.

2- البعد النقدي

إذا كان البعد الفلسفي مرجعية هامة يستند عليها حضور البنيوية التكوينية في مستواها المفاهيمي، فإن البعد النقدي هو الآخر لديه الخاصية نفسها حين تتجه رؤيتنا إلى قراءة العمل الإبداعي من خلال هذا البعد، وبالتالي فقد انتبه لوسيان غولدمان لما قدّمه أستاذه لوكاتش من أهمية لمصطلح المفارقة، حيث «يقدم لوسيان غولدمان مقوماً جديداً يدعم به الأساس النظري لمقولة رؤية العالم، وهو عنصر المفارقة L'ironie، وهي الهوية الجمالية التي استثمرها غولدمان لتصبح خادمة لمنهجه، بينما أغفلها أصحاب نظرية الانعكاس»²، وهذا ما يدفعنا إلى التدقيق بالمفارقة بين العمل الإبداعي الفني والواقع، بحيث لا «يتحوّل العمل الأدبي باعتباره مساحة تعبيرية عن رؤية العالم إلى تصريح مباشر عن مواقف سياسية أو أطروحات إيديولوجية مباشرة تسعى لتصحيح الوضع أو تنص بصورة صريحة على ما يجب أن يكون عليه»³، ومن هنا يتحوّل النص الأدبي إلى نص غير إبداعي، بل يكون نصاً تقريرياً أو صحفياً أو أي

¹ - بشير تارويرت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي، المرجع السابق، ص 43، 42.

² - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 104.

³ - المرجع نفسه، ص 105.

شيء آخر عدا أن يكون أدبا، باعتبار أن النص الإبداعي من خصوصياته العتبه الفنية التي تتوغل في مجمل تفاصيله، ذلك البعد الجمالي الذي يعطي للأدب أدبيته، ومن بعد ذلك يمكن الحديث عن موضوع هذا العمل وكيفية تناوله لأهدافه، على أنه من المفترض في هذا السياق أن يكون العمل الأدبي الإبداعي بعيدا كل البعد عن المباشرة التي قد تطرحها نوايا الكاتب أو إيديولوجيته إذا اتجهت نحو رواق ضيق، رغم أن الإيديولوجيا لها عمقها في العمل الإبداعي، كي لا يكون أيضا مجرد آراء فردية لا تنتمي لحقيقة الجماعة، ومن هنا نشير إلى أن كل «انتصار للنوايا الواعية سيكون مميتا للعمل الأدبي الذي تتوقف قيمته الإستراتيجية على المقياس الذي يعبر فيه»¹، ورغم ذلك لا يمكن أن يخلو العمل الأدبي من توجهات واعية يقف عليها الباحث كي يستجلي مكامن التأثيرات التي أنتجت تلك النوايا، بل يمكن أن لا تظهر بالمظهر المؤدلج إذا انسجمت في سياق الاستراتيجية ونفذت دون بهرجة في حقل العمل الأدبي دون أن تفرض منطقتها، بل تترك للقارئ أن يكتشف ما في الداخل دون تنبيهات، وبالتالي فإن «النوايا الواعية للكاتب وعن تفكيره فإن الأمر لا يتعلق مطلقا بإنكار كل ما قد تتطوي عليه من قيمة، بل يتحتم على المؤرخ أن يوليها عنايته وأن يرى في كل حالة خاصة ما يمكن أن تقدمه له من معونة لتسعفه على فهم العمل الأدبي، بدون أن يكون له حكم مسبق يوهمه بأنه يمتلك أداة ذات امتياز أو أداة لها صلاحية كونية..»²، وهذا ما يتيح قراءة العمل الأدبي بعيدا عن حياة الكاتب الشخصية، بل داخل النسق الاجتماعي والسياق التاريخي، باعتبار أن البنيوية التكوينية تصور علمي حول الحياة الإنسانية، لذلك فمسار العمل الأدبي يسير في فضاء ينسج من خلال ما يتضمنه من

¹ - لوسيان غولدمان: المادية الجدلية وتاريخ الأدب، ضمن كتاب "البنيوية التكوينية والنقد الأدبي"، ت: محمد برادة، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت 1985، ص 17.

² - المرجع نفسه، ص 18.

تنوع للطبقة الاجتماعية، ومنه فإن «سيرة الكاتب ليست عنصراً أساسياً لتفسير العمل الأدبي، كذلك فإن معرفة فكره ونواياه، ليست عنصراً جوهرياً في فهم ذلك العمل، وكلما كان العمل هاماً، كلما أمكنه أن يعيش ويفهم لذاته، وأن يشرح مباشرة بواسطة تحليل فكر مختلف الطبقات الاجتماعية»¹.

وبالتالي يتجلى البعد النقدي كمرجع فكري للبنيوية التكوينية من خلال العمل الإبداعي الذي لا يقف عند عتبات المباشرة، بل يتجاوز ذلك كي يتحقق فيه الشرط الإبداعي إلى مجال التخفي الفني الذي يزيد في النص الأدبي بهاء وعمقا ومعنى. وهنا يظهر الانسجام بين بنية النص الأدبية والبنية الدالة في العمل الأدبي.

3- البعد الهرمنيوطيقي

تتجه الهرمنيوطيقا باعتبارها عملية فهم وتأويل إلى تفعيل النص وإعادة اكتشافه، إنها تفتح عوالمه من الداخل وتقرأ ما وراء اللغة وما وراء المعنى، وبالعودة إلى جذور مفهومها اللغوي «تأتي كلمة هرمنيوطيقا من الفعل اليوناني Hermeneuein ويعني "يفسر"، والاسم Hermeneia ويعني "تفسير". ويبدو أن كليهما يتعلق لغويا بالآلهة "هرمس" Hermes رسول آلهة الأولمب الرشيق الخطو الذي كان بحكم وظيفته يتقن لغة الآلهة ويفهم ما يجول بخاطر هذه الكائنات الخالدة»².

وعلى غرار هذا السياق اللغوي، يأتي مصطلح الهرمنيوطيقا لينصب حول عملية تأويل النصوص، فتكون الهرمنيوطيقا هي «فنّ التأويل (Art d'interprétation)، تهتم بتأويل النصوص الدينية المقدسة ومختلف النصوص الأخرى التي تحتاج

¹ - لوسيان غولدمان: المادية الجدلية وتاريخ الأدب، المرجع السابق، ص 17.

² - عادل مصطفى: فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2007، ص 24.

تأويلا»¹، ومن ثم يرجع الفضل في بروز هذا المصطلح وعالمه النقدي الفريد إلى الانكباب على دراسة النصوص الدينية المقدسة بشكل نقدي يستجلي من خلال عمليات الفهم عوالم هذه اللغات العميقة التي توغلت في مدارك الإنسان قديما وحديثا، «ولم تبرز الهرمنيوطيقا كنظام فلسفي مستقل، يتجاوز في أغراضه ومراميه، نطاق التفسير الضيق للنصوص الدينية إلا في القرن التاسع عشر، ولقد كانت للمفكرين الألمان اليد الطولى في رفعها إلى مرتبة الحيز الفكري القائم بذاته، بل وفي تطويرها أيضا انطلاقا من التغيرات العميقة في إشكاليات الطرح الفلسفي التي شهدتها القرن العشرون»².

وتتجسد مفاهيم الهرمنيوطيقا في مجالها الفلسفي والإبداعي عند لوسيان غولدمان من خلال آليتي "الفهم، والتفسير"، في محاولة للدخول عميقا في مرامي العمل الأدبي ودلالاته، مما يعني أنه «على الناقد أو الدارس لهذا الفن، أن يعالجه فهما وتفسيرا ذاتيا وكاملا كي يتمكن بعد هذه الخطوة الضرورية من منحه دلالة هرمنيوطيقية داخل حدود المنهج التطبيقي الذي يتوسله»³، ومن هنا يؤكد غولمان على أنه و«على المستوى التفسيري، ما يهم في العمل الأدبي الهام، ليس حصرا ولكن ضرورة، هو أن يكون في عالم متماسك ومنظم، وهذه البنية ليست إبداعا فرديا لكنها إبداع جماعي لذات عبر - فردية متميزة»⁴، وبالتالي فذلك التماسك وتلك البنية على المستوى

¹ - Paul Faulquié : Dictionnaire de la langue philosophique ; avec la collaboration de Raymond, Saint-Jean. Presses Universitaire de France. 1^{er} edition, Paris 1962., p. 317.

² - أسعد قطان: الهرمنيوطيقا الحديثة وفهم النص، ضمن كتاب "التأويل والهرمنيوطيقا"، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط1، بيروت 2011، ص 45.

³ - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 128.

⁴ - Lucien Goldmann : science humaines et philosophie. *op. cit.*, p. 130.-

التفسيري وعلى مستوى الفهم هي ما يعطي للعمل الأدبي دلالاته، من خلال قراءة صحيحة قادرة على استجلاء مكامن التنوع.

وفي المقابل تتضح في العمل الأدبي بنيته على واقع اجتماعي يفسره النقد من خلال تجميع مختلف الرؤى داخل منعرجات المتن لنصل إلى رؤية للعالم تعبّر عن فلسفة تلك الجماعة في مختلف تحولاتها، «على أن النقد بالضرورة هو نقل مفاهيمي للعمل الأدبي، وهذا يعني أنه يوجد نقد صحيح يضع العمل الأدبي في علاقة مع رؤية للعالم مفسّرة في مفهوم معين، وهذا يعني، أنها وفق فلسفة معينة (مع العلم أن الناقد ليس مرغماً أبداً على قبول هذه الفلسفة)»¹.

¹ Lucien Goldmann : science humaines et philosophie. *op. cit.*, p. 129- 130. -

III- مفهوم البنيوية التكوينية ومبادئها الأساسية

1- مفهوم البنيوية التكوينية *Structuralisme génétique*1-1 مفهوم البنية *Structure*

للوصول إلى معرفة دقيقة بكل فضاءات البنيوية التكوينية ومفاهيمها القادرة على بلورة تصور جديد للعمل الأدبي، يتراءى الدخول إلى خصوصية مفهوم "البنية" لدى لوسيان غولدمان المؤسس الفعلي للمنهج البنيوي التكويني، وذلك من خلال تجسيد مفهوم التطابق بين البنية الإبداعية والبنية الاجتماعية الذي سعى له غولدمان مجتمعا في مصطلح الرؤية للعالم، هذا التطابق الذي ركز على تفعيل اتجاهين مختلفين تماما، وهما البنيوية في عالمها اللغوي المغلق، والتكوين في بعده المفتوح على المجتمع أو الفئة الاجتماعية، وهذا التوفيق بين هذين المسارين هو ما يَشْكُلُ على الباحث في عمليات تطبيق آليات المنهج البنيوي التكويني، لذلك فمحتوى البنية لدى لوسيان غولدمان هو اعتبارها بنية متحركة، «لا تفهم بحد ذاتها خارج حدود الزمان والمكان، وإنما من خلال تطورها وتحركها وتفاعلها وتناظرها داخل وضع محدد زمنيا ومكانيا، وهذه هي مقولة ماركسية واضحة، ويرى غولدمان أن الحجر الذي تفرضه البنيوية الشكلية على البنية، يفقدها إمكانية تحليلها وفهمها بشكل معمق ونكون في ذلك - إن جاز التشبيه - كأننا ندرس التفاحة مثلا دون أن نأخذ بعين الاعتبار الشجرة التي كونتها والمحيط المناخي والزراعي الذي عاشت فيه»¹، ومن هنا نجد غولدمان يعطي معادلة هامة لتصورنا للبنية في بعدها التكويني، بعيدا عن عزلها في ذاتها، بل يضع القيمة الجدلية للتناظر بين البنية من جهة وظروف تكوينها من جهة أخرى، هذه الطبيعة الجدلية والتاريخية هي محور تفاعل العمل الأدبي وتحولاته الدلالية، وعلى هذا الأساس تقف البنيوية التكوينية موقفها النقدي، ومن هنا فقد هدف البحث النقدي عندي

¹ - جمال شحيد: في البنيوية التكوينية، مجلة المعرفة، ع 225-226، ديسمبر، سورية، 1980، ص 28.

لوسيان غولدمان في مجال البنيوية التكوينية أساسا إلى «اعتبار الإنتاج الأدبي الإبداعي ليس فقط من صنع مبدعه ولكنه قبل أن يكون كذلك فمضمونه العميق موجود لدى فكر الجماعة التي ينتمي إليها المبدع أو يعبر عنها»¹.

وبالتالي نجد البنيوية التكوينية تبحث «في أربع بنيات للنص: البنية الداخلية للنص، والبنية الثقافية (أو الإيديولوجية)، والبنية الاجتماعية، ثم البنية التاريخية، وهذه البنيات متكاملة ومتفاعلة فيما بينها، فإذا كانت القراءة الداخلية للنص تقدم خطوة نحو فهم القوانين المتحركة في البنية الداخلية، فإن هذا الفهم بحاجة إلى تفسير. وهذا ما ينبغي التماسه في البنية التالية: الثقافية. غير أن هذا التفسير يظل مجردا، إذ يتحول إلى فهم، فيصبح بدوره بحاجة إلى تفسير، مما يستدعي مقارنة البنية الثالثة (الاجتماعية)، وهكذا»².

1-2 مفهوم "التكوين genèse" عند غولدمان

تتجه البنيوية التكوينية من خلال تمازجها بين البنية والتكوين إلى الكشف عن رؤية للعالم، حيث يرى «غولدمان أن النص الأدبي يستمد معناه و(بنيته الدلالية) من (رؤية العالم) التي تعبر عنها، وإنما لا نستطيع أن نفهم (البنية الدلالية) إلا إذا ربطناها ببنى أوسع: كالبنى الذهنية، ورؤى الطبقات الاجتماعية للعالم، والبنية الاجتماعية الاقتصادية التي تفرزها حقبة تاريخية معينة»³، ومن هنا تأتي أهمية التكوين لدى غولدمان فهو «يركز على الكيفية التي تتولد بها هذه الأبنية العقلية على المستوى التاريخي، أي يركز على العلاقة بين رؤية العالم والأوضاع التاريخية التي تولدها»⁴، وبين البنية وكيفية الكشف عنها يمكن أن نستشفها من البعد الذي يتوسله هذا المنهج،

¹ - حميد لحميداني: الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دار الثقافة، ط1، المغرب 1985، ص 13.

² - محمد عزام: فضاء النص الروائي، المرجع السابق، ص 42.

³ - المرجع نفسه، ص 45.

⁴ - المرجع نفسه، ص 44.

فإذا «كانت الفرويدية تعتمد على تحليل اللاوعي عند الفرد، فإن البنيوية التكوينية ترتكز إلى الجماعة أو الطبقة، والقاسم المشترك بينهما هو أن السلوك الفردي والجماعي هو جزء من (بنية ذات دلالة)»¹، على أنه يجب التمييز جيدا بين التكوين (التوليد) والنشأة، فيجب «التنويه بأن التكوين أو التوليد هنا لا يتضمن أي بُعد زمني يعيد الشيء المدروس إلى تاريخ ولادته ونشأته. فالبعد الزمني في هذا الشأن ثانوي جدا، ولا يخفي غولدمان عدم ارتياحه لكلمة "بنية" لخشيته من الثبات والسكون الذين يمكن إضفاؤهما عليها»².

1-3 البنيوية التكوينية Structuralisme génétique، المنهج والدلالة

تعتبر البنيوية التكوينية عند غولدمان منهجا علميا يهدف إلى تجاوز بعض حدود البنيوية، بحيث يسعى للوصول إلى تحقيق وحدة بين الشكل والمضمون، فقد استفاد هذا المنهج من مجموع البحوث الفلسفية والنفسية وعلم الجمال وعلم الاجتماع والتاريخ، وهو ما أشار إليه لوسيان غولدمان في عدة مباحث، ومن ثم فالبنيوية الكوينية تنطلق من «الفرضية القائلة بأن كل حالة من حالات السلوك الإنساني هي محاولة الاستجابة الدالة لموقف معين وبالتالي فإنها (الحالة السلوكية) تميل نحو خلق نوع من التوازن بين الذات الفاعلة والموضوع الذي تلقى الفعل»³، ومنه نستكشف مدى الترابط بين تلك الجدلية في وجود وقائع وشخصيات غير مستقرة، تقف دائما عند متضادين متتاميين، «وهكذا فالواقع البشري يبرر نفسه من خلال عمليات ذات

¹ - محمد عزام: فضاء النص الروائي، المرجع السابق، ص 45.

² - جمال شحيد: في البنيوية التكوينية، المرجع السابق، ص 29.

³ - لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية وتاريخ الأدب، ت: علي الشرع، مجلة الآداب الأجنبية، ع 51-52، سوريا يوليو 1987، ص ص 304، 305.

اتجاهين متضادين: هدم البنى القديمة وإنشاء بنى كلية جديدة قادرة على خلق توازنات يمكن أن ترضي مستجدات الجماعة البشرية التي أنتجتها»¹.

ويمكن استخلاص البعد التفاعلي بين المبدع والنص والجماعة في البنيوية التكوينية حين أشار غولدمان إلى أنها مثلت «حول هذه النقطة تغييرا كاملا في الاتجاه، باعتبار أن فرضيتها الأصولية هي على وجه الدقة أن الطابع الجماعي للإبداع الأدبي آت من أن بنى عالم المبدع متجانسة مع البنى العقلية لبعض الجماعات الاجتماعية أو هي على علاقة واضحة معها، في حين يملك الكاتب على مستوى المضامين، أي على مستوى إبداع عوالم خيالية تحركها هذه البنى، حرية كاملة»²، ومن ثم، فإذا كانت البنيوية التكوينية تتشكل من بعدين هامين يجعلان النص الأدبي في تحليله لا ينغلق على نفسه كما هو في البنيوية الشكلية أو يفتح إلى درجة استبعاد البنية كما هو في الاتجاه السياقي، فإن المنهج البنيوي التكويني وبعيدا عن التفسيرات الفردية، هناك من يراه أنه «حلا وسطا بين المناهج النقدية السياقية التي تفسر النص استنادا على خارج النص، والمنهج البنيوي الذي يعلق النص على نفسه»³، ومن ثم يمكن أن نتبع منهج البنيوية التكوينية من خلال ما يلي⁴:

1- دراسة ما هو جوهرى في النص، وذلك عن طريق عزل بعض العناصر (الجزئية) من السياق، وجعلها كليات مستقلة.

1 - لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية وتاريخ الأدب، المرجع السابق، ص 305.

2 - لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسولوجيا الرواية، المرجع السابق، ص 233، 234.

3 - صالح سليمان عبد العظيم: سوسولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر 1998، ص 53.

4 - محمد عزام: فضاء النص الروائي، المرجع السابق، ص 47.

2- إدخال (العناصر) الجزئية في (الكل)، علما بأننا لا نستطيع الوصول إلى كلية لا تكون هي نفسها عنصرا أو جزءا، فجزئيات العالم مرتبطة ببعضها البعض، ومتداخلة بحيث يبدو من المستحيل معرفة واحدة منها دون معرفة الأخرى، أو دون معرفة الكل.

3- دمج العمل الأدبي في (الحياة الشخصية لمبدعه).

4- إلقاء الضوء على (خلفية النص) الاجتماعية، وذلك بدراسة مفهوم (العالم) عند الجماعة التي ينتمي إليها الكاتب، والتساؤل عن الأسباب الاجتماعية والفردية التي أدت إلى هذه الرؤية كظاهرة فكرية عبّر عنها العمل الأدبي في زمان ومكان محددين، وهذه الرؤية هي ظاهرة من ظواهر الوعي الجمالي الذي يبلغ ذروة وضوحه في نتاج المبدع.

وعليه تكون البنيوية التكوينية «مقاربة سوسولوجية وظيفية، تهدف إلى دراسة الظواهر الأدبية والفنية والثقافية فهما وتفسيرا، بغية رصد رؤى العالم، من خلال عقد تماثل ضمني بين الأدب والمجتمع، مع استقراء الأوضاع الجدلية التي تحكمت في توليد البنية النصية الداخلية»¹، وهي في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة «منهج يستهدف تفسير كل إنتاج إنساني، في اعتماد على تحليل البنيات، وهي تتوخى بلوغ الجماعات الاجتماعية، لفعاليتها الحقيقية، في الابداع والنقد الأدبيين»².

وعلى هذا الأساس «فالفرق بين المنهج البنيوي التكويني والمناهج التقليدية، يتجلى في النقاط التالية:

- عدم إيلاء أهمية خاصة في فهم العمل الأدبي للنيات الواعية للأفراد، وللنّيات الواعية للمبدعين، لأن الوعي لا يشكل سوى عنصرا جزئيا للسلوك البشري،

¹ - جميل الحمداوي: البنيوية التكوينية، صحيفة المثقف، مؤسسة المثقف العربي، ع 4106، نشر بتاريخ 02-

2017-12، تم الاطلاع عليه بتاريخ 02-12-2012.

² - سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت 1985، ص ص

233، 234.

فعلى علم اجتماع الأدب أن يعامل النوايا الواعية للكاتب على أنها مجرد علامة من بين علامات عديدة، وعلى أنها نوع من التأمل في العمل الأدبي. وعليه أن يصدر حُكمه على ضوء النص دون أن يعطيه أدنى امتياز.

- عدم المبالغة في أهمية الفرد حين القيام بالتفسير الذي هو بحث عن الذات الفردية أو الجماعية التي اتخذت البنية الذهنية المنتظمة للعمل الأدبي بفضلها طابعا وظيفيا ذا دلالة، فالعمل الأدبي يكاد يمتلك وظيفة فردية ذات دلالة بالنسبة لكاتبه، إلا أن هذه الوظيفة الفردية غالبا ما تكون غير مرتبطة بالبنية الذهنية التي تنظم الطابع الأدبي الخالص للعمل»¹.

¹ - محمد عزام: فضاء النص الروائي، المرجع السابق، ص 231.

2- الأدوات الإجرائية للبنيوية التكوينية

لكي يتجسد لنا مفهوم البنيوية التكوينية ومنهجها العلمي، يتوجب علينا الدخول إلى مقولاتها والمبادئ الأساسية التي تستند عليها في تأطير نظرتها داخل فضاء التحليل العلمي للعمل الأدبي، وقد تعددت البحوث والدراسات النقدية التي تأخذ من مقالات وبحوث غولدمان التي قدمها في هذا الشأن، حيث هناك من ركز على ثلاث مبادئ، أو خمسة مبادئ، أو عشرة مبادئ¹، وهناك من أضاف أكثر من ذلك أو أقل، لكن الأغلب من الدراسات لم تتجاوز المحاور الرئيسية لهذه المبادئ²: البنية الدالة،

¹ - « structure catégorielle significative ou encore : structure mental dynamique relativement équilibrée : (Marxisme et science humaine, p. 233) ;

- totalité¹ ;

- identité partielle du sujet et de l'objet ;

- vision du monde ;

- conscience possible ;

- sujet transindividuel ;

- réification ;

- homologie des structure ;

- forme ;

- compréhension ; - explication ; ». Voir : Sami Naïr : Forme et sujet dans la création culturelle. in « le structuralisme génétique ». Edition Denoel/Gonthier, Paris, 1977, p.

41

² - آثرنا أن نقدم ترتيبا معنا لهذه المبادئ حسب تدافعها المعرفي، فليس من المنهجي أن نتحدث عن رؤية العالم في البداية دون أن نعرف درجات الوعي أو مفهوم البنية، كما أنه ليس من الواجب البحثي والمنهجي أن نتحدث عن الفهم والتفسير دون أن نعي البنية الدالة منتبهين لعلاقة البنية الصغرى مع البنية الأوسع والأشمل، وكل تلك الترتيبات المعرفية بانسيابها تصل جميعا إلى فهمنا لرؤية العالم في العمل الأدبي، خلافا لما قامت عليه بعض الدراسات حيث لم تهتم بهذا الترتيب، كأن تقف عند الرؤية للعالم أو الوعي القائم والممكن ثم يأتي إلى البنية الدالية أو الفهم والتفسير.

الفهم والتفسير، الوعي القائم (الفعلي) والوعي الممكن، الذات العبر فردية، التماسك والانسجام، التماثل، النزعة الشمولية، الرؤية للعالم¹.

كما أن هناك من قدّم بعض المقولات لكنه لم يدرجها ضمن الأدوات الإجرائية، فالدكتور جمال شحيد يضيف مقولة "الوعي الجماعي"، ويوظف مبدأ "التوازن"، ضمن مفهوم البنية معتبرا أن البنية «تقيم توازنا بين الفاعل وفعله أو بين الأشخاص والأشياء»²، وهذا ما جاء في مقال عباس محمد رضا البياتي وإيناس كاظم شنباره الجبوري³، حيث نجد أن "التوازن" من أهم المبادئ التي قامت عليها البنيوية، و«لا يتحقق إلا في ضوء العلاقة المتبادلة بين الذات الفاعلة والموضوع المفعول، وهذا أهم ما يميز البنيوية التكوينية من حيث تشديدها على الذات وليس الموضوع فقط، فعلى مستوى الأدب لا ينظر إلى النص بمعزل عن المؤلف، بل ينظر إلى النص بوصفه بنية»⁴.

2-1 البنية الدالة Structure significative

ترتكز البنية الدالية على البعد الشمولي للبنية الواسعة التي تشكل العمل الأدبي وتشكل أيضا الوعي الجماعي للفئة الاجتماعية، حيث أن «هذه البنية تنطلق من التصور الجمعي والشمولي لمفهوم الرؤية، بداية من تضايف البعدين الفردي والجماعي،

¹ - رأينا أن غولدمان يضع تناغما معينا بين المقولات الفلسفية الكبرى في البنيوية التكوينية، وبين الأدوات الإجرائية التي تعمل على تحليل النص الأدبي، فالمقولات هي البعد الفلسفي للأداة الإجرائية، مثل مقولة "الذات العبر فردية"، أو "الشمولية"، "هوية الذات والموضوع"، لتبقى بعد ذلك "البنية الدالة، والفهم والتفسير، والوعي الفعلي والقائم"، التماثل، التماسك والانسجام" وغيرهم أدوات إجرائية يستخلص من خلالها الباحث "الرؤية للعالم" من خلال العمل محل الدراسة، وذلك بعد استنطاقه لمكونات المقولات الفلسفية وفهمها فهما جيدا.

² - جمال شحيد: في البنيوية التكوينية، المرجع السابق، ص 30.

³ - باحثان أكاديميان.

⁴ - عباس محمد رضا البياتي، إيناس كاظم شنباره الجبوري: عتبات البنيوية التكوينية ونقاط انطلاقها، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، ع 25، جامعة بابل، شباط 2016، ص 468.

حيث تتحدد الجماعة باعتبارها مجموعة أفراد تجاوزوا فرديتهم، وعبارة "تجاوزوا فرديتهم" تعني تنازلهم عن فرديتهم لصالح الجماعة»¹، فتغيرات المواقف الفردية مرهون بفضاء الفئة الاجتماعية، وما يؤثر في الفرد يسير وفق الرؤية الجماعية، وهو ما ينطبق على الكاتب المبدع الذي يتأثر في سياق ونسق المجموعة ويعيد ابتكار رؤاه في عمله الأدبي، متجاوزا سطحية الكتابة المباشرة ومتوغلا في خصوصيات اللامباشرة التي تعطي للعمل جماليته.

وعلى هذا الأساس تكون البنية الدالة شاملة ومتوغلة في أجزاء العمل الأدبي، تعمل على وضع تلك الأجزاء في البعد الكلي، ذلك لأنه «قبل الشروع في أي تحليل يشترط غولدمان على الدارس وفق المنهج أن يستخرج من النص موضوع الدراسة - عبر قراءة كاشفة- بنية دلالية ما يجد لها امتدادا في كامل النص فتكون المقصودة بالتحليل والتفكيك والبناء»²، وهي البنية التي تشكل عمق الدلالة الفكرية داخل النص وترتبط كل أجزائه، باعتبار أن البنيوية التكوينية «هي منهجية تحاول البحث عن العلاقات الرابطة بين الأثر الأدبي وسياقه الاجتماعي -الاقتصادي الذي سبق تكوينه. ولا ينظر إلى هذه العلاقات على أنها مجرد تساوق أو توازٍ بسيط بين بنية الأثر الأدبي وبين شروط إنتاجه، الاجتماعية والاقتصادية، وإنما يعتبرها اندماجا تدريجيا بين سلسلة من الجمل أو الكليات Totalities النسبية»³، ومنه نستنتج أن البنية الدلالية تقف على بعدين هامين، البعد الشمولي الذي يربط كامل الأجزاء في بنية دالة، والبعد الذي يحتوي على انسجام تلك البنى الصغرى فيما بينها كي تحقق دلالتها في البنية الشمولية، «ومن هنا تتركز مهمة الناقد في رأي جولدمان حول اكتشاف هذا التناظر

¹ - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 146.

² - المرجع نفسه، ص 147.

³ - محمد نديم خشفة: تأصيل النص - المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان -، مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر، ط1، سوريا 1997، ص ص 09، 10.

القائم بين البنيات الأدبية المدروسة والبنيات الذهنية التي تسود في المجموعة التي ينتمي إليها الأديب عن طريق رؤية العالم المهيمنة في العمل الأدبي وتقييمها من حيث العمق والسطحية»¹، ولعل البنية الدلالية تحوز مرتبتها المتقدمة باعتبارها المنطلق الفعلي لبناء خارطة الفعل النقدي البنيوي التكويني، باعتبارها تحيل على القراءة الشمولية التي تصل عبر التماسك والانسجام إلى البنى الذهنية السائدة في الفئة الاجتماعية، مما يسهل بعدها استنتاج مكامن الأدوات الإجرائية الأخرى للوصول إلى مجموع التصورات والقضايا التي تتبناها الفئة الاجتماعية.

2-2 الفهم والتفسير La compréhension et l'explication

1-2-2 الفهم La compréhension

تتجه عملية الفهم إلى «توضيح "البنية الدلالية" البسيطة نسبياً والمحايثة للأثر الأدبي»² وذلك «انطلاقاً من البنية الأكثر بساطة للنص، أو كل جزء أو أقل من ذلك بما فيه الكفاية من هذا النص بحيث يصعب تخيل فرضيتين مختلفتين لهما الدرجة نفسها من البساطة والفاعلية، ونطلق على هذه العملية تأويلاً أو فهماً ونؤكد أنها يجب أن تخضع إلى قاعدة أساسية تأخذ في الاعتبار كل النص دون أن يضاف له أي شيء»³، لأن أي إضافة ستفسد عملية الفهم أو التأويل وتأخذ المعنى خارج إطاره المقصود بالدقة، «وهذا التشدد في الأخذ بحرفية النص ربما كان ردة فعل على أولئك الذين كانوا يدرسون الأعمال لاستخراج مضمونها ومقارنته بالواقع، وهو ما جاء غولدمان لتغييره فهو لا يبحث عن الواقع من خلال النصوص لتصنيفها وإنما يهتم بالخصوصيات الأدبية أولاً ثم بعد ذلك يأتي إلى المرحلة الثانية»⁴.

1 - أحمد سالم ولد اباه: البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث، المرجع السابق، ص 50.

2 - محمد نديم خشفة: المرجع السابق، ص 10.

3 - Lucien Goldmann : science humaines et philosophie. *op. cit.*, p. 127 -

4 - أحمد سالم ولد اباه: البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث، المرجع السابق، ص 60، 61.

ومن هنا يقف البحث على أرضية الخصوصية الأدبية للنص، بالكشف على البنيات الأكثر بساطة وفهما من خلال ما تجود به هي ذاتها ما بين اللغة والمعنى، دون الخروج إلى المراحل اللاحقة، وبالتالي يمكن رصد النسق الأول الذي ينبنى عليه النص ومن ثم وضع ذلك النسق في المرحلة الموالية التي تعنى بتفسيره، فمن «مخاطر البحث في هذه المرحلة الأولية اكتشاف عدد من البنيات الدلالية في الأثر الأدبي الواحد تدل دلالة جزئية. ومهمة الباحث الانتباه إلى البنية القادرة على إقامة علاقة شاملة وقريبة من الشمول بينها وبين الأثر الأدبي»¹. ومن هنا يتكشف لنا البعد المتوخى في عملية الفهم بحيث يستلزم الأخذ بحدود النص بتتبع البنيات الصغرى حتى يتسنى العمل عليها ووضعها في بنية أكبر فيما بعد.

2-2-2 التفسير L'explication

إذا كان الفهم ينصب حول اكتشاف البنيات البسيطة داخل النص، فإن التفسير يهدف إلى «معرفة البعد الاجتماعي لهذه البنيات اللغوية المدروسة أدبيا، فيحاول الناقد دمج هذه البنيات في بنية أكبر هي السياق الذي شهد ظهور النص، والبنية الكبرى المناظرة للبنية الأدبية هي مجموع التصورات التي تتبناها مجموعة ما حول القضايا المطروحة عليها»².

على أن الفهم والتفسير مرتبطان تماما دون أن ينغزلا عن بعضهما البعض، وبذلك يظهر أن هذين المبدئين متلازمان، بحيث لا يجب أن نبقى معتقدين أن الفهم بعيد عن واقعه ويكون التفسير خارجا عنه، بل نجد هنالك ذلك الرباط الذي يضع مفاتيح تصل بالنص إلى واقعه، ومن هنا «يبقى الفهم هو عملية مقارنة للدلالة داخل بنية الوحدات النصية في صورتها الصغرى، وأما التفسير فهو البحث عن الدلالة خارج هذه البنية

¹ - محمد نديم خشفة: تأصيل النص - المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان -، المرجع السابق، ص 10.

² - أحمد سالم ولد اباه: البنيوية التركيبية والنقد العربي الحديث، المرجع السابق، ص ص 60، 61.

الصغرى أو خارج الموجود النصي، وبهذا التصور الفهم والتفسير يؤديان وظيفة تكاملية¹، لذلك كان الفهم خطوة أولى تستند عليها مرحلة التفسير التي تضع البنيات الوظيفية في بنية شاملة يتبصرها الباحث ويستنتق مكنوناتها بقدر الحاجة التي تعطي للعمل المدروس فهما ووضوحا دقيقين، وهذا ما أشار إليه غولدمان في فهم خواطر باسكال ومآسي راسين هو ما يقابل الرؤية المأساوية التي تعد البنية الدالة لتلك الأعمال.

3-2 الذات العبر-فردية *Sujet-transindividuel*

لقد خصص لوسيان غولدمان لمفهوم الذات العبر-فردية أهمية كبيرة في فضاء استكشاف النص عن طريق البنيوية التكوينية، حيث تعتبر مقولة "الذات العبر-فردية" النقطة الأساسية التي فتحت نوافذ البنيوية على المجتمع، ليس كأفراد يشكلون جماعة، بل في خصوصية هؤلاء الأفراد داخل نسقهم الاجتماعي الجماعي، وقد أكد على هذا المفهوم في مواقع متعددة، وأشار إلى أن أهم اكتشاف للبنيوية التكوينية، بل الاكتشاف الأساسي لها هو «محتوى الذات العبر-فردية² (أو الجماعية)، والصفات البانية لكل سلوك ثقافي، عاطفي أو عملي لهذا المحتوى³»، وهذا يعني أن بنية الفئات الاجتماعية تتدخل في بنية السلوك الثقافي والوجداني والعملي لهذه الذات، فتتجاوز الفرد ووعيه بذاته، إلى ما ينتجه السلوك الجماعي أي العبر فردي، لأنه يؤثر في سلوك الفرد عن وعي أو بدون وعي، لذلك يقول غولدمان إن «قطاع الذات العبر فردية للحياة الإنسانية يشمل كل شيء، داخل سلوك الأفراد، اجتماعيا وتاريخيا، بشكل مباشر أو غير مباشر، وهذا يعني بالخصوص كل ما يتعلق بعمل الأفراد في العالم الطبيعي

¹ - بشير تاويريت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي، المرجع السابق، ص 48.

² - مصطلح (*transindividuel*) ترجمه الدكتور يوسف الأنطكي في ترجمته لكتاب لوسيان غولدمان "العلوم الإنسانية والفلسفة" وبمراجعة الدكتور محمد برادة إلى (الذات الفوق فردية)، ونقترح ترجمة (الذات العبر فردية)،

³ - Lucien Goldmann : science humaines et philosophie. *op. cit.* , p. 123.

والاجتماعي (الغذاء، الحماية، تنظيم العلاقات البين- إنسانية، الثورات، الحروب، إلخ..، وانطلاقاً من هنا، يشمل هذا كل الحياة الثقافية، والمتعلقة بموضوعنا، وبكل إبداع أدبي صالح»¹، وعليه يميّز غولدمان بين ثلاث مستويات من الوعي داخل أبعاد الذات العبر- فردية²:

أ- لا وعي الذات الفردية **L'inconscient à sujet individuel** : (الليبيدو) يتشكل من الرغبات والتطلعات التي لا تستطيع الحياة الاجتماعية تحملها والتي يجب أن تكون مكبوتة. لقد أظهر "فرويد" وأتباعه الكثير من السلوكيات (أحلام، هفوات، هذيانات) تبدو دالة بشكل صارم إذا أدخلناها في كلية بيوغرافية وتكوينية تحتضن اللاوعي المكبوت³.

ب- الوعي الفردي⁴ **La conscience individuel** : ويشكل قطاعاً أكثر أو أقل أهمية، لكنه قطاع يختص فقط بالسلوك وبدلالاته الموضوعية.

ج- ضد الوعي **Le non conscient**: ويتشكل من البنيات الثقافية، الوجدانية، التخيلية والعملية لوعي الأفراد¹. ف ضد الوعي هو إبداع للذوات العبر فردية و لها على

¹ - Lucien Goldmann : science humaines et philosophie. *op. cit.* , p. 124 .

² - Ibid., p. 124 .

³ - بالإضافة إلى انفتاح البنيوية التكوينية على التاريخي والاجتماعي، يجسد غولدمان عبر ما وصل إليه فرويد في خصوصية بحثه حول الذات الإنسانية معالم تلك الذات على المجتمع أو الجماعة، فهو يحقق النظرية النفسية على رغبات وتطلعات الجماعة بشكل كلي شامل من خلال دراسة الوعي الجماعي لتلك الفئات. أي ما تبطن في الداخل من رغبات وآمال وماضي مشترك يجعل من تلك الفئة تتجه بشكل كلي نحو ردود أفعال معينة، وتكتسب تكاملاً لا تؤثر فيه بعض المكتسبات الخارجة عنه.

⁴ - يحقق الوعي الفردي لدى غولدمان الاتجاه الموضوعي للذات العبر فردية، فهو الوعي الذي يميز الأفراد عن بعضهم البعض من خلال الخصوصيات المتميزة التي لا تخرج عن فضاء الجماعة، لأنه الوعي الذي يحقق التوازن بين الأفراد في مختلف تطلعاتهم ومفارقاتها وتحولاتها، لكنه يبقى داخل السياق العام لحركة الفئة الاجتماعية.

المستوى النفسي وضعٌ مماثل للبنيات العصبية أو العضلية على المستوى الفيزيولوجي. ويختلف عن اللاوعي الفرويدي في المساحة التي نجده فيها أنه غير مكبوت، ولا يحتاج للتغلب على أي مقاومة لكي يصبح واعياً، لكن فقط يسلط الضوء عليه من خلال التحليل العلمي.

وعلى هذا الأساس يقدم غولدمان هذا البعد في كونه من خصوصيات البنيوية التكوينية التي تعتبر البنية ليست جزءاً مستقلاً عن الذات الإنسانية «بل هي صفة خاصة لسلوك الذات (الفردية- الليبيدو- العبر فردية) باعتبارها فعّالة ومبدعة»²، وذلك لأنها تقف على تطوير سلوكياتها لتتجاوز العراقيل التي تواجهها من جهة، وترتبط بتحويلات أكثر فاعلية نحو تجسيد طموحاتها، «فكل مجموعة اجتماعية تُشكّل ذاتاً عبر فردية تميل إلى حلّ عدد أكبر أو أصغر من المشكلات، ويعني ذلك تحويل الواقع إلى واقع أكثر ملائمة لتطلعاتها واحتياجاتها، على أن يكون مفهوماً أن كل فرد هو جزء من بعض المجموعات الاجتماعية، وهذا يعني أنه جزء من بعض الذوات العبر فردية»³.

4-2 مستويات الوعي

لقد حقق غولدمان من خلال تحوّل البنيوية الشكلية في بعدها المغلق إلى البنيوية التكوينية في بُعدٍ يفتح على التاريخ والمجتمع ذلك المستوى الإنساني الذي يبحث في كينونة الإنسان ومحاولات فهم عوالمه المتعددة، وعلى هذا الأساس شكّلت البنيوية التكوينية في مستواها المعرفي دراسة علمية للحياة الإنسانية، تبحث في تلك الخصوصية التي تربط العمل الإبداعي بواقعه، ليس كمنتج فردي فقط، بل في بعده

¹ - ضد الوعي هو الذي يحقق للفئة الاجتماعية تفرداً معيناً من خلال بنياتها الثقافية التي تعطي نبضات نحو الاختلاف من خلال تجسيد وعي بشكل يختلف عن وعي الجماعة المتداول والمتواصل، لذلك فهو ضد الوعي القائم، مما يظهر لدينا أنه هو الوعي الممكن، لأنه لا ينبجس إلا من خلال التحليل العلمي.

² - Lucien Goldmann : science humaines et philosophie. *op. cit.*, p. 126.

³ - *ibid.*, p. 128

الجماعي المؤثر والمتأثر، وفي كينونة هذا الإبداع وقراءاته للواقع والإنسان والأحداث وكل التحولات التي تتجسد داخله، في ذلك العالم الحرفي المليء بالكلمات والمعاني، بحيث لم يقف عند وعي منعزل يرى العالم بلون واحد، ذلك أن «البنى الذهنية ذات بعد جماعي، ولا تمت بصلة إلى تصور الفنان ونواياه الواعية أو غير الواعية أو إيديولوجية أو فردية، بل ترتبط بما يراه ويحسه ويعايشه، فيكون عندئذ جزءاً من كل، ويجب ألا نفهم هذه العلاقة بين الجماعي والفردى كأنها علاقة وعي ولاوعي كما في علم النفس، إذ تشبه برأى غولدمان العلاقة القائمة بين العضلات والحركات، أو بين العين والرؤية»¹.

وعلى هذا الأساس يرى غولدمان أن تحديد مفهوم الوعي من بين أصعب الأمور ضبطاً وتدقيقاً، لأن استعماله في حقول النقد الأدبي يقتضي ممارسة خاصة، ومعتبراً أن موضوع الوعي «من بين الكلمات الأساسية المستعصية على التحديد الدقيق، إذ أن لها موضوعاً لا نعرف إلا القليل من امتداده وبنيتها، وهو موضوع لا يستطيع علماء الاجتماع والنفس الاستغناء عنه، فيستعملون كلمة الوعي بدون خشية الوقوع في سوء تفاهات كبيرة وخطيرة»²، إلا أن غولدمان ينطلق من بُعدٍ أساسي في معرفة مجال الوعي، معتبراً أن «معرفة كائن ما عن نفسه ليست علماً لكنها عملية وعي»³، وعليه «يجد غولدمان السبيل لتدقيق مفهوم الوعي حينما يتناوله كمفهوم عام يقف وراء كل سلوك بشري، وكل ما يقوم به الإنسان من أعمال، فيقول مبدئياً بأن الوعي مظهر معين لكل سلوك بشري ويتبع بطبيعته كل عمل»⁴. وعليه يتجسد هذا المفهوم من خلال عملية تفاعل بين السلوك البشري وما يتجلى أمامه من أعمال، أي أن هناك

¹ - جمال شحيد: في البنيوية التكوينية، المرجع السابق، ص 20، 21.

² - لوسيان غولدمان: الوعي القائم والوعي الممكن، المرجع السابق، ص 33.

³ - Lucien Goldmann : science humaines et philosophie, *op. cit.*, p. 36

⁴ - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 157.

علاقة بين السلوك والعمل، بين الذات والموضوع، ولقد قدّم غولدمان هذا التعريف كاستضاءّة منهجية كي يحقق شيئاً من الدخول إلى التفاصيل التي يتطلبها البحث في المفهوم البنيوي التكويني، مؤكداً أنه مع ذلك توجّب تقديم هذا التعريف، ومقراً أنه إن لم يكن هو التعريف الدقيق والعلمي المؤكد إلا أنه على الأقل تعريفٌ مؤقتٌ يستجلي بعض عوالم هذا الأفق المعرفي، وعليه فقد اقترح هذا التعريف منتبهاً لخصوصية «ميزة مزدوجة في توضيح الصلة الوثيقة القائمة بين الوعي والحياة الاجتماعية كما أنه يضيء في الوقت نفسه بعض المعضلات المنهجية»¹.

ومنه فقد احتوى مفهوم البنيوية التكوينية في صيغته النقدية الأدبية مستويين هامين²، وهما الوعي القائم، والوعي الممكن:

2-4-1 الوعي القائم *La conscience réelle*

يمكن أن تتحدد ترجمة هذا المصطلح إلى عدة مصطلحات أخرى تحاول أن تستقطب دلالاته، كالوعي الفعلي والوعي الواقع، إلا أن مضامين هذه المصطلحات تكاد تكون متطابقة، فمفهوم الوعي القائم يتجه إلى إبراز وقائع ما تجسد لدى طبقة معينة من تصورات تراكمت عبر مراحل متعددة، وما يواجهها من المشكلات التي تتفاعل في علاقاتٍ تمثل رؤية للعالم قارةً ومتماسكةً، تُعبّر عن تلك الطبقة في مختلف المجالات التي تشكل ذلك المجتمع، «فكل شكل بشري من أشكال تقسيم العمل يفترض حداً أدنى من التخطيط، كما يفترض ضمناً، إمكان تحديد الكائنات والأشياء على المستوى

¹ - لوسيان غولدمان: الوعي القائم والوعي الممكن، المرجع السابق، ص 33.

² - تشير بعض الدراسات إلى مستويات أخرى، كما هو الحال عند محمد الأمين بحري، حيث يضيف مستوى آخر وهو الوعي المتوافق في كتابه "البنيوية التكوينية"، ولكن غولدمان نفسه قد ركّز على مستويين بصورة خاصة هما الوعي القائم والوعي الممكن، فقد أفرد لهما في عدة مقالات خصوصية معينة، كما عالج الوعي الممكن منفرداً في كتابه "العلوم الإنسانية والفلسفة" متضمناً في تفاصيله ملامح هامة من الوعي القائم.

النظري، من أجل الاتفاق حول التعامل اللازم انتهاجه معها»¹، ذلك المستوى النظري الذي يكون متفاوتا بين فئة وأخرى بشكل أو بآخر، فكل واقعة لها وعي معين، تستند في فرادتها على طبيعة تلك الفئة وطبيعة أفرادها، لذلك فإن «كل واقعة اجتماعية هي، من بين جوانبها الأساسية، واقعة وعي، وكذلك: كل وعي هو، قبل كل شيء، تمثيل ملائم لقطاع معين من الواقع، على وجه التقريب»².

لذلك يوجب غولدمان في دراسة الوعي وتمظهراته في نطاق الفهم الإيديولوجي للفئات الاجتماعية، ومستويات تلقيها لها، أن نعرف «أ- ما الذي كان وهميا أو حقيقيا في كل وحدة من هذه الإيديولوجيات. ب- ولماذا هذه الفئة الاجتماعية أو تلك، كانت تسقط بالضرورة أو على الأقل بسهولة أكثر، ضحية لهذه الأوهام»³، باعتبار أنه من الممكن استنتاج تلك العوامل التي تتجلى عند فئة معينة ودراستها فهما وشرحا وصولا إلى قراءة ما تضمنته من علاقات وسلوكيات تُظهر مختلف المشكلات التي تُطرح عليها، ومختلف تعاملاتها مع الحقائق التي تواجهها، وإذا كانت تلك العوامل يتميز بعضها بالاستقرار وبعضها الآخر بالتغير أو الاندثار، فإنه في رأي غولدمان «من الصعب وضع تلك العوامل على صعيد واحد ما دام بعضها غابرا، والبعض الآخر قارا تقريبا، وما دام بعضها الآخر فقط موصولا بطبيعة الجماعة نفسها، بحيث إذا كان النوعان الأول والثاني من العوامل يمكنهما أن يتغيرا أو أن يختلفا بدون أن يؤدي بالضرورة إلى اختفاء الجماعة نفسها، فإن النوع الأخير على العكس، هو مرتبط جوهريا بوجود الوعي»⁴، أي أن العوامل المتصلة بالجماعة وبطبيعتها المكوّنة لاستمرارها هي ما يبقى حضورها المتواصل في بناء تماسكها مهما كان نوع الخلل

¹ - لوسيان غولدمان: الوعي القائم والوعي الممكن، المرجع السابق، ص 34.

² - المرجع نفسه، ص 35.

³ - المرجع نفسه، ص 36.

⁴ - لوسيان غولدمان: الوعي القائم والوعي الممكن، المرجع السابق، ص 37.

الذي يواجهها، باعتبار أن هذه العوامل في درجات معينة هي عمق تكوّن تلك الجماعة وليست مجرد عوامل ساهمت فقط في تكوّنها.

وعليه يكون الوعي القائم مرتبطاً بما تمّ تكوّنه من خلال الماضي وترسباته على الجماعة، ويتجسّد حين تلجأ الجماعة إلى فهم واقعها بواسطة الواقع نفسه وما يتضمن من أدوات ووقائع اقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية.

2-4-2 الوعي الممكن *La conscience possible*

إذا كان ما تتأسس عليه وقائع الوعي هو درجة ملاءمتها أو عدم ملاءمتها للواقع، وإذا كانت عملية الفهم والتفسير لوقائع الوعي عند غولدمان لا يمكن الوصول إليها إلا بإدراجها ضمن كليات أشمل، فإنه يمكن وبالأهمية نفسها أن نتبين أشكالاً لعدم التلاؤم الفعلي «انطلاقاً من التغيرات الثانوية والمحيطية بالنسبة إلى الوعي الممكن للجماعة خلال الفترة التي تترك فيها هذه الجماعة قمة تلاؤمها، إلى الوعي الخاطئ وفي الحالات القصوى، إلى سوء النية»¹. أي يتجسد الوعي الممكن حين تصل الجماعة قمة وعيها بواقعها، فهو وعي يتموضع في مستوى أعلى من الوعي القائم، أي وعي متطور يستند على التفاعل الفعلي والحقيقي للطبقة الاجتماعية، فإذا كان الوعي القائم يرتبط بمختلف المشكلات التي تواجه الجماعة وتعاني منها، فإن الوعي الممكن يرتبط أساساً بمختلف الطرق التي تؤدي إلى مواجهة تلك المشكلات لتغيير ذلك الواقع من خلال حلول مستحدثة، وحتى ضمن رغبة الجماعة في تغيير ذلك الواقع مستندين على قيم جماعة أخرى، «وليس كل تغير لعامل من تلك العوامل يؤدي إلى التغيير في طبيعة الجماعة وإنما هناك بعض العوامل المكوّنة للوعي الجماعي بصورة فاعلة عند تغييرها قد تجعل الرؤية تتغيّر وبالتالي تكون طبيعة المجموعة قابلة للتغيير»²، وعليه

¹ - المرجع نفسه، ص 39.

² - أحمد سالم ولد اباه: البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث، المرجع السابق، ص 59.

يتشكل الوعي الممكن من خلال تضمنه للوعي القائم ومن ثمّ تجاوزه إلى مساحات أكثر اتساعاً وواقعية، ووصولاً لتمكين الفئة الاجتماعية من تطلعاتها، ومن هنا يقصد غولدمان بالوعي الممكن الأقصى «الملائمة القصوى مع الحقيقة التي يستطيع وعي مجموعة أن يطالها، دون أن يغيّر مع ذلك من بنيتها»¹. في المقابل يكون الوعي الممكن هو «الدور التاريخي للطبقة وفقاً لحالتها داخل علاقات الإنتاج»²، أي مكانة هذه الطبقة في سياقها التاريخي بتأثير هذا السياق في طبيعتها، وذلك طبعاً بالتوازي مع الخلفية الاقتصادية التي تتموضع فيها تلك الفئة الاجتماعية، إن ذلك البعد التاريخي يتجسد من خلال تلك المكانة ومن خلال الأفراد الفاعلين في المجموعة، فقد لا تكون إرادات تلك الأفراد في منحى إيجابي يحقق للطبقة توازنها وفقاً لتطلعات الجماعة، «لأن الإرادات العديدة الفردية العاملة في التاريخ تعطي في أكثر الأوقات نتائج مختلفة عن النتائج المرجوة، وغالباً ما تكون مناقضة لهذه النتائج المرجوة، وإنه بالنتيجة ليس لدوافعها إلا أهمية ثانوية نسبة لنتيجة المجموع. ومن جهة أخرى، يجب معرفة ما هي القوى الدافعة المخبئة بدورها وراء هذه الدوافع، وما هي الأسباب التاريخية التي تتحول لمثل هذه الدوافع في رأس البشر الفاعلين»³، ومن هذا المنظور يتجلى ذلك التلازم بين الدور الفعلي للجماعة ومكانتها وإرادات أفرادها الفاعلين مقابل حالة العلاقات الاقتصادية داخلها.

وعليه نستنتج أنه إذا كان الوعي القائم وعياً عادياً يتجلى ببساطة في السلوكات وتمظهراتها داخل العلاقات الاجتماعية مستعينا بهذا السلوك في إدراك بُعد تلك

¹ - جاك لينهارت: من أجل استيعاباً سوسولوجية محاولة لبناء استيعاباً لوسيان غولدمان، ت: أحمد المدني، ضمن كتاب "البنيوية التكوينية والنقد الأدبي"، المرجع السابق، ص 63.

² - Sami Naïr : *Forme et sujet dans la création culturelle*. in « le structuralisme génétique ». *op. cit.*, p. 41

³ - جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، المرجع السابق، ص 49.

العلاقات باختلافاتها وتعديدها، فإن الوعي الممكن يتطلب تفكيراً ذهنياً نتيجة لثقافة الفرد ومدى إدراكه واستفادته من مختلف الخبرات للوصول إلى استقراء صحيح ومنتج لفائدة الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ومنه يمكن لمجموع الأفراد المنتمين لهذا القطاع والمنتجين لخصوصيته الفكرية من الارتفاع بمستوى الوعي القائم والفعلي إلى مستوى الوعي الممكن الذي يترصد انبعاثاً جديداً لبنيات تلك الجماعة وفقاً لتطلعاتها دون المساس بالأسس الثابتة التي تمنح القدرة لتماسكها وثباتها، ولا بد أن نشير إلى أن الفردية المقصودة هنا ليست في شكلها الأحادي، بل فردية جماعية، أي مجموعة أفراد ضمن مجموعة أخرى، فالوعي على العموم ليس هو نتيجة «ما يفكر به ويحسه الأفراد الذين يكوّنون الطبقة، فرداً فرداً، الخ، على أن التأثير الفاصل تاريخياً للطبقة ككلية يحدده، بنهاية هذا التحليل، هذا الوعي وليس الفكر الفردي، إن هذا التأثير لا يمكن معرفته إلا انطلاقاً من هذا الوعي»¹، وهذا ما عالجه غولدمان بشكل أكثر تفصيلية، حين فصل بين الوعي القائم والوعي الممكن، على أن الثاني يتضمن الأول، وعلى الناقد اكتشاف ذلك.

وعلى هذا الأساس يتضح لنا أن المنتج الروائي لا يُنتج من قبل وعي قائم يعبر عن الوعي الجماعي لتلك الطبقة، بقدر ما يتضمنه الوعي الممكن، وبقدر ما يكون الوعي القائم هو نفسه مرتبطاً فعلاً وفي سياق وعي آخر بالخصوصية الإيديولوجية وبالتفكير النظري الفاعل والمنتج من أجل قراءة² هذا الواقع قراءة مختلفة تستقصى عن قصد أو بدونه، البنية العميقة للفئة، وما تحمله من رغبات وتطلعات ومآسي

¹ - جورج لوكتاش: التاريخ والوعي الطبقي، المرجع السابق، ص 52.

² - تسلسل يدرج الوعي الحقيقي للكاتب والرموز التي يعبر عنها في إطار "نحن" ... كما يدرج وعياً أكثر اتساعاً يشمل جملة منظورات أو إمكانات حقبة أو طبقة ما. أنظر: جان دفينيو: غولدمان "رؤية العالم"، المرجع السابق، ص 98.

وطموحات، وما تتبصره من فهم وإدراك لواقعها وتمظهرات الحلول الفاعلة أو غير الفاعلة، ويتجلى ذلك من خلال الأعمال التي لها الوقع الإبداعي الكبير.

2-5 الرؤية للعالم La vision du monde

إن كل تلك المفاهيم التي عالجناها في إطار فهم المبادئ الأساسية للبنيوية التكوينية تعمل باتحاد أو تقرد للوصول إلى مضامين "الرؤية للعالم"، أو نجدها أحيانا هي ذاتها تتضمن هذا المفهوم، أو نجد هذا المفهوم يتضمن تفاعل تلك المقولات من أجل التعبير كنتيجة عن نظرة هذه الفئة الاجتماعية للعالم وفق مستويات تلك الرؤية المتعددة، لأنه يعتبر أهم عنصر اشتغل عليه غولدمان¹ في منهجه البنيوي التكويني.

وقبل أن نتحصص هذا المفهوم ضمن معجم غولدمان النقدي، نجد أن هذا المفهوم قد عالجه بعض الباحثين والنقاد في إطار تمهيدي للمداخل النظرية التي انطلق منها غولدمان، ففي «كتاب "مدخل إلى دراسة العلوم الإنسانية" يوضح دييتي هذا المفهوم في معرض حديثه عن الأدب بشيء من التفصيل، وهو يعتبر أن الأدب هو الموقع الجدلي الذي تلتقي عنده عبقرية الفرد بروح الشعب، غير أنه لكي يثبت انسجام هذا الكل يستعين بمقولة الحياة التي تسمح بانطباق الجزئي والفردى على الكلي والمجتمعي»²، هذا التفاعل الخاص بين الجزئي والفردى مع الكلي والمجتمع يدفع دييتي إلى الخروج قليلا من البعد الفردي للتحليل النقدي لديه، لكن غولدمان يعلق على طريقة دييتي في استعمال هذا المصطلح، حيث يقول إن دييتي استخدمه «ومدرسته بكثرة، لكنهم استخدموه لسوء الحظ بطريقة غامضة، دون أن ينجحوا في إعطائه وضعا

¹ - يؤكد جان دوفينيو أنه لا يمكن إدراك منهج غولدمان في البنيوية التكوينية دون فحص جيد لما قدمه لتلك

الفكرة التي تلتقي -عبر لوكاتش- بكل من سيميل Simmel و فيبر Weber ودلثي Dilthey على

الخصوص، أنظر: جان دفينيو: غولدمان "رؤية العالم"، المرجع السابق، ص 95.

² - ر. هيندلس: مفهوم النظرة إلى العالم وقيمتها في نظرية الأدب، ضمن كتاب "البنيوية التكوينية والنقد الأدبي"،

ت: ع بنعبد العالي، المرجع السابق، ص ص 113، 114.

إيجابياً دقيقاً»¹، على أن كارل مانهايم يجسده من خلال البعد الكلي للإيديولوجيا، «فهو يحدد المفهوم من خلال منظور ابستمولوجي أكثر وضوحاً، وهو يوافق عنده المفهوم الكلي للإيديولوجيا»²، وعليه يرى هيندلس في سياق بحثه عن هذا المفهوم عند بعض الفلاسفة والنقاد أن الرؤية للعالم «سواء حددناها على أنها نموذج نفسي أو تمثيل كلي جماعي، أو نموذج إجرائي تفترض دوماً وحسب أشكال متنوعة ضرورة تفسير سلوك الإنسان وإنتاجاته باستخدام مفهوم الكلية Totalité»³، رغم صعوبة هذا الاستخدام، تلك التي أكدها غولدمان مبيّناً أن «فئة الكلية (Totalité) التي هي مركز الفكر الجدلي تمنعنا من التفريق الصارم بين التفكير في النظرية والبحث الملموس، فهما وجهان لعملة واحدة»⁴. وعلى هذا الأساس حاول غولدمان استخدام منطلقات علمية في بحثه خاصة "الإله الخفي"، كي ينطلق من البنية الشاملة ويصل إلى الرؤية للعالم مروراً بكل التحولات المعرفية والأسس الفلسفية التي تتبناها البنيوية التكوينية، ورغم جهود عدد من الباحثين في تقصي مفهوم للرؤية للعالم إلا أن غولدمان يعتبر أن «الفضل في استخدامه بالدقة الضرورية لجعله أداة عمل فيعود في المقام الأول إلى جورج لوكاتش الذي قام بذلك في أعمال عدة تمكّناً من خلالها استنتاج المنهج وتدوينه في كتاب آخر»⁵.

ومن هنا يتصدّ غولدمان من خلال هذا المفهوم الولوج إلى إخراج العمل الأدبي من طبيعته الكلاسيكية التي كانت تقدمه على أنه مجرد انعكاس مباشر للواقع، يتأثر

¹- لوسيان غولدمان: الإله الخفي، ت: زبيدة القاضي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2010، ص 42.

² - ر. هيندلس: المرجع السابق، ص 114.

³ - المرجع نفسه، ص ص 114، 115.

⁴ - لوسيان غولدمان: الإله الخفي، المرجع السابق، ص 18.

⁵ - لوسيان غولدمان: الإله الخفي، المرجع السابق، ص 42.

الأديب بواقعه فيعبر عنه بحرفيته، ومنه يؤكد لوسيان غولدمان أن «المجموعات الاجتماعية المحظوظة، التي يتجه وعيها وفعاليتها وسلوكها نحو إعادة تنظيم إجمالي لكل العلاقات الإنسانية وللعلاقات بين الإنسان والطبيعة، أو نحو حفاظ إجمالي للبنية الاجتماعية الكائنة، هذه الرؤية الكلية للعلاقات الإنسانية والعلاقات بين الإنسان والعالم تدخل ضمن هذا النوع من الوعي الجماعي الممكن، وعلى الأغلب ضمن الوجود الفاعل، لمثالية الإنسان. وهذا يقودنا إلى تمييزها عن نوع الوعي الجماعي الذي أطلقناه على الإيديولوجيا، لنطلق عليها مصطلح الرؤية للعالم»¹.

ومن ثم فالرؤية للعالم عند غولدمان هي «أداة عمل إدراكية ضرورية لفهم التعبيرات المباشرة لفكر الأفراد، وتظهر أهميتها وواقعيتها حتى على المستوى التجريبي، عندما نتجاوز فكر كاتب واحد وأعماله»²، وفي هذا المفهوم يؤكد غولدمان على إمكانية تطبيقه، خلافا لما قد يتصوره البعض حين يضع هذا المفهوم في بعده الفلسفي الذي يظل في مجاله النظري، «يجب ألا نرى في رؤية العالم واقعا ميتافيزيقيا أو نظريا صرفا، فهي تشكل على العكس المظهر الأساسي للموس للظاهرة التي يحاول علماء الاجتماع تعريفها منذ عشرات السنين بمصطلح الوعي الجمعي»³، هذا المظهر الأساسي للموس للظاهرة هو ما يحيل على فكر المجموعة، باعتبار أن اتجاه المادية التاريخية يقف على دراسة هذا التوافق، ومن هنا يعرف غولدمان الرؤية للعالم بأنها هي «بالتحديد هذا المجموع من التطلعات، والمشاعر، والأفكار التي تجمع بين أعضاء المجموعة الواحدة (وغالبا الطبقة الاجتماعية الواحدة) وتعارضها مع المجموعات

¹ Lucien Goldmann : Structuralisme génétique en sociologie de la littérature. dans -

« le structuralisme génétique ». *op. cit.*, p. 23.

² - لوسيان غولدمان: الإله الخفي، المرجع السابق، ص 42.

³ - المرجع نفسه، ص 43.

الأخرى»¹، أي ما يحدد هذه المجموعة عن غيرها من المجموعات، فلكل مجموعة جملة من التطلعات تنطلق من فعالية أحسيسها المتوافقة مع سلوكاتها، لذلك يشير غولدمان إلى ملاحظة هامة جدا لفهم الرؤية للعالم في سياقها المجتمعي، وكيفية الكشف عن تلك الرؤية، لأن الفرد الواحد لا يمكنه أن يمتلك تلك الرؤية الشاملة والمتجانسة انطلاقا من وعي متكامل، يقول غولدمان «إن الفرد إذا كان من النادر أن يملك وعيا كاملا حقا لدلالة وتوجّه تطلعاته، وعواطفه، وسلوكه، فهو لا يملك دائما وعيا نسبيا، إذ نادرا ما يبلغ بعض الأفراد الاستثنائيين الانسجام الكامل، أو يقتربون منه على الأقل. فإذا ما تمكنوا من التعبير عنه، على المستوى الإدراكي أو التخيلي، فهم فلاسفة وكتاب، وأعمالهم تزداد أهمية كلما اقتربوا من التجانس البياني لرؤية العالم، أي تجانس أعلى قدر من الوعي الممكن لدى المجموعة التي يعبرون عنها»².

¹ - لوسيان غولدمان: الإله الخفي، المرجع السابق، ص 46.

² - المرجع نفسه، ص 42.

3- الانتقادات الموجهة للبنيوية التكوينية

لقد استطاع لوسيان غولدمان من خلال استفادته من أفكار سابقه أن يضع هذا المنهج مستندا على مبادئ هامة حققت بصورة علمية الطريقة المنهجية في تحليل العمل الأدبي، خصوصا ما استلهمه من أعمال أستاذه لوكاتش، فطوّرت تلك الأبعاد الفلسفية وساقها في منهج يهدف إلى إبراز دور الجماعات في إنتاج العمل الأدبي والثقافي، مستعينا بمختلف المقولات التي تعمل على بلورة هذا الاتجاه.

لقد أثرت أطروحة لوسيان غولدمان حول راسين¹، بور رويال، وباسكال² في توجهات النقد المحافظ خاصة عند طائفة من المثقفين الفرنسيين وصفها "جان دوفينيو" بالطائفة المغلقة التي كانت تعمل على مجابهة كل جديد، وتساءلوا «كيف يمكن لغريب وملحد، وماركسي مهرطق أن يدرك شيئا بالنسبة لجزء جد صميمي من التراث الفرنسي -يعني صوفية باسكال وشعر راسين؟»³، ثم يضيف جان دوفينيو ملاحظة هامة في سياق النقد السائد الذي يعتمد على خلفية فكرية تتجه إلى تهمين أعمال معينة دون أخرى، يجب على النقد أن يتبع سبلها، فيقول: «إن الخطاب النقدي الذي كان يتبع منذ سانت بوف وبيرس Barse مع مورياك، وجيروودو، تيري مولنيي Thierry Mounier والتسيس بريمون L'abbé Bremont، ومنتزلان Montuerlant كان يساعد على اقتناء الثراء الفكري ويحدد "المتن" الجامعي، فلقد أعرب الكتاب عن سماحة عميقة، وكانوا أكثر حفاوة وأشد تخرزا أيضا. فهل كانوا قد

¹ - جان راسين Jean Racine ، شاعر وكاتب مسرحي فرنسي، ولد سنة 1639، وتوفي سنة 1699. أنظر: جان راسين، مأساة طيبة أو الشقيقان فيدر، ت: أدونيس، سلسلة من المسرح العالمي، الكويت 1977، ص 05.

² - رياضي وفيلسوف فرنسي، ولد في مدينة كليرمون عام 1623- توفي في باريس عام 1662 عن 39. أنظر: بليز باسكال، خواطر، ت: إدوار البستاني، مجموعة الروائع الإنسانية، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت (لبنان) 1972، المقدمة.

³ - جان دوفينيو: غولدمان "رؤية العالم"، المرجع السابق، ص 93.

تحرروا حقيقة من الانطباعية؟ لقد أوعز إلى واحد منهم - كان جد مشهور آنذاك - أن أفكار غولدمان كانت تهمة "لأنها كانت مغلوطة" ترتبط بتناقض نكي»¹

وفي فضاء المنهج البنيوي التكويني انبنت رؤية علمية تعمقت في تفاصيله، ولم تقف عند تلك التفاصيل فقط، بل ساهمت في بعث وجهة نظر تُطوّر تلك العوالم وتتقدمها أيضاً، وهذا ما جاء به جاك لينهارت تلميذ لوسيان غولدمان، حين لم تمنعه تلمذته «من القيام بنقده، فصرامة التحليل (الغولدماني) للتناظر بين بنية الشكل الروائي وبنية المجتمع الأوروبي المنتج من أجل السوق قد حجبت عن هذا الأخير اعتبار "الكتابة" مفهوماً جوهرياً من مفاهيم السوسولوجيا الأدبية، ونتيجة لذلك، اعتبر غولدمان "وصف الأشياء" في (الرواية الجديدة) الفرنسية نتيجة تحوّل اجتماعي ("تميمية السلعة") وليس أيضاً، نتيجة تحوّل أدبي يطرح مشكل الكتابة الروائية التقليدية ويعمل على قطع صلته بها، في هذا الصدد يمكن اعتبار كتاب (لينهارت) تدعيماً لمنهج غولدمان، وفي نفس الوقت مساهمة في تطويره ونقد مفاهيمه»². ويتجه هذا الانتقاد إلى إعادة بعث جانب جمالي فني في الدراسة، هذا الجانب الذي لم يتطرق إليه غولدمان بشكل تنظيري ومفصّل، مع أن غولدمان أكد أن منهجه يتطرق إلى الأعمال الإبداعية الهامة، وهي الأعمال - طبعاً - التي لقيت رواجاً عالمياً وفتحت أفقها على مختلف التقنيات الفنية بالتأكيد، لذلك، فمن بين الذين انتقدوا منهجه بشدة الناقد والروائي الفرنسي سيرج دوبروفسكي³ في كتابه "لماذا النقد الجديد؟".

¹ - جان دوفينيون: غولدمان "رؤية العالم"، المرجع السابق، ص ص 93، 94

² - ملحق بعنوان "قراءة سياسية للرواية: الغيرة"، ت: ابراهيم الخطيب، ضمن كتاب "البنيوية التكوينية والنقد الأدبي"، المرجع السابق، ص 123.

³ - سيرج دوبروفسكي Serge Doubrovsky (1928 - 2017) ناقد وأكاديمي وروائي فرنسي. أنظر: سلوى السعداوي، الكذب الحقيقي من قال إنني لست أنا في إشكالية التخيل الذاتي، الدار التونسية للكتاب، ط1، تونس 2006، ص 62.

وقد تطرق الدكتور محمد نديم خشفة¹ إلى جملة من الاعتراضات أكد من خلالها على أن الناقد الفرنسي "سيرج" يضع غولدمان في مواجهة المدارس النقدية السابقة باعتبار أن هذه المدارس «تبحث كلها في النص الأدبي عن "التماسك التام"، أما "بارت" فيجد هذا التماسك في البنية الداخلية للنص وفي النظام الشكلي لمواده الدلالية. وأما "مورون" فيرى أن الأثر الأدبي نفسه يشير ويعلن عن وحدته الخاصة، ولكننا نجد مفتاح هذه الوحدة في النظام الانفعالي للشخصية اللاشعورية للمؤلف ذاته»²، فيتجه سيرج دوبروفسكي إلى انتقاد ما تقدم به غولدمان باعتباره لم يأت في منهجه بما يثبت استقلالية تامّة لأفكاره، وباعتباره يعيد ما ذهبت إليه المدارس النقدية في مفهوم "التماسك التام"، كما انتقد النقد الماركسي وأشار إلى أنه يخلط «بين أحكام القيمة وأحكام الواقع التي يضمها البعد الجمالي، ينزلق النقد الجديد بشكل موضوعي من ميدان إلى آخر. إنه ينفي عند لوسيان غولدمان، الذي يوظف البنيوية التكوينية، المجال الوجودي، أي الفرد واعتقال الأنا»³.

من جهة أخرى اعتبر "جورج بيز ستراي" أن غولدمان أخلط العديد من المفاهيم في أسلوب مبهم غير مفهوم، حيث يتوقف عند «تحليل جولدمان لروايات مالرو، محاولاً الكشف عن الرطانة البنيوية والوجودية والسيكولوجية في التحليل النقدي»⁴. وهنا يقف جورج بيز على بواعث أخرى في انتقاد هذا الاتجاه.

¹ - محمد نديم خشفة ناقد وقاص ومترجم سوري. ولد عام 1942م. أنظر: محمد نديم خشفة، الموسوعة الحرة ويكيبيديا، اطلع عليه بتاريخ: 22-03-2018: محمد-نديم-خشفة-<https://ar.wikipedia.org/wiki/محمد-نديم-خشفة>

² - محمد نديم خشفة: تأصيل النص - المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان -، المرجع السابق، ص 14.

³ - سيرج دوبروفسكي، النقد الجديد في فرنسا، عرض وتحليل: عبد الجليل غزالة، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، ع 105، سوريا 2001، ص ص 156، 157.

⁴ - جابر عصفور: نظريات معاصرة، المرجع السابق، ص 184.

وفي هذا السياق انتقد بيير زيماء Pierre Zima مفهوم البنية الدالة، معتبرا أن النص لا يقف على وحدة منفردة تقوده في اتجاه معين واحد، بل يعتبر أن النص متعدد ومنفتح، لذلك يتساءل «ما المقصود بالضبط بهذا المفهوم؟ وهل هناك نظرية دلالية تتيح تعريفه؟ وكيف نختزل النص الذي يتميز بخاصية التعددية إلى بنية تصويرية واحدة؟ إن عجز البنيوية التكوينية عن إيجاد حل هذه المعضلات هو الذي يكشف عن هشاشة تصورها»¹، وعلى هذا الأساس نجد رولان بارت «يقيم التماسك في البنية الداخلية وفي النظام الشكلي لمواده الدلالية، وأما مورون² فيرى أن الأثر الأدبي نفسه يشير ويعلن عن وحدته الخاصة، ولكننا نجد مفتاح هذه الوحدة في النظام الانفعالي للشخصية اللاشعورية للمؤلف ذاته، أما غولدمان فيتفق مع مورون بضرورة دراسة الحياة الانفعالية للمؤلف، ولكنه يتجاوزهما بالتأكيد على إدماج الأثر الأدبي ومؤلفه في بنية أوسع هي البنية الاجتماعية والذهنية الثقافية اللتين يمثلهما أو ينتمي إليهما»³، ومنه وعلى شاكلة هؤلاء النقاد وغيرهم من الذين ناهضوا بشدة كل جديد، فإنه يمكن القول إن هذه الفئة التي عبّرت عن آرائها بحثا عن منافذ علمية تعارض بها ما جاء به غولدمان، لكي تحقق البقاء لفكرها وتسدّ أي ثغرة يمرّ من خلالها كل تصوّر علمي جديد يحوّل مجرى النقد من مستوى إلى آخر.

من جهة أخرى فقد استقبل النقد العربي البنيوية التكوينية، وجاءت الكتابات النقدية في شكل تطبيقات نظرية ومباحث علمية أكاديمية، وترجمات مختلفة لكل تفاصيلها

¹ - لوسيان غولدمان: العلوم الإنسانية والفلسفة، ت وتقديم: يوسف الأنطكي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، مصر 1996، ص 33 (المقدمة).

² - شارل مورون Charles Mauron (1899-1966)، كاتب ومترجم وشاعر وروائي فرنسي. انتهى إلى مصطلح النقد النفسي، من خلال تفسير النصوص بعضها ببعض، عن طريق وضع أعمال الأديب فوق بعضها، بغية الكشف عن جمالياتها، فيدرس الناقد هذه الأعمال وتجمعاتها وتطورها حتى يستطيع الوصول إلى الشخصية اللاشعورية للأديب. أنظر: عبد الله خضر حمد: مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، المرجع السابق، ص 58.

³ - محمد نديم خشفة: تأصيل النص - المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان -، المرجع السابق، ص 14، 15.

المعرفية، ومن بين الذين اشتغلوا في عوالمها على المستوى العربي نذكر «جمال شحيذ، ويمنى العيد وجابر عصفور، وعبد المالك مرتاض، ومحمد نديم خشفة، وسعد البازعي، وأحمد يوسف، ونجيب العوفي، ومحمد برادة، ومحمد بنيس، وعبد الله راجع، وعلي عباس علوان، وعبد الرضا جبارة، ومحمد خرماش، وحמיד لحميداني، وسيزا قاسم»¹، وغيرهم، أما على المستوى الإنتقادي العربي لهذا المنهج فإن الاتجاه «الرافض للبنوية التكوينية، لا يكاد يذكر»²، باعتبارها منهجا ما يزال في إطار البحث والتنقيب العربي، وباعتباره قد شكّل توازنا هاما بين البعد الشكلي الذي يتجلى في البنيوية الشكلية، والبعد الاجتماعي التاريخي الذي يتجلى في مفهوم البنيوية التكوينية.

¹ - أنظر: سامر فاضل الأسدي، المرجع السابق، ص ص 233، 234.

² - المرجع نفسه، ص 242.

الرؤية للعالم

في الرواية الجزائرية

المكتوبة بالفرنسية

(نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة)

أنموذج

الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

البدايات والتحوّلات

- الاحتلال الفرنسي بين دوافع الفرض وجدلية الرفض

- دوافع الاحتلال الفرنسي للجزائر

- الاحتلال الفرنسي وقصدية الحرب والإبادة

- الاحتلال الفرنسي والمقاومة في بلاد القبائل

- أثر الاحتلال الفرنسي على المجتمع القبائلي

- هدم الإطار القبلي

- التعليم ودور المرابطين في تنمية الوعي وثقافة المجتمع

- خصائص المجتمع القبائلي وصورة الواقع الاجتماعي

- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأبعاد الهوية الجزائرية

- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، النشأة وملامح التطور

- الهوية والثقافة وتجلياتهما في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأزمة الهوية

شكل الاستعمار الفرنسي أهم منحى نسج خيوطه على الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، فهو مبعث اللغة التي امتنها كتاب هذا الجانب من الإبداع في الأدب الجزائري، ولعل هذا الأخير لم يكن ليزرع لغة مختلفة عن الجزائريين فقط، بل أراد أن ينمي تفاصيلها وتقاليدها وهويتها داخل هذه الأجساد التي كانت تنتمي إلى مرجعيات مختلفة تماما عن العوالم الفرنسية، رغم تنوع تلك المرجعيات في الداخل خلافا لما ذهب إليه البعض في أن الجزائريين غداة الاحتلال كان لهم "لغة علم وثقافة واحدة مشتركة هي اللغة العربية"¹، فمزج بين الثقافة في مجتمع واحد، وبين اللغة كتداول ينتمي للتنوع أيضا، ذلك الذي كانت تشهده الجزائر، فكان هناك الأمازيغ بكل مشاربهم واختلافاتهم البيئية والاجتماعية، والعرب المنتمون إلى لغتهم التي أعطاهم القرآن والفكر الديني سلطة روحية هامة، باعتبار التفريق بين الدين كمرجعية وافدة على حضارات سابقة له كانت تتسم هي الأخرى بالتعدد مما تبقي آثارها محفورة في ذاكرة الشعوب، وباعتبار الجرعات الثقافية التي تنتقل من هوية إلى أخرى في نوع من التمازج الحوارية، وسنتطرق إلى ذلك التراكم الاجتماعي والثقافي في مبحث لاحق، لكن قبل ذلك لا بد من المرور إلى ساحات تاريخية كان لها دور هام في تكوين تلك الصدمات بين الذات والآخر، هذا الجانب التاريخي الذي لا ينفصل عن جانبه الاجتماعي حسب ما ذهب إليه لوسيان غولدمان حين أكد على تمازج هذه العوالم، وقال إنه «ليس هناك أفعال اجتماعية منفصلة وأفعال إنسانية أخرى من شأنها أن تكون تاريخية، وحتى ليس هناك بُعدين متميزين لأفعال يمكن أن تكون مرتبطة بعلمين مختلفين»² لذلك سوف نتطرق إلى الظروف التاريخية التي صنعت المشهد

¹ - أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار الساحل، ط1، الجزائر 2013، ص 26.

² - Lucien Goldmann : Structuralisme génétique en sociologie de la littérature, in «Le structuralisme génétique, *op. cit.*, p. 17.

العام لما هو في الداخل، داخل كل الأجزاء التي شهدها الإبداع الجزائري إبان الاحتلال، والتركيز أكثر على منطقة القبائل باعتبار أنها البنية العامة التي ألفت بظلالها على المنتج النصي محل الدراسة، وساهمت من خلال بنيتها الخاصة في الكشف عن كل التفاصيل.

1 - الاحتلال الفرنسي بين دوافع الفرض وجدلية الرفض

1-دوافع الاحتلال الفرنسي للجزائر:

أكد بعض الباحثين أن الجزائر قبل الغزو الفرنسي في شكله المباشر قد عانت من تدخلات سياسية ذات نوايا استعمارية واضحة، وهذا ما اتضح في «زيارة الوفد المتكوّن من الأدميرال الإنجليزي Freemantle والأدميرال الفرنسي Jurien de la Gravière، أتيا إلى الداى حسين الذي استقبلهما يومي 5 و9 سبتمبر 1819م، وردهما بخفي حنين، وقد كانا يهددان باسم أوروبا كلها المجتمعة في "إيكس لاشابيل" يوم 20 نوفمبر 1818م»¹

إن تلك الأسباب لم تكن سوى دوافع تحمل رغبة المستعمر في الدخول إلى عوالم جديدة على أرض خصبة كانت مطمع الكثيرين، تحمل في سياقاتها التاريخية حضارات متعددة مزجت عقب التراب برائحة الإنسان، فلم تكن الأرض الجزائرية جرداء لا حياة فيها، ولم تكن خارجة عن نطاق المعرفة والتحصّر، ولم تجد القوات الفرنسية حين دخولها هذا التراب «الأرض الجزائرية خرابا يبابا، فقد كانت هناك دولة جزائرية قائمة، لا تقل عراقية عن مملكة آل بوريون التي كانت تحكم فرنسا آنذاك»²، بل هذا ما جعل «ملوك فرنسا، من لويس الرابع عشر حتى شارل العاشر، مرورا بنابليون بوناپرت نفسه، يعنونون رسائلهم إلى دايات الجزائر هكذا: إلى السادة الأمجاد العظام»³، فكانت قيمة الجزائر ومكانتها في قمة شماء لها وزنها الثقيل في السياسة الدولية، و«في ذلك

¹ - مجموعة من المؤلفين: مولود قاسم نايت بلقاسم، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، دط، الجزائر 2013، ص 346، 347

² - أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، المرجع السابق، ص 25.

³ - مولود بلقاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، دار الأمة، ط2، الجزائر 2007، ص 13.

الوقت .. سعى الرئيس الأول للولايات المتحدة الأمريكية، جورج واشنطن⁴، لدى قيصر روسيا، كاترين الثانية، ليقنعها بضرورة الانضمام إلى حلف أوروبي أمريكي ضد الجزائر، ثم اضطر إلى أن يقبل بشروط الجزائر، فعقد مع الداى حسن معاهدة¹، ولم تكن مجرد معاهدة فقط، بل تعدت ذلك إلى معاهدات أخرى وتحالفات أخرى من أجل استغلال منافع هذه الحضارة العريقة، بل ولم تكن أمريكا وحدها هي التي ترغب فيها بقدر ما كانت الدول الأوروبية هي أيضا، فعزمت فرنسا أخير على تنفيذ مخططاتها في الدخول إلى الجزائر واستعمارها، نظرا لضعف الدولة العثمانية آنذاك باعتبارها كانت الحصن المنيع الذي يحمي المسلمين، واستندت فرنسا على مزاعم وهمية، وأسباب لم تكن ذريعة حقيقية للفصول والمشاهدة الدامية التي عرفها الشعب الجزائري طيلة 130 سنة.

لقد تجسدت النوايا التي كان يكنها الأوروبيون للجزائر في «مؤتمر فيينا 1815م، ومؤتمر إيكس لاشابيل 1818م، حيث اتفقت 20 دولة أوروبية على توحيد صفوفها، وشكلوا لهذا الغرض تحالفا دفاعيا بحريا للقضاء على عملية القرصنة الجزائرية في البحر المتوسط، وتحرير الأسرى الأوروبيين وتحريم استرقاق المسيحيين والحفاظ على حرية التجارة، وبالتالي منحت لفرنسا بصورة غير مباشرة الضوء الأخضر لغزو الجزائر»².

ولم تبدأ المشكلات بين الدولتين إلا عند مجيء نابليون بونابرت إلى الحكم، «فاستغل التفوق التكنولوجي والعلمي الذي وصلت إليه فرنسا بعدما كانت في السابق

⁴ - جورج واشنطن (1732-1799)، أول رئيس للولايات المتحدة (1797-1789)، والقائد العام للقوات المسلحة للجيش القاري أثناء الحرب الأمريكية الثورية. أنظر: جورج واشنطن، الموسوعة الحرة ويكيبيديا، تاريخ الاطلاع: 2018-03-22: جورج-واشنطن/ https://ar.wikipedia.org/wiki/جورج_واشنطن

¹ - مولود بلقاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، المرجع السابق، ص 13.

² - عمورة عمار: موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة، ط1، الجزائر 2002، ص 111.

متكافئة، وأصبح يهدد الجزائر بالحرب على إثر احتجاز الجزائر لسفينتين فرنسيتين، ثم لأجل إطلاق سراح أسرى إيطاليين وكورسكيين كانوا مسجونين في الجزائر، وكانت نواياه منذ بداية حكمه خبيثة اتجاه الجزائر، فكان يخطط لاستعمارها»¹، كما أن الملوك الذين جاءوا من بعده «لويس وشارل العاشر احتفظوا بمخططه، وفي 29 أبريل 1827م بمناسبة عيد الفطر، حضر القنصل دوفال Duval الحفل الذي أقامه الداى بهذه المناسبة»²، وحصلت حادثة المروحة المعروفة بسبب طلب الداى من القنصل الديون التي كانت على عاتق فرنسا منذ حكم نابليون، الأمر الذي لم يستسغه القنصل ليعلق بعبارات لم تعجب الداى فيلوح بالمروحة التي لمست وجهه ويطرده من أمامه، وهناك رفع القنصل الفرنسي قطرته معه لتضاف إلى الكأس الذي تحمله فرنسا فيفيض حنقا وغيضا ووعودا بأن ينتقم لهذا الموقف.

ومنذ دخول القوات الفرنسية إلى الأراضي الجزائرية عمدت إلى مخاطبة الشعب الجزائري باللغة العربية، حيث وزعت بيانا تحدد فيه مزاعم دخولها إلى الجزائر، فأرجعت سبب دخولها إلى ما حدث بين الداى والقنصل الفرنسي، وقالت «نعدكم بأن لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم ولا نسعى للاستلاء على أموالكم وخراب بلادكم وأننا جننا لنطرد الأتراك الذين طغوا عليكم الخ..»³، ومن ضمن وعود فرنسا عهدا في ضمان مكانة الفرد الجزائري المادية والثقافية، حين قال البيان «اعلموا وتأكدوا يقينا أنني لست قادما إليكم لمحاربتكم، وعليكم البقاء في أماكنكم آمنين مطمئنين، وأن تتابعوا أعمالكم وتمارسوا صنائعكم وحرفكم براحة، وأعدكم أنه ليس بيننا

¹ - عمورة عمار: موجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 112.

² - المرجع نفسه، ص 112.

³ - المرجع نفسه، ص 116.

من يريد ضرركم لا في مالكم ولا في أعيانكم وأضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وحقولكم ومتاجركم، وكل ما هو لكم صغيرا كان أو كبيرا، فسيبقى على ما هو عليه»¹.

وعلى هذا المنوال يخاطب الشعب الجزائري بلغة عربية قريبة منه، لها الملامح الدينية التي عرف أنها تنغمس إلى عمق الفهم العربي الإسلامي، متبعا سبيل الخطب الدينية موجها وناصحا ومهدداً لكل من خالف هذه النصائح أو الواجبات التي فرضها هذا البيان، حيث يختتمه بقوله «هذا ما بدا لي أيها السادة أن أكلمكم به، فلا تغفلوا عنه، واعلموا أن صلاحكم هو في قبوله والعمل على بما جاء به، وأن هلاككم لا يرده عنكم أحد إن أنتم أعرضتم عما نصحتكم وأنذرتكم به، واعلموا يقينا مؤكدا بأن كلام ملكنا المنصور المحفوظ من الله تعالى هو كلام لا يمكن تغييره، لأنه مقدر، والمقدر لا بد من تحقيقه، والسلام على من اتبع وسمع وأطاع»².

وعلى هذا المنوال كانت معاهدة الاستسلام التي وقعها داي الجزائر سنة 1830م، تفصح عن وعود أخرى للشعب الجزائري كان بندها الخامس يقر أن «تكون إقامة الشعائر المحمدية الدينية حرة، ولا يقع أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم، ولا بأموالهم، ولا بتجارتهم ولا صناعتهم، وتحترم نساؤهم ويتعهد القائد العام بذلك عهد شرف»³.

إن ذلك الخطاب ينبني على صورة لم تحققها فرنسا، ولم تكن لتحقيقها وهي تسعى إلى نهب أموال الدولة، واستلائها على كل ثمين تجده، تحمل داخلها طموحات كبيرة وأحلام تتامت مع مرور الزمن محاولة تجسيدها على أرض الواقع، «ولم يتمكن المستعمر الفرنسي من احتلال كامل التراب الجزائري إلا بعد حوالي أربعين سنة من

¹ - بسام العسلي: المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي، دار النفائس، ط2، بيروت 1986، ص 184.

² - المرجع نفسه، ص 185.

³ - المرجع نفسه، ص 187.

الكفاح 1830م-1870م، وبدأ أول الأمر باحتلال المدن الساحلية، مثل بجاية ووهران ومستغانم وعنابة، ومنها زحف على المدن الداخلية، وارتكب خلالها أبشع الجرائم ضد الشعب الجزائري»¹.

لقد شهدت الجزائر منذ 1880 تحولات هامة ساقها الوجود الاستعماري الفرنسي من خلال محاولات دائمة في ترسيخ طموحه الاستعماري، واستيطان هذا البلد شعبا وأرضا، وكانت محاور هذا الاستعمار تعمل في البداية على تحويل كل ما هو في الجزائر كمكاسب بشرية ومادية إلى ملكية له، حتى أنه انشغل في طمس المعالم الفكرية والوطنية التي وجدها في عمق هوية المواطن الجزائري، مستعينا بكل طرق التكيل وحتى الإبادة في أحيان كثيرة، كما أدى هذا النهج إلى مجاعات فتكت بأرواح كثيرة.

¹ - عمور عمار: موجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 116.

2- الاحتلال الفرنسي وقصديّة الحرب والإبادة:

منذ البداية عملت فرنسا بمنطق الفضاضة والقسوة، وانتهجت طريق الدمار لكل عنصر بشري يقف في طريقها، فكانت أولى المجازر التي «ارتكبتها القوات الفرنسية بعد الغزو، تلك التي وقعت في حق قبيلة العوفية في ضاحية الحراش ليلة السادس أبريل 1832م، فقد فاجأهم الجنود وهم نيام، وأبادوا أفراد القبيلة عن آخرهم دون تمييز في الجنس أو العمر، ولم يتمكن رجال القبيلة القادرون على استعمال السلاح حتى من الدفاع عن أنفسهم»¹.

ومن هنا انطلقت فرنسا في تصوير المآسي وفتك الأعراض والقتل دون رحمة ولا شفقة، منتشية بما يفعله جنودها من حوادث دامية، كانت في بدايتها حوادث عشوائية غير منظمة، أما في «العشرية الثانية، حين تولى الجنرال بيجو القيادة العامة، صار ذلك يشكل استراتيجية مدروسة، لها مخططاتها الواضحة، وأهدافها المحددة سلفاً، كما تطورت فيها أدوات القتل، وتعددت وسائل الإبادة، واستعملت فيها كل أنواع الأسلحة، مثل القتل المباشر بالرصاص أو السيف، أو بسلاح النار، أو الخنق بالدخان، أو بغيره من وسائل القتل، وتدمير القرى، وحرق المحاصيل، ومصادرة المواشي، وباختصار: القضاء على كل ما يحفظ حياة الإنسان، ويبقيه على قيد الحياة»².

إن كل تحوّل نحو تعميق منهج إراقة الدماء وتفعيل وسائل التعذيب هو تعبير عن نفسية القادة الفرنسيين، وما يحملونه من حقد وتجبر واستعظام لحالة السيطرة والقيادة، حيث كان بيجو هو نفسه من يخلق الأعذار لكل حادثة أو واقعة تتال أفراد الشعب الجزائري الأعزل، واستمر في خطه تلك إلى أن خلفه «الدوق دومال» وسار على خطاه، ثم خلفه المارشال راندون ونفذها في منطقة الوسط على الخصوص، ويمكن أن

¹ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص 33.

² - المرجع نفسه، ص 34.

نذكر هنا من سجلات هؤلاء العسكريين، على سبيل المثال لا الحصر، ما فعلوه بسكان واحة الزعاطشة، الذين أبادوهم عن آخرهم في نوفمبر 1849، وما فعلوه بسكان مدينة الأغواط أثناء احتلالهم لها سنة 1852، حيث قتل معظم قاطنيها، وخرّب عمرانها وأتلف زرعها، وكذا ما فعلوه بسكان تقرت سنة 1845، وما ارتكبه المارشال راندون من فضائع سنة 1857 في بلاد القبائل، رغبة منه في الإجهاز بسرعة على المقاومة الشعبية التي قادتها لالا فاطمة نسومر»¹.

إن ذلك الشغف بهذا المكسب المادي والبشري يزيد كلما تتوغل فرنسا إلى الداخل، حين تكتشف أهمية هذا المكان رويدا رويدا، وبدل أن تستعمر مناطق ساحلية معينة، تزيد رغبتها ويكبر طموحها في الاستعمار الحقيقي لكل شبر من هذا التراب، وهو ما فعلته عبر سنوات عديدة، مستعينة بأساليب القمع والدمار وإشباع رغبتها تلك بإراقة الدماء، هادفة عبر كل ذلك إلى تأسيس مستعمرة فرنسية قارة، متحججة بأن هؤلاء السكان يحتاجون إلى تعمير حضاري راقى يحقق لهم الاندماج في سياق الحضارات المتطورة، لكن أسلوبها في العنف يبقى هو الصورة التي تحتاجها لتثبيت ذلك، وبهذا تتكشف بين الرغبة والحقيقة تناقضات عديدة، عمّقت صور المقاومة الشعبية التي كلما ارتفعت قمعتها، من خلال العنف المباشر أو من خلال خطط خبيثة تصنع الفرقة بين القبائل والمجموعات المتماسكة.

وقد أدت السياسة الميكيفيلية إلى دمار شامل، فأهلكت الحرث والنسل، وقضت على الزرع والضرع، وتسببت في مجاعات أودت بحياة مئات الآلاف من أرواح الجزائريين، نذكر منها تلك «المجاعة التي حدثت في سنوات 1867-1869 وراح ضحيتها ما بين خمسمائة وستمائة ألف نسمة، ولم تكن هذه المجاعة هي الأولى ولا الأخيرة فقد حدثت مثلها في السنوات 1845 و1850، التي سميت بسنوات البؤس،

¹ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص ص 38، 39.

وتكررت في السنوات 1893 و1897 و1920، وكانت كل مرة تحصد آلاف الأرواح، وتتضافر في معظم الأحيان المجاعة والجفاف مع وباء الكوليرا والتيفوس، وهو ما كان يزيد من معاناة الناس ويضاعف من عدد الضحايا»¹.

وهذا ما أشار إليه بشكل واضح جان بول سارتر حين قال «لقد كانت بغيتهم أن يدفعوا إلى إفريقية الأوروبيون الفائضين من إجراء فرنسا وإسبانيا المتسكعين، فأقاموا لهؤلاء الرعاغ بضع قرى حول مدن الجزائر وقسنطينة ووهران، ولكن الأوبئة ما لبثت أن فتكت بأعمهم الأغلب»²، ولم يتوان المستعمر من فرض سطوته منذ بدايات الاحتلال، في نطاق معارك قاسية كان فيها الجزائريون يحاولون جاهدين منع تلك الاعتداءات بكل قوة وإصرار.

¹ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 40.

² - جان بول سارتر: عارنا في الجزائر، ت: عايدة وسهيل إدريس، الدار القومية للطباعة والنشر، ط1، بيروت 1975م، ص 06.

3- الاحتلال الفرنسي والمقاومة في بلاد القبائل

تقع منطقة القبائل «شرق ولاية العاصمة وهي تمتد من وادي "يسر" غربا (ولاية بومرداس) إلى جبال "البابور" شرقا (ولاية سطيف)، ومن البحر شمالا إلى ولايتي البرج، والبويرة جنوبا، وتشكل حاليا إجمالية أراضي ولايتي بجاية وتيزي وزو وأجزاء من أراضي ولايات سطيف، برج بوعرييج، البويرة وبومرداس»¹.

ويعتبر سكان هذه المناطق قبائلا عاشت في كنف تاريخ عتيق، حيث يعرفون باسم "الزواوة"، أما عن تسمية "القبائل" فقد أشار الباحث محمد أرزقي فراد إلى أنها «من المرجح أن يكون الأتراك العثمانيون وراء ترويج هذه التسمية»²، وأكد على أن الفرنسيين أخذوها عن الأتراك، معتبرا أن تسمية "الزواوة" ظلت راسخة في وجدان جماعات القبائل وعبر الأزجال والأشعار والأغاني التراثية، ثم يضيف إلى أن تسمية القبائل كمصطلح، مشتق من «كلمة "قبيلة" العربية، ولا يحمل مدلولاً عرقياً، بل كان يقصد به سكان الأرياف، وقد استعمله في هذا المعنى سكان مدن قسنطينة وعنابة والجزائر الذين أطلقوا على سكان الجبال القريبة من مدنهم، وبالنظر إلى توافد سكان جرجرة بكثرة إلى مدينة الجزائر بحكم قربهم منها»³.

وقد كانت هذه المنطقة ككل المناطق في الوطن قد عرفت المقاومة الشعبية بكل أبعادها، منذ أن دخل المستعمر الفرنسي للأراضي الجزائرية، «إذ توالى المقاومات الشعبية بشكل تصاعدي توازي رغبة هذا الدخيل الأجنبي في الاستيلاء على كل ربوع القطر الوطني، ولكن إن حقق بعض مآربه في أجزاء متفرقة من بلاد الجزائر الواسعة، فإن منطقة القبائل بطابعها الجغرافي المميز، وبمؤسساتها التنظيمية القبلية الخاصة،

¹ - محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر 2006، ص11.

² - المرجع نفسه، ص 12.

³ - المرجع نفسه، ص 150.

تبقى بعيدة المنال عن كل طارق أجنبي يرمي إلى خرق حرمة مقدساتها الأزلية، الموروثة عن الأسلاف منذ عدة قرون خلت»¹.

وكانت المقاومة في بلاد القبائل قد زادت عمق تلك العراقيل، نتيجة الموقع الهام لتلك البلاد، «وكان الفرنسيون أنفسهم يتحاشون الاصطدام مع سكان الجبال لأنهم كانوا يعرفون غيرتهم الوطنية وحبهم للنظام القبلي»²، كما كانوا متكاتفين بشكل يخلق صعوبة كبيرة في اختراقهم، و«بالفعل فإن منطقة القبائل ظلت في منأى عن قبضة هذا العدو الغاشم، لما يقارب نص قرن من الزمن، حتى أضحي هدف الاستيلاء عليها رغبة عارمة، وهاجسا قويا يلزم العديد من القادة والجنرالات في صحتهم وغفوتهم، لا سيما أنهم يدركون أن مثل هذا الإنجاز العسكري قد يدخل صاحبه التاريخ من بابه الأوسع»³.

ورغم ذلك فقد شهدت بلاد القبائل جرائم بشعة من تحطيم للنظام القبلي والفكري السائدين، و«ساد الشعور بين الجزائريين بالتضامن لمواجهة الاحتلال والقضاء عليه، وقد كان هذا الشعور يتمثل في الانضمام إلى الجماعات الدينية والوطنية»⁴، ورغم ذلك التمسك وذلك الانتباه لم تياس فرنسا الاستعمارية من ترسيخ مبادئها، فعمدت إلى توظيف كل الوسائل والمعدات حتى يصل الفرد الجزائري مرغما أو بنفسه إليها ويعتق مذهبها وينتمي إليها.

لقد كان لبلاد القبائل دور هام في الصمود أمام المستعمر منذ محاولاته الأولى في الدخول إلى عمق ذلك المجتمع، باعتبار أن بلاد القبائل ظلت مؤمنة بقداسة تاريخها وترباتها، وبما تمتلكه من قيم ومبادئ راسخة، ومن ثم «استطاع السكان أن يمنعوا توغل

1 - محمد جلاوي: الشعر القبائلي التقليدي، دار ميمونة، ط1، الجزائر 2009، ص 272.

2 - عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري، دار الجيل، ط1، بيروت 1991، ص 30.

3 - محمد جلاوي: المرجع السابق، ص 272.

4 - عبد العزيز شرف: المرجع السابق، ص 26.

المستعمر حتى سنة 1855م»¹، مستعينين بكل إرادة وعزيمة للدفاع عن عرضهم وأرضهم، فلم يتقبلوا هذا الدخول المليء بالسلم المغيب لكل موروث راسخ في عقيدتهم الدينية والوطنية، ولكن لم تكن كل تلك المحاولات لتمنع هذا الغازي من متابعة مواقفه ضد الجزائري، وفي بلاد القبائل، فقد «التفت المارشال راندون إلى بلاد الجرجرة فسار إليها بجند جرار، ونهضت الجرجرة للقتال نهضة رجل واحد، واشتعلت سلسلة من الوقائع الممتابعة، كانت أكبرها موقعة "بني منقلات" فاندحر القبائل، واضطرت أكبر فرقه إلى الرضوخ والاستسلام»².

¹ - عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري، المرجع السابق، ص 30.

² - أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، ط1، الجزائر 1931، ص 58.

II - أثر الاحتلال الفرنسي على المجتمع القبائلي

ظلت أنفاس المقاومة تواجه أعاصير الرياح الغربية التي حاولت التوغل في عمق المجتمع، وتفكيك مبادئه كي تتمكن من بناء مستويات أخرى تحاول أن تحوّل هذه المجتمعات إلى ما تتنازعه رغبتها، فيتمكن المستعمر من نيل مبتغاه، وكانت أولى الخطوات في سبيل ذلك محاولات متتالية لهدم هذا الإطار العام الذي يجمع شمل القبائل ويقوي شوكتها، بالإضافة إلى التوغل أكثر في خلق مناهج وآليات جديدة تغيّر بنية هذه الجماعات، كتأثيرها في العملية التعليمية، وتهميش الثقافة الإسلامية، وزرع أفق اللغة الفرنسية كطريق نحو هوية جديدة تضرب جذورها في كل عمق، لكنها بطبيعة المواقف واجهت مقاومات فكرية متنوعة تكون عالية التركيز أحيانا وتضعف أحيانا أخرى.

1- هدم الإطار القبلي:

من المفاهيم والأفكار التي جاهد المستعمر في تطبيقها على الأهالي، تجمعت أسسها في القانون المشيخي لسنة 1863م، حيث استغل كل قوته لذلك، مبررا كل خطابه هذا بمحاولات ادماج الأهالي في أنظمة فرنسية تساهم في تفكيك النظام القبلي واستبداله بمفهوم الفردية، مع الأخذ بالاعتبار أن هذا القانون يهدف إلى الحفاظ على ملكية القبائل للأراضي، حيث «اقترح الإمبراطور قانونا صادقا عليه مجلس الشيوخ بتاريخ 22 أبريل 1863م، تنص مادته الأولى أن "القبائل تعتبر مالكة للأراضي التي تستغلها بصفة دائمة وعرفية، بأي صفة قانونية كانت"، أثارت هذه المادة، على عكس سواها من بقية المواد غضب المستوطنين ضد نابليون»¹، بحيث لم يستسيغوا أن

¹ - حسن قيطوني: بلاد القبائل الحضرة عبر التاريخ، ت: عز الدين بوكحيل، دار القصبه للنشر، ط1، الجزائر 2015، ص 204.

يتحوّل الأمر إلى مملكة عربية يزوب داخلها المبادئ الاستعمارية، ويضيع داخلها حق المستوطن الفرنسي، وتضيع الجهود والأسباب التي جعلت فرنسا تستعمر الجزائر. وقد «وضع الغليان أسس الحزب الكولونيالي الذي كان في طور التكوين. فوزعت مناشير شديدة اللهجة من طرف ممثلي الحزب، يستتكرون فيها النظام العسكري ويتهمونه بكونه وراء كل مآسي الجزائر. كان برنامج الحزب ينحصر في ثلاث نقاط: تغيير النظام العسكري بنظام مدني، إنشاء الملكية الفردية باستعمال القوة، القضاء على الإقطاعية العربية»¹، ومن ثم تتجمع الأهداف في تفكيك النظام القبلي السائد الذي يحتكم على ملكية الأراضي من خلال الجماعة، إلى وضع صورة أحقية الفرد في التملك، ومن ثم تأتي المرحلة التالية في إقصاء هذا الفرد نفسه، ولهذا كان الخطاب المبدئي هو تحفيز الملكية الفردية بتخليص الأهالي من النظام القبلي البالي في تصورهم، ومن مظاهره التي تركز على القيادة التقليدية. ويمكن تلخيص التغييرات التي أحدثها القانون المشيخي في بلاد القبائل الحضرية في أربع نقاط²:

- إنشاء "الدواوير" التي هدمت النظام القديم المبني على القبيلة وفروعها الطبيعية (الفرع، المشتى، العائلة)
- لا تمت الجماعات الجديدة المعينة من قبل الإدارة والمشتغلة تحت رقابتها بأي صلة إلى المؤسسات التقليدية، بل كانت انكارا لها.
- تملك مصلحة أملاك الدولة لمساحات شاسعة من الغابات حرمت مربي الماشية من أراضي مخصصة للرعي.
- تحديد الوعاء الضريبي حسب قاعدة منظمة أحسن.

¹ - حسن قيطوني: بلاد القبائل الحضرية عبر التاريخ، المرجع السابق، ص 204.

² - المرجع نفسه، ص 207.

وهذا ما انطبق على العديد من مناطق الجبال القبائلية التي كانت متحصنة في جماعاتها وبيئتها وجبالها الوعرة والصاعدة، حيث انتهج المستعمر هذا الأسلوب كي يتمكن من امتلاك هذه الجماعات وضمها إلى صفوفه.

2- التعليم ودور المرابطين والزوايا في تنمية الوعي وثقافة المجتمع:

2-1 دور المرابطين والزوايا في المجتمع القبائلي

استطاع المرابطون¹ أن يؤسسوا لثقافة اجتماعية هامة كانت عضدا لهم في التحام تلك الجماعات، خاصة أنهم استطاعوا أن يحققوا توازنا اجتماعيا جعل لصوتهم أهمية كبيرة في بلاد القبائل، وذلك من خلال فهمهم لدور القيم الإسلامية في تثبيت الأخلاق ونشرها بين الجماعات القبائلية، فلقد كان دورهم يهدف أساسا إلى إبعاد كل النزاعات والخلافات والتوترات التي قد تفكك الأسر وتفكك بالمجتمعات، وكانت لغتهم في ذلك لغة الرحمة والصبر والمسامحة، انتهلوا من القيم الإسلامية ما يمكن أن يخدم هذه الرؤية، «كما حاربوا الجهل بنشر العلم والتعليم العربي بواسطة المدارس القرآنية والكتاتيب والزوايا "ثيمعمرين"، وبفضل هذا الدور الحضاري استطاع المجتمع القبائلي أن يحافظ على توازنه رغم غياب الدولة لعهد طويلة وقرون عديدة قبل الاستقلال، خاصة خلال عهد الأتراك الذين عجزوا عن اختراق هذه المنطقة وكذا عهد الاحتلال الفرنسي الذي لم يعرف المواطنين منه سوى الويلات والقهر والمعاناة»².

ولم يكن المواطنون في بلاد القبائل قد تركوا حضاراتهم السابقة، بل ظلت جذورها داخلهم، وكانت لغتهم الأمازيغية إلى جانب اللغة العربية تشكل منبعا للقيم والأخلاق والتقاليد الأصيلة بفعاليتها الحضارية، فلم يتخل الأمازيغ عن تراثهم، بل مزجوا ذلك مع ما نشره الدين الإسلامي من قيم لم تكن بعيدة عن تراثهم الثقافي المهتم بالإنسان وعلاقته مع الإنسان الآخر، في الأسرة والمجتمع المتماسك ككل، وقد «نجح هؤلاء المرابطون الأشراف في إحداث عملية التثاقف بين القيم الإسلامية والنظم الاجتماعية

¹ - المرابطون هم مجموعة من القبائل الأمازيغية (المتونة، جدالة، مصمودة...) أسست دولة المرابطين في الصحراء الغربية وموريطانيا في حدود منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، معتمدة على المذهب المالكي. أنظر: محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، المرجع السابق، ص 23.

² - المرجع نفسه، ص 23.

الأمازيغية الأمر الذي أدى إلى انتشار الطمأنينة والسكينة وهو ما جعل المواطنين يسندون لهم زمام أمورهم عن طواعية واقتناع، ويغمرونهم بفيض الاحترام والتبجيل تقديرا لدورهم الاجتماعي الإيجابي»¹.

وقد أضحى المرابطون الأشراف يشكلون نقطة اتزان بين الجماعات، وهم القادمون من أماكن مختلفة خاصة بلاد الأندلس، « فقد تدعم تواجد المرابطين الأشراف في منطقة القبائل خاصة منذ القرن السادس عشر، بعد انهيار آخر إمارة للمسلمين في الأندلس وهي إمارة غرناطة سنة 1492م»²، وهذا فعلا ما ذهب إليه الباحث محمد أرزقي فراد³، ورجح انتساب بعض المرابطين إلى أدارسة الأندلس، ومن خلال جمالية المكان الذي تحتكم عليه الجزائر خاصة منطقة القبائل المفتوحة على البحر أكد على هذا الرأي باعتبار وجود قرية في "أزفون" تحمل اسم (آث واندلوس) أي أهل الأندلس. وقد تأكد الفاتحون الذين دخلوا بلاد القبائل أن سكان هذه المناطق يمكن أن يخدمونهم في مشاريعهم نحو الفتوحات، « لذلك تركوا في كل قرية عالماً مستتيراً أطلق عليه اسم "المرابط" يتحتم عليه تعليل كل ما يريد منهم أن يتبنوه في صالحهم، وفي سبيل الوصول إلى سعادة مشتركة»⁴.

¹ - محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، المرجع السابق، ص 23.

² - المرجع نفسه، ص 25.

³ - محمد أرزقي فراد، كاتب وأستاذ باحث في التاريخ بجامعة الجزائر، متخصص في التاريخ الثقافي لبلاد الزاوة، أصدر عدة كتب، منها «التصوف بعنوان "الحاج محمد السعيد تازروت إطلالة على الشعر الصوفي الأمازيغي"»، ومنها كتاب «إطلالة على بلاد القبائل»، بالإضافة إلى ذلك يعتبر محمد أرزقي فراد مؤرخ كتب في العديد من الجرائد الوطنية مهتما بشكل خاص بقضايا الأمازيغية. أنظر: محمد سلطاني، أدعياء نصرانية القبائل قديما معاكسون لحقائق التاريخ، جريدة البلاد، نشر بتاريخ 20-04-2011، اطلع عليه بتاريخ: 22-11-2017، عن موقع جزايرس: <https://www.djazairiss.com/elbilad/29073>

⁴ - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، ت: العربي الزبيري، وزارة الثقافة، الجزائر 2009، ص 16.

لكن من جهة أخرى يؤكد الدكتور أبو القاسم سعد الله انتماء الكثير من المرابطين إلى القبائل، حيث «أثبت الباحثون الفرنسيون أنفسهم أن المرابطين لم يكونوا كلهم من "العرب"، بل كان أغلبهم من المستعربين البربر الذين أخذتهم الغيرة على الدين الإسلامي ولغة القرآن فأنشأوا لذلك الزوايا ونظاما تعليميا دقيقا تعجز عنه في وقته بعض الوزارات في البلدان الأخرى»¹.

وهو ما أسس لحضوره داخل المجتمع الجزائري من خلال بعدين هامين، البعد الديني الذي تشربه الفرد الجزائري بمختلف أعراقه، والبعد التعليمي التثقيفي الذي امتهن اللغة العربية كلغة علم ودلالة وحياء، فلم يكن المرابط يعبأ بانتمائه العرقي بقدر هدفه في لم الشمل تحت لواء الاعتقاد والحرية والولاء لرسالة النبي ﷺ، وقد توصل هانوتو ولوترنو إلى «أن المرابطين كانوا من كل "الأعراق"، وتوصلا كذلك إلى أن منهم من كان تركي الأصل ومن كان زنجياً، ومن كان غير ذلك. وقد نفيا ما ادعاه الجنرال دوماس E. Dumas من أن أصل المرابطين في زاوية أندلسي، وكذلك ما ادعاه بعضهم من أن أصلهم من الأشراف»².

وفيما يخص هذه التسمية (المرابط) فهي مشتقة من كلمة « ربط العربية التي تعني الالتزام والتعهد، أي أن المرابط يعاهد الله على ألا يتصرف إلا لما فيه خير الإنسانية. ولذلك، فحتى بعد موتهم، يبقى هؤلاء المرابطون محل توقير دائم، وتدفن أجسامهم في قبر يحاط بتابوت يمكن أن يلجأ إليه كل مجرم... وهكذا فإن المرابط، وهو ميت، قد يحظى باحترام يفوق الذي كان من الممكن أن يحظى به وهو حي»³.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص 181.

² - المرجع نفسه، ص 181.

³ - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، المرجع السابق، ص 19.

وقد ذهب صاحب كتاب "المرآة"¹ إلى أن « وجود هؤلاء المرابطين في المجتمع الإفريقي نعمة، إذ بمجرد ما لهم من نفوذ على هذه الشعوب يسكتون أسلحة الخصوم، ويمنعون إراقة الدماء. وإن سلطتهم على نفوس القبائل الجاهلة المحدودة النظر لعجيب»²، وهذا ما تطرق إليه في صور متعددة، حيث نجد « المرابط الذي يعرف أغراض دينه يعرف كيف يسخر تسخييرا مثمرا وذكيا جميع الوسائل الموجودة بين يديه، إنه لن يقول للقبائل: يجب أن تطيعوا القانون، وعليكم بالاستماع إلى الموعظة واتباعها، وإنما يقول لهم: لعن الله من لا يفعل كذا وهكذا يجعلهم يطيعون ويحصل منهم على كل ما يريد، وإذا اقتضى الأمر فإنه يستعمل عبارات مطلقة تبدو كأوامر العلي الجبار. غير أن هؤلاء المرابطين يتصرفون بلطافة وكياسة ولا يسمحون أبدا بأي تجديد ولا يقومون بأي شيء مما يمكن أن يتعارض مع كرامة أو عادات الشعب وبهذا السلوك يحتفظ هؤلاء المرابطون بنفوذ لا حدود له»³.

وربما ندرك من خلال ذلك أن سلطة المرابط ليست في ذاته بل داخل المنحة المقدسة التي وهبها له الدين، باعتباره مقربا من الله، هذه السلطة الرمزية التي امتلكها من خلال تقديس الناس للدين ومن ثم لكل من يمثل الدين، فكأنهم رهبان وهبهم العلي القدير سلطته، ودليل ذلك العبارة التي يتمثلون فيها الله جل وعلا في قول المرابطين حين يستعملون عبارات مطلقة تبدو كأوامر من الله، فهم يعتبرونهم الناطقون باسم الله، لما لهم من مكانة عنده وبما منحهم من خيارات بركاته، لذلك لا يستطيعون رد أوامرهم خوفا من العلي الجبار، وليس خوفا من المرابطين أنفسهم، لأن أي تجديد كما ذكر

¹ - ولد حمدان خوجة بالجزائر العاصمة حوالي سنة 1775م في عهد الداوي محمد عثمان باشا من أب تركي وأم جزائرية، وكانت وفاته بإسطمبول سنة 1840م. أنظر: محمد الطيب عقاب، حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، وزارة الثقافة، الجزائر 2007، ص 19.

² - حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، المرجع السابق، ص 19.

³ - المرجع نفسه، ص 22.

الكاتب أو أي مبادرة تتعارض مع كرامة أو عادات هذا الشعب قد تنقلب لديه التصورات وتضيع هيبتهم، فهم يركزون على عدم تجديد خطابهم الذي أكسبهم تلك السيطرة وذلك النفوذ، وهذه الصورة تؤكد على أن جماعات القبائل تعظم بعدين هامين؛ هما العادات والتقاليد المتوارثة التي تتضمن كرامة الشعب، والدين باعتباره غذاءً للروح ودافعاً مهماً لتحمل البؤس والشقاء، ولعل هذه السلطة الدينية قد وجدت فضاءها بين هذه الوجوه البائسة، لتتحول إلى سلطة رمزية «من حيث هي قدرة على الإبانة والإقناع، وإقرار رؤية عن العالم أو تحويلها، ومن ثمة قدرة على تحويل التأثير في العالم، وبالتالي تحويل العالم ذاته، قدرة شبه سحرية تمكن من بلوغ ما يعادل ما تمكن منه القوة (الطبيعية أو الاقتصادية) بفضل قدرتها على التعبئة»¹.

كما لصاحب كتاب "المرأة" إضافات أخرى تعطي صورة واضحة المعالم لجهل منطقة القبائل، وكأن هؤلاء الناس يعيشون في مغارات لا يتكلمون إلا بالدماء، هذه الصورة التي نقلت مغالطة كبيرة توحى بأن هؤلاء القبائل لم يعرفوا التعليم والحضارة إلا بعد وجود المرابطين، وهذا ما دفع الباحث محمد أرزقي فراد إلى تنفيذ هذه الرؤية موضحة مكانة القبائل في التعلم والتعليم والكتابة والتاريخ والشريعة ونشر القيم السمحة، حيث ذهب إلى أن «شرشال -مثلا- التي أسس بها الملك أقليد يوبا الثاني جامعة عظمى، تم فيها تدوين أقدم قصة في العالم ورسم أول صورة للجزيرة العربية»²، وتحدث عن أصالة وتراث منطقة القبائل وما أنجنته من علماء كان لهم وزن كبير في تاريخ الجزائر، وأضاف أن « ما يدل على ازدهار العلم في هذه المنطقة التي يصفها حمدان خوجة بالجهل والتوحش، تخصيص العالم أحمد الغبريني (من آث غبري قرب عزازقة

¹ - بيير بورديو: الرمز والسلطة، ت: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط 3، المغرب 2007، ص

55، 56

² - محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، المرجع السابق، ص ص 118، 119

حاليا) كتابا خاصا بعلماء المائة السابعة للهجرة ببجاية فقط بعنوان (عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة للهجرة) «¹، ولعل الأستاذ حمدان بن عثمان خوجة لم يكن يقصد كل هؤلاء، باعتبار أنه لم يمكث في رحلته حسبما ذكر إلا عند بعض الأفراد الأميين الذين يعيشون في قرى يقل فيها هؤلاء العلماء، وينشغلون بمهمومهم اليومية، وربما هذا هو حال الكثير من المواطنين في الأماكن النائية والقرى الجبلية البعيدة التي لم تصلها المدارس ولم يجتهدوا التعليم المدرسي أو الديني، كما أن ملاحظة الباحث محمد أرزقي فراد في محلها كي لا يؤخذ كلام الأستاذ حمدان خوجة بعين العموم لا بوضع الخصوص.

كان للزوايا دور هام في التربية والتعليم وبعث روح الأخلاق السامية داخل الجماعات في بلاد القبائل، فلم تكن مجرد تعليم يفرضه منطق الدين، بل كانت مؤسسات لها بعدها الاجتماعي والسياسي والديني الأخلاقي، وقد تأسست الزاوية بمساهمة « العلماء وأولياء الله الصالحين، بمعونة السكان الذين تبرعوا بالأرض وأوقفوا حصصا من عقارهم لخدمة الزوايا، علما بأن معظم هؤلاء المؤسسين هم عناصر طارئة على المنطقة، قدم بعضهم من مدينة بجاية بعد اضطراب حبل الأمن بها زمن الدولة الحفصية، وتخريبها واحتلالها من طرف الإسبان في مطلع القرن السادس عشر، الأمر الذي دفع العلماء إلى الهروب نحو المناطق الداخلية وعمق القبائل حيث أسسوا عدة مدارس»².

وتعتبر الزاوية من بين المشاريع التي فاعل معها الفرد والجماعة، فقد تكاتف الجميع من أجل استمرار هذه المؤسسة التعليمية والاجتماعية التي نتجت من داخل المجتمع وبقي محافظاً عليها في ظل الظروف القاسية التي مرّت بها البلاد، «وتسمى الزاوية

¹ - محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، المرجع السابق، ص 119

² - المرجع نفسه، ص 75.

(معمرة) في منطقة زاووة. وهناك معمرات القرآن ومعمرات الفقه، كما سنذكر. ويرجع بعضها إلى تواريخ قديمة مثل زاوية اليلولي وزاوية بن ادريس، وزاوية شلاطة وزاوية تيزي راشد. ويرجع بعضها إلى العهد الفرنسي فقط»¹.

وقد ساهمت الزوايا في نشر الوعي الوطني بمجابهة العدو الأجنبي، حيث كثفت دورها في هذا الجانب بشحن الهمم نحو صد كل التدخلات الأجنبية، والمساهمة في ذلك بالنفس والنفيس، «وهكذا نرى أن الزوايا في منطقة القبائل كانت -غداة الاحتلال الفرنسي للجزائر- تتمتع بنفوذ روحية وسياسية واسعة، جعلتها في مواجهة مكشوفة مع الاستعمار الفرنسي منذ نزوله في سيدي فرج في جوان 1830، فقد ذكر الضابط الفرنسي "جوزيف نيل روبين Joseph Nil Robin" أن منطقة القبائل قد استجابت لنداء الداي حسين الذي طلب من أهلها دعم صفوفه للجهاد في سبيل الله. وعلى إثر ذلك طلب الأعيان وشيوخ الزوايا من جميع الأطراف المتحاربة وضع حد للصراعات المحلية استعدادا للجهاد ضد الاحتلال الفرنسي»²، وربما هذه الوقائع هي ما أشار إليها حمدان بن عثمان خوجة حين قراءته للجماعات القبائلية التي أكد فيها أنها كانت متناحرة تقاتل بعضها بعضا، حيث تتعدد بينهم الحروب وتتكاثر الخلافات، إلا أن لكل ذلك حدود حين تتدخل القوى السلطوية داخل تلك الجماعات وتحد من تلك الصراعات، ويستتب الأمن والسلم.

ولعل من أهم الركائز التي استندت عليها فرنسا لدعم تواجدها من خلال المجتمعات الجزائرية هي قراءة دقيقة وفاحصة لدور الزوايا في الجزائر، فقد «سجلت الزوايا القرآنية صفحة تاريخية مهمة في الجزائر وتاريخها السياسي والثقافي والديني يبيث هذا على الدور العظيم الذي قدمته الزوايا في نشر الوعي الديني والثقافي في المجتمع الجزائري

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص 182.

² - محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، المرجع السابق، ص 76.

منذ نشأتها. فالجزائر لم تعرف الزوايا إلا بعد القرن الخامس الهجري. ومع مرور الزمن تطور أمر الزاوية وزادت أهميتها وخاصة خلال القرن العاشر الهجري بعد سقوط الأندلس وامتداد الأطماع الأوربية إلى السواحل الجزائرية¹.

ورغم ما جادت به الزوايا من تفعيل لأدوار العلم والتربية وما ساهمت من خلال قيمتها داخل المجتمع، إلا أن الاستعمار لم يكن بعيدا عن أجوائها ولم يترك لها حرية التقدم والتطور، بل جابهها بكل ما أوتي من وسائل لتثبيط الهمم ومحاولات متعددة لكسر هذا السيل الكبير الذي تحتويه الشخصية الجزائرية، فحوربت هذه الزوايا من خلال بناء مفهوم جديد للتعليم داخل المدارس الفرنسية، وحوربت على « عدة جبهات:

1- الأولى هدم بعضها ومصادرة أملاكها وأملاك الباقيات منها، وضم مداخلها إلى أملاك الدولة الفرنسية، في المدن أولاً ثم في الأرياف لاحقاً.

2- الثانية إنشاء المدارس الفرنسية الابتدائية في المدن ثم في الأرياف لسحب التلاميذ من الزوايا ونشر التأثير الفرنسي ازاءها.

3- الثالثة محاربة كبار المرابطين واستدراجهم بالوظائف والزواج المختلط، وتشجيع الدروشة والتدجيل بدل التعليم.

4- وأخيرا منع الزوايا من نشر التعليم العام وفرض برنامج ضيق عليها لا يتعدى تحفيظ القرآن الكريم دون تفسيره أو تعليم قواعد اللغة وأصول الدين دون فهم².

ولم يصل الأمر إلى هدم بعض الزوايا، وتضييق الخناق على بعضها بل إلى تعذيب شيوخها والتنكيل بمريديها الخاضعين إلى سلطتها، فقد كان الطلبة يُعدّون «لخدمة القضية الوطنية حيث التحق العديد من طلبة الزوايا بصفوف الثوار وأمام هذا

¹ - طيب جاب الله: دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، العدد 14، السنة الثامنة أكتوبر 2013.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص 173.

الدور الكبير للزوايا لم يتردد الاستعمار في تدمير أغليبيتها وغلق عدد آخر منها وتحويل عدد آخر إلى ثكنات عسكرية تابعة للجيش الفرنسي، كما ذاق مشايخ الزوايا أقسى أنواع التعذيب ووصل الأمر إلى إعدام بعضهم ورغم ذلك لم يستطع الحد من نشاطها مما جعل الأبواب مغلقة في وجهه والطرق مسدودة أمامه ولم يجد منفذا يتسرب منه إلى داخل الأمة المعتصمة بالقرآن والتمسكة بالإسلام»¹، وهذا يرجع دائما إلى قوة الاستمساك بالعروة الوثقى التي تتلخص في قوة الإيمان بصلابة الدين والالتفاف حول تعاليمه، وهو ما جعل فرنسا تفكر مليا في زعزعة ذلك الالتحام، بخلق طرق متعددة تحد من تلك الصلابة وتحاول أن تلين تلك القلوب الخاضعة للزوايا، وذلك بأفكار متعددة حيث استعملت «أساليب الترغيب لكسب ودها والتحكم فيها فأصدر مرسوم في 12 يونيو 1960، يقضي بصرف منحة تشجيعية شهرية قدرها 300 فرنك قديم لكل شيخ زاوية أو كتاب يأمر طلابه بتخصيص ساعتين لتعليم اللغة الفرنسية. ورغم الظروف الصعبة لم يتقدم أي شخص للاستفادة وبالتالي ولد المرسوم ميئا»².

ولعل ذلك التمسك لم تدرك قوته فرنسا، باعتبار أن الجزائر قبل الاحتلال لم تخضع للتعليم النظامي، الذي قد يشئت ربما توجهات الطلبة وتكثر الاختصاصات فينفتحون على عوالم متعددة، بل كانت الزوايا هي التعليم المنتشر في الجزائر خاصة في عهد الأتراك، مما يجعل النظام موحدًا في جميع الأقطار والأمصار، وهذا ما أكده الدكتور أبو القاسم سعد الله حين تطرق إلى سياسة التعليم في الجزائر، وقال إنه «لم يكن للسلطة العثمانية في الجزائر سياسة للتعليم، ولعل الصحيح في هذا الصدد أن نقول إنه كان لهذه السلطة سياسة وهي عدم التدخل في شؤون التعليم. فإذا انتشر

¹ - طيب جاب الله: دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، المرجع السابق.

² - المرجع نفسه.

التعليم فالأمر لا يعنيها وإذا تقلص فالأمر كذلك لا يعنيها»¹، كما علق على بعض الاستثناءات القليلة جدا لهذه الرؤية، وخص بعض البايات مثل محمد الكبير وصالح باي، الذين كانت لهما محاولات تساهم في مجال التعليم، «لكن هذه المحاولة كانت أولا فردية ولا تقوم على خطة مدروسة، وكانت ثانيا لا تخرج في محتواها عما قلنا، من تبعية التعليم للدين حتى عند هذين الرجلين، فالمدارس التي أسساها كانت تابعة للمساجد والكتب التي حبساها كانت تلبية للشعور الديني عندهما وليس للشعور العلمي»²، ومن ثم يتجسد في منظور هذه الرؤية، أن التعليم كان كله هو الدين بكل معطياته الفقهية والتفسيرية وما جاد به الحديث من أقوال وأفعال، وبذلك احتوى مفهوم التعليم لدى العامة والخاصة البعد الديني بكل تمظهراته، فتحوّل التعليم من علم دنيوي إلى ضرورة غيبية تأمر العبد فيطيع، فكانت سلطته بذلك سلطة رمزية لها فعلها المادي المتجسد على أرض الواقع، ولم يكن من السهل أن تخترق فرنسا كل هذه المفاهيم المتأصلة في الذات الإسلامية، إلا بخلق نموذج جديد للشخصية الإسلامية تحاول من خلاله أن تثبت مفاهيمها، فكانت المدرسة الفرنسية تحاول ذلك.

2-2 التعليم بمنهج استعماري

لا شك أن الفعل الأساسي الذي حاولت به فرنسا أن تغيّر به العقلية الجزائرية والتفكير الجزائري هو تكثيف التعامل باللغة الفرنسية، وتعميق اندماجها داخل المجتمعات، ومن ثم تهميش اللغة العربية واللغة الأمازيغية واغتيالهما في عقر حضارتها، بل وإقصائهما تماما فقد حرّمت على «المسلمين استعمال لغتهم بالذات،

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار البصائر، ط خ، الجزائر 2007، ص 314.

² - المرجع نفسه، ص 314

فاللغة العربية تعتبر في الجزائر لغة أجنبية منذ عام 1830م... لكنها لم تعد لغة مكتوبة إلا بالقوة، لا بالفعل»¹.

ومن السهل أن يقف المستعمر في بلاد القبائل التي تحمل هوية متعددة وثقافات مختلفة كي تحاول أن تفصلها عن المجتمع العربي الإسلامي بدعوى تطوير هذه المجتمعات ورغبة في تهميش الجانب العربي، لذلك تحدث الأستاذ أحمد توفيق المدني عن خطورة هذا الوضع حين تطرق إلى بربر بلاد الجرجرة المسماة بلاد القبائل الكبرى وقال إنهم « يمثلون الكتلة البربرية العظيمة ببلاد الجزائر، لرجالهم اليوم إيمان قوي وبقين ثابت إلا أن العربية أصبحت فيهم ضعيفة جدا والتعليم العربي والديني أصبح شبعا ضئيلا رغم استمرار معاهده الكبيرة كزاوية بني منصور وزاوية سيدي اليلولي واضرابهما على التعليم والتدريس، والمدارس اللائكية تبث التعليم هنالك بصورة منتظمة منعدمة النظر بالقطر الجزائري ورجال التبشير حطوا هنالك رحالهم وشيدوا مدارسهم للبنين والبنات، فإن كانت بلاد الجرجرة مزدانة اليوم برجال يعدون من فطاحل علماء القطر الجزائري ورجاله العاملين، فمن ذا الذي يخلفهم من بعد؟»².

في حين جابه آخرون هذه الحملة التي هدفت نحو زرع ثقافة مختلفة في بلاد القبائل، والتصدي لحتمية التعليم باللغة الفرنسية، حيث أحس الكثير من علماء المنطقة والمربين بأهمية تنمية الروح الدينية الإسلامية وذلك بنشر هذه التعاليم بالأمازيغية، والتوغل بهذا الفكر في عمق الجماعات التي تسكن هذه المناطق الجبلية الوعرة، ولعل بدايات هذا الفعل كانت ضمن اللجان التي درست الوضع في الجزائر، حيث « نصبت لجان رسمية، وزار الجزائر أمثال أليك سدي طوكفيل، وخرجوا جميعا برأي عن تجربة التعليم في الجزائر ماضيا وحاضرا. ويتلخص هذا الرأي فيما يلي:

¹ - جان بول سارتر: عارنا في الجزائر، المرجع السابق، ص 18.

² - أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 128.

1- الاستمرار في إهمال التعليم العربي الإسلامي وعدم رد الأوقاف إليه، رغم تشبث السكان به ومقاطعتهم المدرسة الفرنسية.

2- إنشاء تعليم مزدوج خاص بالجزائريين تدرس فيه اللغة العربية على أن تكون فيه الفرنسية وعلومها هي السيدة، ابتداء من سنة 1850.

3- ترك التعليم في الزوايا الريفية والمعمرات على ما هو عليه مع مراقبة برنامجهم ومعلميه حتى لا تكون الزوايا مراكز لمعاداة الفرنسيين. وقد اعترفت جميع التقارير بأن التعليم العربي الإسلامي كان منتشرًا بين الجزائريين بشكل ملفت للنظر قبل الاحتلال، وأنهم بقوا متشبثين به رغم مصادرة الأوقاف وهجرة العلماء أو نفيهم.

يقول لويس رين: كان القرآن في الجزائر هو كل شيء، هو المعلم والتعليم. وكان الفرنسيون كلما حاولوا مشروع إصلاح فكروا في عدم المس بالمشاعر الإسلامية»¹. ويؤكد الدكتور أبو القاسم سعد الله² أنه « منذ الاحتلال حاول الفرنسيون جر الجزائريين إلى إدخال أبنائهم في مدارس فرنسية في المدن أولاً. وفي المرحلة الثانية أنشأوا ثلاث مدارس إقليمية (هي التي أسميناها الشرعية- الفرنسية)، لتمتص التلاميذ الذين كانوا من قبل يتوجهون إلى الزوايا الريفية وإلى المرابطين للتعلم، أو يقصدون المعاهد الإسلامية خارج الجزائر. أما خلال المرحلة الثالثة فإن الفرنسيين، قد أنشأوا

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار البصائر، ط خ، الجزائر 2007، ص 21.

² - شغل المؤرخ والأديب الراحل أبو القاسم سعد الله (1930 - 2013) الحياة الثقافية الجزائرية، طيلة أكثر من عشرية، كأديب ومؤرخ و مترجم، فكان رمز المثقف اليقظ، والمستقل البعيد عن التأثيرات السياسية وتوجيهاتها المناقبة للصرامة العلمية. فضل الدكتور سعد الله تركيز جهوده على البحث في تاريخ الجزائر الثقافي، وعلى إعادة الاعتبار لأعلام القرون المنصرمة. وإن لم يبحث في تاريخ حرب التحرير، فإنما فعل ذلك وفق رأي الدكتور رابح لونييسي= اعتقاداً منه أن التأثيرات الحزبية للمؤرخين كان لها وقعها، وذلك ما حاول نقاديه وتجنّبه. أنظر: حميد عبد القادر، أبو القاسم سعد الله فضل الجهد الأكاديمي على خدمة الإيديولوجيات، جريدة الخبر، نشر بتاريخ: 13-12-2015، اطلع عليه بتاريخ: 22-03-2018: [/https://www.elkhabar.com/press/article/96359](https://www.elkhabar.com/press/article/96359)

المدرسة الابتدائية الفرنسية بجوار الزوايا، وضيقوا -كما قلنا- على هذه الزوايا مجال النشاط، وفتحوا مع قادتها باب التدجين والتوظيف.¹

واهتماما من فرنسا بأبنائها المستوطنين، فقد باشرت في بناء المدارس لهم كي لا يضطر أهلها إلى تعليم أبنائهم خارج الجزائر وإرسالهم إلى فرنسا، وبذلك استطاعت أن تحل مشاكلها التعليمية شيئا فشيئا وتستضيف المستوطنين بشكل لافت للنظر، وعلى غرار ذلك كان الجزائريون لا يتمتعون بهذه المزايا التي تقدمها فرنسا لأبنائها، وظلوا تحت سياسة إقصاء وتهميش لم يستفيدوا من التعليم إلا النزر، وظل التعليم الابتدائي الفرنسي يزداد «انتشارا بعد انتشار الاستعمار في البلاد وحصول الآلاف من الأوربيين على الأرض الخصبة التي أقاموا عليها القرى وأقاموا بها واستثمروها لصالحهم. وكان ذلك بعد احتلال زواوة سنة 1857 وأثناء العهد المسمى بعهد التهذئة. وزاد ضغط المدنيين على العسكريين في الجزائر فحصلوا من الحكومة على القوانين الاندماجية التي تجعلهم يعيشون وهم في الجزائر بالقوانين الفرنسية والأحكام الفرنسية الجارية على مواطنيهم في بلادهم، ومن ذلك كل ما يتصل بالتعليم. وكان سقوط الامبراطورية وتولي الجمهورية الثالثة سنة 1870 فاتحة العهد الذي حل فيه الحكم المدني محل العسكري، وسيطر فيه الكولون (المستوطنون) على مقاليد الجزائر، إدارة واقتصادا»²، ومن هنا تغيرت بعض المعطيات رغم أنه ظل التمييز بين المتمدرسين الفرنسيين والجزائريين، بحيث تواصل الاحتقار للتعليم بالنسبة للجزائريين حتى الحرب العالمية الثانية، «وخلال 1944 طلع الجنرال كاتروا (الحاكم العام مدة قصيرة) بفكرة مفادها أن المدرسة باللغة

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص 173.

² - المرجع نفسه، ص 296.

الفرنسية هي السبيل الوحيد للتفاهم بين المسلمين (الجزائريين) والفرنسيين، واقترح لذلك خطة عشرية تضمن تعميم التعليم الفرنسي إلى أن يشمل المرأة أيضا»¹.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، المرجع السابق، ص ص 297، 298.

3- خصائص المجتمع القبائلي وصورة الواقع الاجتماعي:

يمكن أن نتطرق إلى بعض خصائص المجتمع القبائلي من خلال بعض المميزات بشكل عام، ومن خلال ما يجسده الطابع القبائلي لتلك الفئات في صورتها الاجتماعية التقليدية.

3-1- المظاهر الاجتماعية في المجتمع القبائلي:

ينسجم المجتمع القبائلي وطبيعة المكان والظروف الجغرافية المحيطة به، فنجد القرى والمدامر موزعة على منحدرات ودروب الجبال الوعرة، كما نجدها في أماكن بسيطة بين مرتفعات الجبال، وتبدو الحياة في تلك الفترة، قبل الاحتلال وبعده بقليل منسجمة مع تلك الحياة القاسية، فيظهر الرجال وقد ارتدوا عبااءات من الصوف بسيطة جداً، «والقماش من الصوف الأسود، وهو من صنع النساء، وبما أن هذه الصوف لا تغسل كما ينبغي، فإنها تصدر رائحة لا تطاق عندما تبللها الأمطار، وعندئذ يصبح هذا اللباس ثقيلًا جداً وهو بمثابة القميص والسروال وغيرهما في آن واحد»¹، ولعل هذا الصوف الذي ذكره الأستاذ حمدان بن عثمان خوجة كان هو المادة الأساسية في صناعة الألبسة، وكان هذا الرداء منتشرًا في تلك الفترة يساعد على تحمل الأعباء المتواصلة في تلك الطبيعة الجبلية، كما كان في مناطق أخرى يشتغل النساء على صنع ما يطلق عليه في بلاد الجنوب "القشابية"، وهي عباءة تصنع من صوف الأغنام والإبل، يعمل عليها النساء لفترة طويلة، تنسج من خلال أدوات تقليدية بسيطة تصنع من الخشب، كما يستعمل فيها بعض الأدوات التي تساعد على رص خيوط الصوف المغزولة جيداً مثل "الخلال"، وهي أداة صغيرة ذات رؤوس حديدية مدببة، وكذلك المشط أو "الغرداش"، وهو يساعد على جعل الصوف ناعماً، ولعل هذا اللباس عرفته المجتمعات البدوية منذ القديم لكن يتغير أسلوب حياكته من منطقة إلى أخرى، ومن

¹ - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، المرجع السابق، ص 23.

جهة أخرى فإن الأغنياء يلبسون خلافا لتلك العباءة المصنوعة من الصوف الأسود ما يسمى "البرنس"، «وهو دائما من نفس القماش، وشكله معروف في أوروبا، وهذا النوع من الكساء يرقع ويبقى إلى أن يتساقط إربا إربا، وعادة فإن برنسا واحدا يكفي لمدة حياة الإنسان لا يفارق الجسم، يتبلل وييبس على ظهر صاحبه إما بمفعول الهواء أو بفضل حرارة النار»¹، والبرنس يصنع أيضا من خلال نسجه مثل عباءات الصوف، لكنه يصنع جيدا ويحاك بطريقة مذهلة، تعمل النساء عليه لفترة طويلة حتى يصبح جاهزا، وتستعمل الأدوات نفسها في حياكته.

أما النساء فقد ذكر الأستاذ حمدان بن عثمان خوجة إنهن يتدثرن «في حائك يشبك بالدبابيس، ويصنع هو أيضا من قماش ينسجونه بأنفسهن، يكفّ هذا الكساء بقطعة أخرى من القماش ذي اللون الأحمر أو الأزرق، عرضها حوالي أربعة أصابع وتستورد هذه الصوف الملونة من مدينة الجزائر، والثريات من النساء يغطين رؤوسهن بقطعة من الكتان أو منديل قطني، أما الأطفال فإنهم عراة تماما»².

ولعل هذه المظاهر التي تتطبع على ما يرتديه هؤلاء السكان توحى بحقيقة الفقر الذي يتغلغل إلى الداخل، فالحياة ريفية جبلية تقليدية تتشكل من كل ما هو بسيط جدا، يستغل فيها السكان كل ما يجدونه أمامهم من أجل المضي قدما في صراع دائم ومستمر مع الطبيعة، «أما غذاؤهم فخبز الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف والبلوط، وإلى جانب ذلك فإن الأثرياء أي الذين يملكون عنزتين أو ثلاثا، يشربون الحليب، وهناك، أيضا من يملك عددا من المعز والشياه المخصصة للبيع في المدن. والقبائل، عادة لا يأكلون الأغنام ولا الدواجن ولا يذبحونها إلا عندما يؤمهم ضيف، لأن

¹ - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، المرجع السابق، ص 23.

² - المرجع نفسه، ص ص 23، 24

قانون الضيافة مقدس عندهم، ويعتبر ذلك اليوم في القبيلة، يوم عيد، يتطير فيه الأولاد فرحا وتذبح الشاه ثم يطهى اللحم مع الكسكسي»¹.

3-2- البعد الديني في المجتمع القبائلي:

ارتبط المجتمع القبائلي من خلال مراحل كثيرة بحضارات متعددة، شكلت لديه تنوعا خاصا في ثقافته الدينية، ولم يرتبط بالاسلام دون فهم وتقبل، وذلك وفقا للتنوع الذي شهدته حضاراته المختلفة، فهو لم يعتنق المسيحية رغم طرق التنصير المبذولة من طرف المستعمر، بل ظل على دينه الذي انسجم وطبيعة ثقافته المسالمة والمدافعة عن القيم الإنسانية (رغم تنصر الأقلية)، فمجتمعا لم يختلف المجتمع القبائلي القديم عن حياة العرب وتمثلاتها على الواقع، فقد عرفوا الشجاعة والكرم والفروسية، ودافعوا عن القيم والأخلاق السامية والشرف والنبل والشهامة، ومارسوا سبل الحياة وشقائها وتفاصيلها بالدرجة المجتمعية نفسها، و«لولا تلك العلاقات القديمة والمتواصلة والمتساوية والتشابه لما أمكن للعرب إقناع البربر بالإسلام، في الوقت الذي عجزت فيه أوروبا عن إقناعهم بالمسيحية، وهذه العلاقة القديمة والمتواصلة والمتساوية والتشابه العشائري يفسرها النظام الاجتماعي العشائري القبلي بين البربر والعرب»².

فهل يجعل ذلك الارتباط في مستويات التأقلم بين الطبيعة والإنسان وكيفيات التعامل وعلاقاته داخل المجتمع القبائلي والعرب، أن يكون البربر عربا؟

لقد حاول الباحث أبو يعلى الزواوي³ وبالإستناد على بعض المراجع أن يعود بنسب القبائل إلى قبائل حمير اليمنية، «وخلافا للمدرسة التاريخية الاستعمارية التي ترجع

¹ - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، المرجع السابق، ص 24.

² - أبو يعلى الزواوي: تاريخ الزواوة، منشورات وزارة الثقافة، ط1، الجزائر 2005، ص 54.

³ - هو السعيد بن محمد الشريف بن العربي بن يحيى بن الحاج من آيت سيدي محمد الحاج بزواوة، ومن ثم نسبته (الزواوي)، ولد بقرية تعاروست بزواوة حوالي سنة 1862. أنظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر، ط خ، الجزائر 2007، ص 145.

نسب الأمازيغ إلى القارة الأوروبية، فإن الشيخ أبا يعلى الزواوي يرجع نسب الزواوة إلى قبائل حمير اليمينية، ومما يلتفت الانتباه في ترجيحه لهذه النظرية أنه لم يكتف بالاعتماد على الكتب التاريخية العديدة التي ذكر الكثير منها وفي مقدمتها تاريخ ابن خلدون والطبري والمسعودي وابن كثير وابن الأثير وابن الخطيب والمقري وغيرها، بل دعم رأيه بذكر بعض أسماء الأعلام والأماكن باليمن والخليج العربي وهي ذات الأصل الأمازيغي مثل "آث عمرو" ومعناها بنو عمرو، و"ثيزي أومقران" ومعناها الربوة الكبيرة¹، وهذا يدل على محاولة جادة للوصول إلى مكانة الأصل العربي المقدس في التراث الإسلامي، مع أن الفكر الإسلامي قدم صورة واضحة الدلالة لما هو مقدس وأبعده عن مكانة العرق والنسب إلى قيم الوفاء والإخلاص في الإيمان، هذا التصور الذي استطاع أن يكسر مرآة النسب الفارهة، وحققها في رواق واحد فقط تجلى في صورة الإيمان الذي لا يرتقي حسب الانتماء إلى العرق، بل يرتقي بمحبة الله بغض النظر عن أي اعتبار آخر، ولعل الكثير من مؤسسي الفقه والفكر الديني الإسلامي لم يكونوا عربا أقحاحا، بل كانوا من مناطق ولغات مختلفة.

ورغم ذلك لم يكن المجتمع القبائلي كتلة لها حيز واحد تتدرج في سياق معين يؤكد صورة الإسلام بشكل ما، بل ظلت الثقافة الأمازيغية تلاحم حتى ما هو ديني، بل استطاع هذا المجتمع أن يوظف كل المستجدات عليه بشكل يتلاءم مع طبيعته التي تستند إلى نوع من التشكل الجماعي القبلي الذي يقوم على عناصر متعددة ومنفتحة، فمع تطور هذه الجماعات خاصة خلال ما بين الحربين حين استطاع الكثير العبور إلى فرنسا بغية العمل جلبوا معهم روائح تلك الأمكنة، كما لم يكونوا منغلقيين سوى على انتمائهم ولغتهم التي تعصف بها رياح قوية من كل جانب.

¹ - محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، المرجع السابق، ص 126.

III - الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأبعاد الهوية الجزائرية

1- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

1-1 نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

لم تكن الكتابة الإبداعية بعيدة عن المجتمعات الجزائرية خلال الاحتلال، رغم الوضع التاريخي الذي انغمست فيه الجزائر خلال عهد الأتراك حين ساهمت الزوايا في تنمية الانتماء الديني الإسلامي وزرعت من خلال هذا أبعاداً روحية ساهمت في إعلاء مكانة اللغة العربية وتاريخها، فانتشرت الزوايا التعليمية قبل المدارس الحكومية، هذه الأخيرة التي بدأت نشاطها بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ورغم ذلك فقد بدأت محاولات في الكتابة باللغة الفرنسية تعطي للحياة الأدبية ميلاداً مختلفاً يسوقه البعض إلى إنشاء تصور يحاول أن يوازي ما استجد من فنون إبداعية نثرية في العالم، ولعل نشوء الأدب باللغة الفرنسية كان نتيجة لمحاولات الاحتلال فرض هذه اللغة كبديل عن اللغة العربية، ولأنه كذلك، فقد واجه المبدعون مصيرهم من خلال لغة تفرض منطقتها بشكل كبير، لكن تلك المحاولات لم تستطع أن تلغي تماماً اللغة العربية، لكنها توغلت في حياة الشعب آنذاك، وقد امتننها بعض الكتاب الجزائريين لا شيء إلا للتعبير عن هذا القهر الذي شهده أمام أعينهم في محاولة لتمرير رسائل هامة قد تحيي بعض الضمائر، وتؤرخ لهذه الفترة القاسية التي شهدتها المجتمعات الجزائرية، ولقد عبر البعض من هذا الفريق عن ذلك المنفى الذي وجدوه في كتاباتهم باللغة الفرنسية، «على أن البعض الآخر لم يشعر بهذه المأساة شعوراً قوياً حاداً، لأنه يرى أن الكاتب مضطر أن يكتب بأية وسيلة كانت، حتى ولو بلغة أجنبية»¹، ولعل الكتابات الإبداعية باللغة الفرنسية في بداياتها كانت لا تحمل البعد الإبداعي الفني والجمالي الذي نجده في الكتابات اللاحقة، لكنها كانت تحاول أن تقف على بعض الحكايات الممتعة فقط

¹ - عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العربي، الجزائر 2009، ص 110.

دون التوغل في عمق المشكلات الحقيقية، واستنادا إلى ما كتبه المؤرخ الباحث جان ديجو¹ Jean Déjeux (1921-1993) فإن أول نص أدبي كُتب باللغة الفرنسية هي قصة لمحمد رحال بعنوان "انتقام الشيخ" تعود إلى سبتمبر سنة 1891²، وقد ذكر الباحث جان ديجو «أن عملية المسح الشامل التي قام بها للجرائد والمجلات التي كان يصدرها الفرنسيون في الجزائر، في الفترة ما بين 1880 و1920، بحثا عن نصوص أخرى لجزائريين آخرين، لم تسفر إلا على نتائج هزيلة، بحيث لم يعثر إلا على نصوص قليلة موقعة بأسماء ذات "رنين" عربي -حسب تعبيره- مثل "الجزائري" و"الراوي" و"الفريري"، وهو يشك كثيرا في حقيقة أصحابها، بل ويرجح أنها أسماء مستعارة لمستوطنين فرنسيين»³.

ويعود جان ديجو إلى سنة 1912، حين نشر أحمد بوري عملا له بعنوان "مسلمون ومسيحيون"، ويقول الباحث أحمد منور⁴ أن هناك من أعطاه عنوانا آخر "مسلمون ومسيحيات"⁵، ويقدم جان ديجو الفترة بين 1920 و1949 التي ظهر فيها 15 روائي

¹ - Jean Déjeux, né le 5 novembre 1921 et mort le 17 octobre 1993 à Paris, membre des Pères blancs, est l'auteur d'études sur la littérature française au Maghreb. Jean Déjeux : L'encyclopédie libre wikipédia, consulté le : 24-03-2018.

² - Jean Déjeux, La littérature Maghrébine d'expression Française. Col. Que-sais-je, P.u.f. Paris 1992. P 12.

³ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص ص 87، 88

⁴ - أحمد منور أستاذ الأدب بجامعة الجزائر، كاتب قصة ومسرحية وناقد و مترجم، نشر العديد من الأعمال والدراسات في المجالات المذكورة، كما أنه متخصص في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية. أنظر: أحمد منور الأدب الجزائري تميّز بالرواية دون غيرها، جريدة الاتحاد الإماراتية، نشر بتاريخ: 22-09-2007، اطلع عليه بتاريخ: 23-03-2018: <https://www.alittihad.ae/article/139769/2007/>

⁵ - Jean Déjeux, La littérature Maghrébine d'expression Française. P88. Et «Myriem dans les palmes» O.P.U. Coll. Texte anciens. Alger 1985, (Introduction de Lansari Ahmed, p1.

ونشرت خلالها 13 رواية و3 مجموعات قصصية¹، ونجد أن «بعض الكتاب الجزائريين في هذه المرحلة قد اعتبر نفسه مواطناً فرنسياً مندمجاً، وبعضهم الآخر قاوم من أجل تنظيم شخصي يتمسكون به، وهم على وعي تام بالوضعية التي تسود فيها الالتباسات وسوء التفاهم.»²

ولعل هذه المرحلة كما أسلفنا تتسم بعدم نضوج الرواية بشكلها التقني والجمالي الذي يؤثر بشكل كبير في تاريخ الرواية، باعتبار أن الأدب فن عالمي يستهدف الإنسان في كل زمان ومكان، محاولين تقليد روايات ناجحة لها أثرها في المشهد الإبداعي، ومن هنا يؤكد بعض النقاد على أن روايات هذه المرحلة «كانت ضعيفة ومغيبة، فكتابها كانوا ينسخون ويقلدون، لأن الأمر بالنسبة لهم كان يعني أن يظهروا بأنهم يستطيعون الكتابة بفرنسية جيدة، بدون ارتكاب أخطاء في التركيب وبأسلوب أكاديمي، وبتعبير جميل، فقد كانوا يرون مجتمعاتهم من الخارج، بكيفية مجردة وبعيون الآخرين»³.

وقد شهدت الساحة الأدبية تحولات هامة منذ بداياتها، هذا الزمن الهام الذي نضجت فيه أولى النماذج التي تعتبر البداية الفعلية والإبداعية للرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ومن ثم يعتبر الباحث الفرنسي "جان ديجو" أن رواية القائد محمد بن شريف⁴ (Ahmed, ben mostapha goumier) هي أول رواية يكتبها جزائري

¹ - Jean Déjeux, *op. cit.*, p. 13.

² - حفناوي بعلي: أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر 2004، ص 158.

³ - المرجع نفسه، ص ص 158، 159.

⁴ - Mohamed Bencherif1 (17 février 1879–22 mars 1921) fut un officier d'académie mais aussi un homme de lettres du début du 20e siècle. Il a la particularité d'être le premier romancier d'expression française en Afrique du nord. Voir: Mohammed bencherif, Ahmed ben moustapha goumier. Edition EdiLivre. Paris sd, p03.

باللغة الفرنسية، كما يعتبر سنة 1920 انطلاقة حقيقية لهذا الأدب الجديد¹، على أن الباحث أحمد منور لاحظ تجاهل بعض الباحثين لهذا التاريخ «من هؤلاء الباحثين عبد الكبير الخطيبي وعني مرّاد، حيث يتجاهل الأول الإنتاج الروائي الذي سبق سنة 1945 ويشير الثاني مجرد إشارة على الهامش إلى بعض الروايات التي سبقت ذلك التاريخ»²، بالإضافة إلى تجاهل الباحثة عايدة أديب بامية³ في دراستها الهامة حول "تطور الأدب القصصي" لهذه الرواية، مشيرة إلى أن رواية مارجريت طاووس عمروش "الزنبقة السوداء"، تعد ميلاد الرواية الجزائرية، أي باعتبار «الفترة التي ألفت خلالها الكاتبة روايتها»⁴.

وعليه تعدّ رواية "أحمد بن مصطفى الفارس"⁵ لابن الشريف الانطلاقة الفعلية للروائي باللغة الفرنسية في الجزائر، ولم يكن ذلك التأخير في صدور هذه المحاولات نتيجة لعدم حضور الابداع في العقلية الجزائرية، وإنما كان نتيجة لعدم استقرار الوضع في الجزائر، فالاستعمار كان في بداياته يعمل بشكل عنيف جدا لم يترك مجالاً للتعليم والتفكير وبناء المجتمع الجزائري وفق الآليات الإبداعية التي تنتج من يمتنون هذه الفنون، فلم تكن الكتابة منفصلة عن الواقع الاجتماعي، وبرز التعليم بشكل يمكن الفرد الجزائري من الاستفادة منه، وبظهور الصحف، انبلجت الأجواء التي تساعد على تصدير الكلمة الجزائرية في ثوبها الفني والإبداعي، أي حين مكن الاستعمار الشعب

1 - Jean Déjeux, *op. cit.*, p. 59

2 - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 89.

3 - عايدة أديب بامية، كاتبة ومترجمة لبنانية، صاحبة الكتاب المرجعي المهم "تطور الأدب القصصي في الجزائر 1925 و1967" صادر عن ديوان المطبوعات الجامعية. أنظر: بوداود عمير، ضمن استطلاع "سنة على رحيل يمينية مشاركة" لنوار لحرش، جريدة النصر، نشر بتاريخ 19-05-2014.

4 - عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، ديوان المطبوعات الجامعية، ت: محمد صقر، الجزائر 1982، ص 61.

5 - ترجم عنوان هذه الرواية الكاتب والقاص عبد القادر حميدة في لقاء معه كان في شتاء سنة 2002.

الجزائري من أن يفصح شيئاً عن نفسه، فذلك القمع الاستعماري لم يكن لينتج سوى العبودية والأسر، «ويمكن إرجاع مصدر الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إلى فترة ما بين الحربين العالميتين، وقتما بدأت النهضة الوطنية والسياسية تثير حواراً بين الإدارة الفرنسية والشعب الجزائري. وقد تركز الأدب حول المطالبات الهامة في ذلك الوقت. ولم تكن الرواية قد ظهرت بقوة في تلك الفترة بسبب صعوبة النشر، وقلة القراء والظروف السياسية في البلاد»¹.

ومن هنا فقد رتب الباحث جان ديغو هذه البدايات الهامة في تاريخ الرواية الجزائرية، بين 1920 إلى غاية 1949²:

- في 1920 مع الكاتب بن شريف (1879-1921) نشر "أحمد بن مصطفى الخيال" سرد فيها أجزاء عن سيرته الذاتية، كتب "من أجل تعظيم مجد أمة عرفت كيف توقظ حماس شعب أبي طال سباته"، فالبطل يبقى بطلا ولكنه ميّت عند الآخرين.

- عبد القادر حاج حمو (1891-1954) أصدر "زهرة، زوجة المنجمي" سنة 1925. وهي قصة أخلاقية تنتهي بالفشل، زهرة تبقى كما هي، وملياني يدخل السجن، ولكن يصبح مسلماً حقيقياً.

- شكري خوجة (1891-1967) نشر أولاً سنة 1928 "مأمون، بدايات مثل أعلى" مهداة إلى «روح فرنسا»، وفي صدى متواضع يعكس روحاً فرنسية صامتة، لكن مأمون لم ينحج كي يصبح إنساناً آخر، بل بقي كما هو بعد محاولة الاندماج. وبعد ذلك وفي سنة 1929 أصدر "العلاج، أسير بربروسيا"، تدور أحداثها في القرن السادس عشر، حول أسير مسيحي أصبح مسلماً مرتداً، ولكن ابنه يتكلم الفرنسية كما لو أنه مسلم، بل هو مثل أخ في الدين.

¹ - حفناوي بعلي: أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، المرجع السابق، ص 161.

² - Jean Déjeux, *op. cit.*, p.18-19

- محمد ولد الشيخ (1906-1938)، أصدر سنة 1936 "مريم بين النخيل".
- رابح زناتي (1880-1952) وقع سنة 1945 مع ابنه عقلي بولنوار "الشباب الجزائري"، الكاتب ناضل من أجل تمثيل فرنسا دون أن يتخلى عن كونه مسلما، يقول بولنوار «نحن هنا (في المدرسة) من أجل تعلم الفرنسية كي نصبح مثل الفرنسيين».
- جميلة دباش، أصدرت "ليلي، شابة جزائرية" سنة 1947، أول جزائرية تكتب في الصحافة (L'Action).
- طاوس عمروش (1913-1976) تصدر في السنة نفسها (1947) روايتها الأولى "الزنبقة السوداء" «دراما روحية داخلية».
- مالك بن نبي (1905-1973) أصدر "لبيك" سنة 1948.
- علي الحمامي (1902-1949) أصدر "إدريس"، سنة 1948. رواية قومية وجدلية، تتضمن ذكريات الشباب والقراءة، وهي مختصرات تاريخية ما بين 1930 إلى غاية 1940.
- ورغم الكتابات التي قدمها كتاب هذه المرحلة، وهي محاولات للوصول إلى شخصية تنافس الشخصية الأوروبية في حضارتها، إلا أن البعض تطرق إلى مشكلات لم يستطع التأقلم معها، «ومن أهم تلك الإشكاليات التي كوّنت الهاجس الرئيسي في تلك الأعمال الأدبية مسألة حرية تعاطي الخمر، ولعب القمار، وهي عادات كانت تشكل جزء من الحياة اليومية العادية للفرنسيين، أدخلوها معهم للجزائر، وصارت شيئا مباحا لا يعاقب عليه القانون»¹، فحاولوا أن يكشفوا الأضرار الناجمة عن مثل هذه العادات، والتي تفتك بالرباط الاجتماعي الذي تشهده الأسر الجزائرية، وذلك الخوف الاجتماعي من الرذيلة وما تكسبه من ضياع لمتعاطيها.

¹ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 95.

1-2 ملامح تطور الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية:

ظلت المحاولات الأولى في مجال الكتابة الروائية تترصد مواضيع تعالج المجتمع من الداخل، في تحولاته التي أثر فيها الوجود الفرنسي، فأثر بشكل كبير على المنظومة المجتمعية التي وجدها، وظل آخرون يمجدون هذه الحضارة القادمة من الغرب التي فتحت نوافذ جديدة ومختلفة في الحياة، «وقبل أن تنتهي سنوات الأربعينيات بدأت الأسماء الجزائرية الحقيقية تلمع في الأفق، ولأول مرة يظهر تعبير الأدب العربي المكتوب بالفرنسية في الجزائر، وفي تلك السنوات كان الاستعمار الفرنسي يتعامل مع اللغة العربية الفصحى باعتبارها من التراث، وكان يتم تعليمها في أضيقت الحدود في فرنسا، وهكذا وجد الجيل الأول من الأدباء الجزائريين أنفسهم أمام اختيار واحد هو الكتابة باللغة الفرنسية التي يتقنونها»¹.

وعلى هذا المنوال تتجه الكتابة الروائية إلى أفق آخر، حيث تراءت كتابات لها بعدها الفني والجمالي من حيث التقنية التي نافست كتابات لها أثرها في المشهد الروائي الفرنسي، كما عالجت مواضيع تتوغل إلى عمق المجتمع، وما آل إليه الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي إبان هذا الاحتلال الذي كان يخفق من أجل أن يرسم الجزائر بألوانه الفرنسية، متبعا طريق القمع والتهميش والتظليل ومحاولات نفي كل المقومات الوطنية الجزائرية، من أجل الحصول على الأرض والأهل في الوقت ذاته، وكانت الكتابة باللغة الفرنسية الطريقة المثلى لكشف ما يفعله المستعمر بهذه المجتمعات المحتلة، سواء بلغة مباشرة فاضحة، أو بلغة تعبيرية لها دلالات ترصد مكامن القمع والاستغلال، ترسم ملامح هذا الشعب الذي يعيش بين مخالب الفقر والجهل والتخلف، فإما أن يقبل المحتل الفرنسي كما هو، وإما أن يظل في ظلمات لا

¹ - محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة العربية العامة للكتاب، ط1، مصر 1991، ص ص 104، 105.

نور يصل إليها، فسُجن الكاتب في لغة غير لغته الأصلية، وفارق معالمها ونبضها الحي وانغمس في لغة أخرى يحاول من خلالها أن يلمس مناطق الإبداع لغة وموضوعا ودلالة، «ولذا، فإن الكاتب العربي في تلك الآونة كان يكتب لقارئ آخر وهو القارئ الفرنسي، أو الأوروبي بشكل عام، وقد أحدثت هذه الظاهرة ما يسمى بالمأساة اللغوية للمستعمر، فالكاتب يمتلك لغتين لا يستطيع أن يستخدم أدوات واحدة منها في التعبير، وكان الكاتب يحس أن الفرنسية هي اللغة الأم طالما أنه يحس بها»¹، على أنه يدرك تمام الإدراك أنها مجرد وسيلة للوصول إلى الآخر، ولإعلاء الكلمة الإبداعية الجزائرية التي تحمل صرخات الألم والحزن والشقاء في ظلّ مستبد لا يعرف معنى الإنسان والإنسانية رغم تشدقه برياح الحضارة والتحضر، وحتى لكي يتمكن هذا الكاتب من الولوج إلى عالم مختلف، عالم يصنع فيه الحكاية، الحكاية التي يراها ويستلذ فرحها ويشعر بألمها فتخرج من صلبه حياة أخرى لها رائحة مختلفة.

ومنذ البدايات الروائية الأولى مع محمد بن الشريف وحكاية "أحمد بن مصطفى الخيال"، هذه البدايات التي نُسجت في سياق تاريخي لا يقبل المختلف تماما، وإلى غاية بدايات أخرى منح فيها المستعمر بعض الحوار مع المجتمع الجزائري، وحاول أن يتقرب فيه من هذا المواطن، وقدم له بعض الخدمات المقصودة التي يستفيد منها المستعمر بالدرجة الأولى، نتجت بعض الكتابات التي لها بعدها الفني والدلالي، فظهرت رواية (نجل الفقير - **Le fils du pauvre**) لمولود فرعون (1913-1962) التي صدرت سنة 1950، ويعود تاريخ كتابتها إلى سنة 1939، فانغمست بدورها في عمق المجتمع القبائلي كشريحة هامة في المجتمع الجزائري ككل، وتفرّدت في تناول حالات الفقر بشكل حيّ أظهر ملامح الألم على أجساد تذوقت طعم اللامبالاة، كما جسّد أبجدية الطفل الفاعل الذي لم يرض بمصيره فقرّر تغييره إلى

¹ - محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، المرجع السابق، ص 105.

الأفضل، ودخل عالم المنافسة الحقيقية مع الآخر، وتمكن من صناعة الشخصية القادرة على تحريك مجتمعه الصغير، كما عبّر عن ذلك جان ديغو «الطفل الذي وصل إلى المدرسة المتوسطة»¹، ذلك الفقير المهمش الذي أضحى يتعلم في المدرسة العادية وينافس الأوربيين ويتكلم لغتهم بطلاقة، من منظور المعرفة وليس من منظور التقليد فقط، ولعل البعض يدرج مولود فرعون ضمن الإندماجيين سياسيا، لكنه لم يكن كذلك على اعتبار أن المبدع له خصوصيته في التعبير، فكان انتمائه للحال الأفضل، أي للتعرف على أساليب الحضارة الأوربية التي نالت إعجاب كبار المبدعين والمفكرين آنذاك على غرار الشيخ محمد عبده، وطه حسين، وتوفيق الحكيم وغيرهم، ذلك الإعجاب لم يكن إعجابا سياسيا بقدر ما كان إعجابا فنيا واجتماعيا، يرى فيه الفرد كيف ينال الأوربي مكانته في عالمه ذلك مبدعا حضارة يترقى فيها وترتقي به كل يوم، في حين تظل العقلية التقليدية المنغلقة تراوح مكانها، فلا غرابة أن صمت عن البعد السياسي المباشر، وتحدث عنه بشكل غير مباشر حين توغل في مأساة الفرد الجزائري وهو يعيش الفقر والحرمان ليس بسبب الاستعمار فقط، بل بسبب التراكمات التاريخية والاستعمارات المتتالية فكريا وماديا التي انهكت جسد الجزائر أرضا وأهلا وموطنا عبر التاريخ، وهذا ما دفع الباحث أحمد منور² أن يضع الكاتب مولود فرعون ضمن هذا الإطار مؤكدا أن سياق الاندماج هو السياق الذي تتدرج فيه رواية "تجل الفقير"، متفقا مع ما ذهب إليه يوسف نسيب³ Youssef Nacib في كتابه "مولود فرعون-

¹ - Jean Déjeux, *op. cit.*, p.18

² - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 103.

³ - Youssef Nacib, Sociologue algérien, spécialiste de la littérature amazighe. Docteur en lettres et sciences humaines à la Sorbonne, Youssef Nacib est professeur à l'Université d'Alger et professeur associé à l'Université de Tizi-Ouzou. Voir: Youssef Nacib, *Ecrivains Maghrébins*. Blog sur les intellectuels, écrivains, journalistes, artistes=

Mouloud Feraoun"، ومبرهنا على ذلك بفقرات من رواية مولود فرعون لم يكن لها ذلك البعد الاندماجي المقصود، في حين لم تكن الرواية تنتهج هذا السياق، باعتبارها رواية اجتماعية تؤرخ للفكر الاجتماعي في فترة هامة من تاريخ الجزائر، على غرار ما كتبه توفيق الحكيم في "يوميات نائب في الأرياف"، التي وضعت الشاب المحقق القادم من المدينة في عمق الأرياف، يحاول أن يفهم منطق هذه المجتمعات الصغيرة، والغريب أن يضع الباحث مقومات الشخصية الجزائرية كعوامل لتقويم العمل الإبداعي، كمقوم الدين مثلا، حين قال «وفي الإشارات القليلة التي وردت في الرواية عن الإسلام لم يظهر فرعون ما يدل على أنه يوليه أية أهمية باعتباره مقوما أساسيا للشخصية الجزائرية»¹، لكنه ليس معيارا لجودة الكتابة الإبداعية أو لحقيقة وواقع الدين كأفكار ومبادئ لدى الكاتب نفسه، فالكاتب كما أسلفنا له خصوصية تبعده كثيرا عن المؤرخ أو الباحث في التاريخ، لذلك قد يختلط عند البعض مفهوم العمل الإبداعي الروائي، ويحاول أن يستخلص منه شخصية الكاتب الحقيقية، في حين قد يتحدث الكاتب عن كل أنواع الخمر مثلا وتعاطيه في أماكن مختلفة حتى تحس أن الكاتب من كبار المتعاطين له، لكنه في الحقيقة لم يقترب منه أبدا، لذلك لا يمكن أن نضع أمام الفكر الإبداعي مبادئ معينة يجب أن يسير في طريقها وإلا صارت روايته فاشلة، أو صار هو نفسه غريبا عن وقائع وتاريخ ومبادئ أمته. على أن مولود فرعون قارع المستعمر بلغته، وخذّ القرية الجزائرية القديمة، وأسس للرواية العالمية الجزائرية.

كما أن فكرة الاندماج تصاغ من طرف هؤلاء النقاد بصيغة الاتهام المباشر، وكأن الكاتب كان مؤمنا بالاستعمار وضرورته في الوطن الجزائري، مع أن وقائع

=maghrébins d'expression française: 06-12-2011, consulté le: 25-03-2018:

<https://ecrivainsmaghrebins.blogspot.com/2011/11/youssef-nacib.html>

¹ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص ص 103، 104.

حياته الفعلية تقول غير ذلك، وحتى الاندماج في ذاته ودعاته كانت مجرد آراء قد يختلف معها البعض لكنها كانت وجهة نظر لها قيمتها في ذلك الوقت، وبالتالي ومن وجهة نظر موضوعية فقد كان المثقفون المسلمون يحاولون أن يجدوا طريقة يصلون بها إلى أحسن الظروف مع المستعمر، فكان «الانتماء المزدوج هو الصيغة التي تستجيب، بشكل أحسن، لمطالب المثقفين المسلمين وهي أفضل من صيغة "الاستيعاب"، بحيث كان هؤلاء المثقفون مذبذبين بين انجذابهم نحو العالم العصري، الذي كشفته لهم الثقافة الفرنسية، وبين حنينهم إلى مواطنهم الأصلية»¹.

وإذا كان الكاتب الدكتور حفناوي بعلي² قد عبّر في دراسته للرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية عن حقول الشكل الفني في تلك الروايات، فكتب عن محمد ديب بأنه (بلزك الجزائر)، وعن كاتب ياسين (جيمس جويس، أو دوس باسوس)، ومولود معمر (تولستوي)، وكان مراد بوربون (غوركي)، فإن مولود فرعون في حقله الإنساني كان (فيكتور هيجو).

ولعل كتاباً في السياق نفسه كتبوا عن الاستعمار بشكل مباشر وقدموا روايات تاريخية تتحدث عن وقائع الثورات وحوادث القمع والقتل والارهاب، مثل رواية "إدريس" في سنة 1948، حيث «اختر أن يعبر في طفرة نوعية على المستوى الوعي الوطني، عن كفاح شعوب شمال إفريقيا، وتطلعها للانعتاق من ربة الاستعمار، من خلال تصويره لوقائع ثورة الريف بالمغرب الأقصى سنة 1923 بقيادة عبد الكريم الخطابي، التي شارك فيها الكاتب شخصياً إلى جانب الأمير عبد المالك الجزائري-أحد أحفاد الأمير عبد القادر- الذي كان يقيم بالمغرب»³.

¹ - غي برفيلي: النخبة الجزائرية الفراكفونية 1880-1962، ت: م حاج مسعود، أ بكلي، ع بلعربي، دار القصة للنشر، الجزائر 2007، ص 425.

² - أنظر: حفناوي بعلي، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، المرجع السابق، ص 186.

³ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 104.

كما أن الكتاب باللغة الفرنسية، وإن امتهنوا هذه اللغة وعبروا بها عن أفكارهم وأحاسيسهم، وعن آرائهم بشكل مباشر أو غير مباشر، إلا أنهم «أقرب إلى أسس الحياة ومشاكلها اليومية من زملائهم الفرنسيين. فهم في الواقع يشبهون الكتاب الأمريكيين إلى حد كبير من هذه الناحية، حيث أنهم لم يمارسوا الأدب إلا بعد التجارب التي اقتنوها في مختلف الحرف، لذلك جاءت موضوعاتهم الأدبية تعبر عن خبرة شخصية بالمشاكل اليومية»¹.

وبظهور رواية (الهضبة المنسية – *La colline oubliée*) سنة 1952 لمولود معمري² (1917-1989)، انبجست عوالم النص الروائي المكتوب بالفرنسية بشكل عميق ومميز، فكانت هذه الرواية قفزة نوعية من حيث بعدها الفني والجمالي، فأعجب بها المفكر والكاتب المصري طه حسين، وقال «وإن مما يؤلم حقا أن يصدر مثل هذا الكتاب الرائع الممتاز في بلد كالجزائر، للعربية فيه المنزلة الأولى بالقياس إلى أهله، ولكنني لم أتلق من هذا البلد كتابا بلغة أهله يقارب هذا الكتاب جودة وإتقاناً وامتيازاً»³، ثم يضيف «فالكتاب دراسة اجتماعية عميقة دقيقة مفصلة مستسقاة من تصوّر أهل هذه الربوة في عزلتهم تلك، وقد فرغوا لأنفسهم واعتمدوا عليها، فلم يكادوا يذكرون أحدا غيرهم من الناس، وهم يجهلون ما وراء الجبال التي تقوم دونهم، لا يعرفونهم إلا حين

¹ - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، ط5، الجزائر 2007، ص 96

² - مولود معمري، أديب وباحث من رواد الرعيل الأول في الأدب الجزائري، ولد بقرية تاوريرت ميمون بني بني (منطقة القبائل الكبرى)، غادر الجزائر عنوة بسبب مضايقات الاستعمار، فاستقر به المقام بالرباط، حيث اشتغل مدرسا، ومع الاستقلال عاد إلى الجزائر، وحط الرحال بجامعة الجزائر، وفي 25 فيفري 1989م أثناء عودته من مدينة وجدة التي احتضنت لقاء حول الإنتاج الأدبي للشمال الإفريقي يلقي مصرعه في الطريق في حادث مرور قريب من مدينة عين الدفلى. أنظر: مصطفى ولد يوسف، من أعلام الرواية الجزائرية مولود فرعون مولود معمري، دار الأمل، للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2012، ص ص 33، 34.

³ - طه حسين: نقد وإصلاح، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر 2013، ص ص 34، 35

يضطرون إلى ذلك اضطراراً¹، ولم يكن طه حسين ليعلي من شأن هذا العمل الإبداعي باللغة الفرنسية لولا أنه رأى فيها تلك الجودة وذلك الإتقان والامتياز، وهو الممعن في عمق الإبداع وتفاصيل النص الجيد، كما أصدر مولود معمري بعد ذلك رواية (نوم العدل - Le Sommeil du juste)، وذلك سنة 1955، هذه الرواية التي كشفت «عن حالة التخلف والفقر والاستغلال والحرمان التي كانت تعاني منها القرى القبائلية المنعزلة في رؤوس الجبال، تحت وطأة الجهل والتقاليد المتحكمة في حياة الناس من جهة، ووطأة الاستعمار واستغلاله لحالة الجهل والتخلف والخلاف فيما بينهم من جهة أخرى، بما يخدم مصالحه ويضمن له استمرار التحكم في مصائر العباد وأقواتهم»².

على أن ظهور رواية (الدار الكبيرة - La grande Maison) سنة 1952 أيضاً لمحمد ديب³، يشكل تحوُّلاً هاماً في تاريخ الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، هذه الرواية التي استنطقت الزيف الاستعماري ونطقت بخصوصية الوطن والانتماء، في نقد هام للمنتجات الفكرية الفرنسية وفي توغل كبير داخل حياة الأفراد ومعاناتهم بين القهر والفقر واللامبالاة. و«يعطي ديب وصفا صارخا لحالة الفقر المدقع الذي كانت تعانيه الطبقات العاملة في الجزائر التي وقعت في فخ المدينة، ولكنها لم تقدر

¹ - طه حسين: نقد وإصلاح، المرجع السابق، ص 35.

² - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 107.

³ - محمد ديب (1920 - 2003) شاعر وروائي جزائري بارز يكتب بالفرنسية، يعد واحداً من أشهر الكتاب الفرنكفونيين في القرن العشرين، إلى جانب ايميه سيزير وسنغور. تعلم في وطنه الأم قبل أن ينتقل إلى مدينة وجدة الحدودية مع المغرب. بعد دراسته اشتغل في العديد من الأعمال: موظفاً، نساكاً، صحافياً ومترجماً. ترك الجزائر إلى فرنسا في النصف الثاني من الخمسينات، مصطحباً معه زوجته الفرنسية، حيث أقاما في عدد غير قليل من المدن، قبل أن يستقرا في باريس منذ 1959. أنظر: أحمد عثمان، قصائد للشاعر الجزائري محمد ديب، جريدة الخليج، نشر بتاريخ: 12-08-2013، اطلع عليه بتاريخ 10-04-2018:

<http://www.alkhaleej.ae/supplements/page/>

على أن تعيش محترمة لا أخلاقيا ولا ماديا»¹. بالإضافة إلى نشره لروايتين مكملتين الأولى، (الحريق-L'Incendie) في سنة 1954، و(مهنة الحياكة- Le Métier à tisser) سنة 1957، حيث تقدم هذه الثلاثية «رؤية للسكان، الفلاحين، وعمال النسيج، وهم في صراع مع المشكلات الاجتماعية والسياسية في ذلك الزمن»².

ويضيف الدكتور أبو القاسم سعد الله في دراسته للأدب الجزائري إدريس الشرايبي³ الذي ولد بالمغرب الأقصى سنة 1926، «وقد دخل الشرايبي الحياة الأدبية بروايته "الماضي البسيط" التي نشرها عام 1954. وهذه الرواية عبارة عن ترجمة شخصية تعبر عن شعوره الخاص بالغربة إزاء تراث أسرته»⁴، كما أنه يتوغل في أعمال أخرى⁵ إلى واقع الاستعمار وأهدافه، حيث طالب الشرايبي باسم مهاجري إفريقيا الشمالية ودعا «الفرنسيين وغيرهم إلى فهم المشكل الجزائري وإعادة النظر في علاقة الجزائر بفرنسا وفي علاقة الجزائريين بالمعمرين، إن هذا الكاتب مثل الكاتب السابق، يوضح بأن هدف الجزائريين هو الكرامة الإنسانية»⁶.

وعلى غرار ذلك و«في أعقاب هذه الفترة، يمكن أن نضيف رواية لمالك أوارى "الحبوب في العجلة- le grain dans la meule" بتاريخ 1956، أين رجع بنا الكاتب إلى الماضي القديم، قبل 1830، وهي تحكي قصة الشرف في هذا المجتمع،

1 - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 98.

2 - Jean Déjeux, *op. cit.*, p.18

3 - إدريس الشرايبي (1926-2007) كاتب مغربي معاصر، من أشهر رواد الأدب الفرنكفوني المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية. أنظر: إدريس الشرايبي، الموسوعة الحرة ويكيبيديا، اطع عليه بتاريخ: 2018-04-22: إدريس-

<https://ar.wikipedia.org/wiki/الشرايبي>

4 - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 100.

5 - كما في قصة (البهائم) التي صدرت سنة 1955.

6 - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 101

الذي كان يملك قيمه دون انتظار الآخر»¹، وقد عُرف الكاتب أيضا بقصص أخرى لها واقعها الأدبي في المجال الذي يؤرخ لفترات اجتماعية هامة.

وفي السياق نفسه صدرت رواية (نجمة - Nedjma) لمؤلفها كاتب ياسين، وقد «نشرت سنة 1956، والتي تعتبر أحسن شاهد على ميلاد الجزائر الجديدة، وقد استقبل النقاد والمفكرون الفرنسيون هذه الرواية بحفاوة بالغة، كما اعتبروا مؤلفها أحسن من يمثل مدرسة افريقيا الشمالية الأدبية من غير الأوربيين»²، وقد تجاوزت رواية "نجمة" في أسلوبها وحركيتها الفنية البنية الكلاسيكية السائدة، وانطلقت في أجواء شبه تجريبية تستقي من عالم الإبداع أزمنة مختلفة، وبهذا فقد حققت نضجا هاما في سياق الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، وبالتالي فالبعد «الفني في رواية "نجمة" قريب غاية القرب من الفن التشكيلي، في أحدث مراحلها، إذ هي تبدو كلوحة تجريدية، وبالتالي تخلو الرواية من البناء الكلاسيكي في أية صورة من صورها، يجمع الماضي والحاضر والمستقبل في "نجمة" اجتماعيا حيا مشخصا ماثلا، لذلك فهي قد تتشابه مع قصة "الصخب والعنف" لفوكنر، أو قد تتشابه مع "باعية الإسكندرية" للورانس داريل، من حيث أن لكل شخصية زمنها الخاص ورؤيتها الخاصة»³.

¹ - Jean Déjeux, *op. cit.*, p.19

² - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 102.

³ - حفناوي بعلي: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، المرجع السابق، ص 183.

2- الهوية والثقافة وتجلياتها في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

2-1- مفهوم الهوية والثقافة، المكونات والخصائص

يعد مفهوم الهوية من المفاهيم الهامة التي تتسجم مع سياقات وأنساق المجتمعات باعتبارها ركائز تتجلى في مختلف الحوارات التي تنطلق من بعدها الإنساني، فهذه المفاهيم «تسجل حضورها الدائم في مجالات علمية متعددة ولاسيما في مجال العلوم الإنسانية ذات الطابع الاجتماعي، ويعد بالتالي من أكثر المفاهيم تغلغلا في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية، ومن أكثرها شيوعا واستخداما»¹.

كما تعد مسألة الهوية من المسائل الهامة التي تناولها البحث الأدبي والنقدي والفلسفي، لتشكل موضوعا عميقا يبرز عدة محاور في عمليات التدقيق والفهم في مجال الفكر والأدب، ولعل ما يتضح في أغلب النقاشات البحثية أن هذا المصطلح يقف على تصورات متعددة ظلت لوقت طويل محل جدل لم تعط الفهم الفاصل والمصطلح المحدد في الكشف عن كنهه، ولذلك فمفاهيمها متعددة بتعدد التوجهات السياسية والإيديولوجية والتكوينية، ومنه فلن نخوض في التفاصيل أكثر بقدر ما نحاول أن نستقرأ المفاهيم الموضوعية القريبة من تجليات هذا المصطلح.

فالهوية في جانبها اللغوي هي «أن يكون الشيء هو نفسه ولا شيء غيره، وهو قائم على التطابق أو الاتساق في المنطق»²، أما في مفهومها الاصطلاحي، فهي «كالبصمة بالنسبة للإنسان، يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب، دون أن تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات»³.

¹ - أليكس ميكشلي: الهوية، ت:علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط1، دمشق 1993، ص 7.

² - حسن حنفي: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، مصر 2012، ص 10.

³ - محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، مصر 1999، ص6.

ورغم ذلك تبقى إشكالية مفهوم الهوية في محورها الموضوعي غاية في التعقيد، فليست الهوية مجرد علامة واحدة فارقة كما أكد الدكتور محمد عمارة سابقا، وليست مجرد إنتماء ديني فقط وإلا ستتداخل لدينا مفاهيم الثقافة مع الدين مع الشخصية ومع الجوهر والأنا، ليكون كل مفهوم على حدى هو المقوم الوحيد للهوية، ولم يلحظ أنه «بإمكانني أن أكون، في وقت واحد، آسيويا، ومواطنا هنديا، وبنغاليا من أصل بنجلاديشي، وأحد سكان أمريكا أو بريطانيا، وباحثا اقتصاديا، ومشتغلا بالفلسفة، ومؤلفا، ومتحدثا بالسكسكريتية، ومعتقدا في العلمانية والديمقراطية، ورجلا، ومن أنصار الحركة النسوية»¹، إلا أن هناك الأسس المترابطة التي ينتمي إليها الفرد وتسبقه في الظهور، وعلى كل فرد أن ينتمي إليها ولا يمكن أن يخالفها باعتباره هو جزء مفروض على الجماعة، فتكون الجماعة من خلال وجودها الثقافي الهوياتي فرضا عليه من جهة أخرى، وإلا أصبح في عداد المنبوذين.

وعلى الرغم من ذلك وفي السياق نفسه هناك من يجعل مقوما واحدا فاعلا في تفسير الهوية كالدين مثلا ماثلا في جماعات معينة يحاول بطريقة أو بأخرى أن يللم بعض الانقسامات، ويضع بعض التشابهات بين الأفراد ويقرب بينهم، كما يمكن للعرق مثلا أو «أعضاء الجماعة أو المواطنين أنفسهم من أبناء الوطن أو التابعين للديانة نفسها، ويمكن أن يثري تركيزنا على هويات معينة روابطنا، ويجعلنا نفعل أشياء كثيرة بعضنا لبعض»².

لكن هذا التقارب لا يصنع الهوية كرسم عام لا خبش داخله، فليست الهوية كتلة واحدة تؤخذ كلية دون نمو، بل هي أجزاء تتراكم وتترابط فيما بينها لتصنع اتجاهات

¹ - أمارتيا صن: الهوية والعنف، ت: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة الكتاب 352، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2008، ص 34.

² - المرجع نفسه، ص 18.

معينة يحس بها الفرد ويشعر بقوتها ويسير في طريقها وتحركه ويتأثر بها، كما تتخللها العقبات والأزمات وتتكاثر عليها المحن، ومن هنا «يتوجب علينا من أجل أن ندرك هوية ما: فردية كانت أم جماعية أو ثقافية أن نعرف نواة هذه الهوية (Noyau Identitaire) وهذا يعني ينبوع التماسك الداخلي الغائي الذي يسم كل كائن اجتماعي يتميز بوجوده الخاص»¹، ولذلك تطرقنا في هذا الفصل إلى جملة المكونات الاجتماعية والسياسية التي ساهمت في تحولات المجتمع، وتوغلنا في معرفة الأدوات التي يستعملها هذا المجتمع في إظهار نموذجه الفكري والطرائق التي يتبناها في حياته الاجتماعية، بين الفرد والجماعة والتاريخ، هذه العناصر الثلاثة التي في تمازجها وتعالقها ببعضها البعض تصنع حقلا هاما في معرفة بنية المجتمعات من خلال تأثرها وتأثيرها.

يمكن معرفة هوية ما من خلال جملة من العناصر²:

أولاً: عناصر مادية وفيزيائية وتشتمل على:

- الحيازات: الاسم، الآلات، الموضوعات، الأموال، السكن، الملابس
- القدرات: القوة الاقتصادية، والمالية، والعقلية.
- التنظيمات المادية: التنظيم الإقليمي، نظام السكن، نظام الاتصالات الإنسانية.
- الانتماءات الفيزيائية: الانتماء الاجتماعي، والتوزعات الاجتماعية، والسمات

المورفولوجية الأخرى المميزة

ثانياً: عناصر تاريخية وتتضمن:

- الأصول التاريخية: الأسلاف، الولادة، الاسم، المبدعون، الاتحاد، القرابة، الخرافات الخاصة بالتكوين، الأبطال الأوائل.

¹ - أليكس ميكشلي: الهوية، المرجع السابق، ص 12.

² - المرجع نفسه، ص ص 18، 19.

- الأحداث التاريخية الهامة: المراحل الهامة في التطور، التحولات الأساسية، الآثار الفارقة، التربية والتنشئة الاجتماعية.
 - الآثار التاريخية: العقائد والعادات والتقاليد، والعقد الناشئة عن عملية التطبيع أو القوانين والمعايير التي وجدت في المرحلة الماضية.
- ثالثا: عناصر ثقافية نفسية:**
- النظام الثقافي: المنطلقات الثقافية، العقائد، الأديان والرموز الثقافية، والإيديولوجيا، ونظام القيم الثقافية، ثم أشكال التعبير المختلفة (فن، أدب).
 - العناصر العقلية: النظرة إلى العالم، نقاط التقاطع الثقافية، الاتجاهات المغلقة، المعايير الجمعية، العادات الاجتماعية.
 - النظام المعرفي: السمات النفسية الخاصة، اتجاهات نظام القيم.
- رابعا: عناصر نفسية اجتماعية**
- أسس اجتماعية: اسم، مركز، عمر، جنس، مهنة، سلطة، واجبات، أدوار اجتماعية، نشاطات، انتماءات اجتماعية.
 - القيم الاجتماعية: الكفاءة، النوعية، التقديرات المختلفة.
 - القدرات الخاصة بالمستقبل: القدرة والامكانية، الاثارة الاستراتيجية، التكيف، نمط السلوك.
- ويمكن استخلاص الخصائص في الجدول التالي:

عناصر مادية وفيزيائية	عناصر تاريخية	عناصر ثقافية	عناصر نفسية اجتماعية
- الحيازات (الاسم...) - القدرات (مالية، عقلية...) - التنظيمات المادية - الانتماءات الفيزيائية	- الأصول التاريخية - الأحداث التاريخية الهامة - الآثار التاريخية (المنتج العقائدي والعادات والتقاليد...)	- الأثر الثقافي (الأديان والرموز الثقافية...) - الأثر المعرفي والسمات النفسية الخاصة. - نظام القيم	- القيم الاجتماعية (الكفاءات، القدرات، التنوع الخاص...) - القيم النفسية (أشكال السلوك، وخصوصيات القدرة على التكيف...)

من خلال خصائص الهوية التي تتضمن المنتج الثقافي الذي يعتمد على آليات معينة في التفكير، ليصل إلى ما يمكن أن يحدد مفاهيمه الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والابداعية وغير ذلك من المحددات، فيمكن أيضا أن يحدد أهداف هذه الجماعات وهويتها الإنسانية والثقافية، ولذلك فهناك انسجام فكري وتواصل بين كل العناصر التي تبني الهوية وتقدم خصوصيتها.

وعليه وقبل الخوض في غمار ذلك التمازج نحاول أن نقرب من المفاهيم العامة للثقافة، كي نتمكن من إيجاد المناطق العليا التي تصل الثقافة بالهوية، فالثقافة هي «مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه»¹

وإذا عدنا إلى المفهوم الأول للثقافة، هذا المفهوم الذي اشتغل عليه الكثير في الحقول الأدبية والإنسانية والاجتماعية، هو «للأنثروبولوجي الإنكليزي إدوارد تايلور (E.B.Tylor) (1832-1917) والذي قدمه في كتابه الثقافة البدائية عام 1971، والذي يذهب فيه إلى التعريف التالي: "الثقافة أو الحضارة بالمعنى الإثنوغرافي الواسع:

¹ - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط4، دمشق 2000، ص 74.

هي كل مركب يشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع معين"، إن هذا التعريف الذي هو أقرب إلى الوصف، نقل الثقافة إلى مستوى الوقائع الاجتماعية التي يمكن ملاحظتها مباشرة في فترة زمنية محددة، كما يمكننا تتبع تطورها وهذا ما فعله تايلور نفسه»¹.

ومن هنا فالاختلاف بين الهوية والثقافة يقع في اختلاف الرؤية بين ما هو منسجم مع جماعات تكون متماثلة، وبين ما يتجاوز تلك الجماعات المتماثلة إلى جماعات أكثر اختلافاً، فالهوية تركز على مجتمعات معينة تميزها عن غيرها من المجتمعات، أما الثقافة فتتجاوز ذلك لأنها تعتبر رؤية خاصة قد تشترك فيها الكثير من المجتمعات المختلفة، مثل الأنظمة التي تحكم الدول، والسلطات المختلفة والمتنوعة، والثقافات القديمة المشتركة، ومن هنا «لا يمكن المطابقة بينهما بلا قيد ولا شرط، يمكن للثقافة، عند الاقتضاء، أن تكون من دون وعي هوياتي، في حين يمكن للاستراتيجيات الهوياتية أن تعالج، بل أن تعدّل ثقافة ما بحيث لا يبقى لها الشيء الكثير مما تشترك فيه مع ما كانت عليه قبل»²، وهنا تظهر عمومية الهوية وخصوصية الثقافة، فعمومية الهوية باعتبارها قادرة على نحت الثقافات الوافدة وتطويعها حسب الأصول الهوياتية للمجتمعات المتلقية، وحتى وإن جاءت محاولات التثاقف بجديد للمجتمعات، فتبقى هوية هذه المجتمعات هي المتمعنة في ما يوفد عليها، وهذا ما حدث فعليا من خلال الاستعمار الفرنسي للجزائر، حاول مرارا أن يفكك تلك المجتمعات ويجدد في هويتها لكنه لم يتجاوز الآفاق الثقافية فقط دون التوغل إلى عمق هوية هذه الجماعات التي

¹ - عبد الغني عماد: سوسولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 2006، ص 31.

² - دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ت: منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 2007، ص 148.

نسجت عبر تاريخ كبير وعميق ومشارك، ومن ثم فالثقافة «تخضع، إلى حد كبير، لصيرورات لا واعية، أما الهوية فتحيل على معيار انتماءٍ واعٍ، ضرورةً، إذ هو ينبني على تعارضات رمزية»¹.

وعليه فقد صاغ ماثيو آرنولد² Matthew Arnold عبارة هامة تعطي نفساً حقيقياً للمعنى الذي يمكن أن يجسده مفهوم الثقافة، في بعدها الاجتماعي الروحي وبعيدا عن صخب الحضارة الصناعية، «تقول الثقافة: تأمل هؤلاء الناس، أسلوب حياتهم، عاداتهم، سلوكياتهم، نبرة أصواتهم، انظر إليهم بانتباه، تأمل الأدب الذي يقرأونه، الأمور التي تسعدهم، الكلمات التي تنطق بها أفواههم، الأفكار التي تشكل التراكيب في عقولهم، هل هناك أي قدر من الثروة يستحق أن يصبح المرء مثل هؤلاء الناس تماما عندما يمتلكه؟»³.

¹ - دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، المرجع السابق، ص 148.

² - ماثيو أرنولد (1822-1888) شاعر وناقد بريطاني يعد ثالث أعمدة الشعر في العصر الفكتوري إلى جانب لورد تينيسون وروبرت براوننج وأعظم نقاد عصره. تلقى تعليمه في أكسفورد وفاز بجائزة نيويديغيت قبل تخرجه متوقفا ليعمل مفتشا في قطاع التربية والتعليم فترة من الزمن. بعد نشره بضعة مجاميع شعرية ومقالات نقدية رشح عام 1857؛ ليشغل كرسي الشعر في أكسفورد دورتين متتاليتين وليكون أول أستاذ يلقي محاضراته بالانجليزية بدلا من اللاتينية، وكانت ثمرة تلك المحاضرات كتابان هما ((حول ترجمة هوميروس)) 1861 و((الثقافة والفوضى)) 1869. أنظر: ماثيو أرنولد، شاطيء دوفر، ت: عادل صالح الزبيدي، مجلة إيلاف الإلكترونية، نشر بتاريخ: 06-02-2009، اطلع عليه بتاريخ: 23-04-2018:

<http://elaph.com/Web/Culture/2009/2/407017.html>

³ - آدم كوبر: الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، ت: تراحي فتحي، م: ليلي الموسوي، سلسلة عالم المعرفة كتاب 349، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2008، ص 23.

3- تظاهرات الثقافة الجزائرية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

لا شك أن للخصوصية في الكتابة الروائية الجزائرية باللغة الفرنسية قيمتها في بعث فضاءات مختلفة يترسب منها كل ما يربط هذه النصوص بواقعها الجزائري، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، تلك الخصوصية التي نستشف منها بنية المجتمعات من الداخل، نتوغل في عمق تفاصيل تفتح أفق الرؤية على واقع المجتمع وصراعاته ويوميته وطموحاته وانكساراته، وكل ما يشير إلى أن النصوص هذه تخرج من رحم البعد الجزائري الذي يتميز بثقافته وبمقومات شخصيته، هذه المقومات التي تشتعل كأنوار تضيء جوانب عديدة من الأعمال الإبداعية فتعطي لها بريقها الخاص، فكل رواية أو عمل أدبي يمنح شيئا من تلك الخصوصية التي يستجيب لها وتستجيب له وتشفر علاقته بواقعه الاجتماعي، كما تعطيه خصوصيته الفردية من خلال النقد الذي قد يوجهه لواقعه وفي مجتمعه.

وقد ظل الجزائري كفرد ينتمي إلى جماعته متمسكا بعاداته وبطبيعة ملامحه وهيئته وملابسه ونخوته الرجولية وشجاعته وعلو كرامته، خلافا لواقع الأوروبي الذي يختلف تماما عن بنية وشخصية الجزائري، ورغم طول المدة التي تعامل فيها الجزائري مع الأوروبي إلا أنه لم يستطع الامتزاج مع هذه الهوية المختلفة، فمارس كل فريق طقوسه على حدى، خاصة الأعياد الدينية والمناسبات الوطنية والتقليدية وما تعارفت عليه الجماعات وتأقلمت معه من طقوس متنوعة داخل مجتمعاتهم الصغيرة والكبيرة.

لقد انغمس مولود فرعون في عمق المجتمع القبائلي ورسم بريشته الإبداعية تفاصيل الشخصية وجغرافيا الأمكنة، تحدث عن الأسر من الداخل، عن الزوجة والكنة والأولاد والجدات، عن النسوة وما يلبسن وما يخطن وما يجنين أو يزرعن، وعن عاداتهن في إعداد الطعام، حيث جاء في روايته "نجل الفقير"، «وتحت إشراف جدتي، طفقت النسوة في الحال يعددن لوليمة كبيرة. أخرجت العجوز من "الشواري" التي حملت

العنب إلى المدينة بكل نخوة واعتزاز "شُكَّ" لحم كبير اشتراه أبي...»¹ والشواري حسبما ما جاء في النص الروائي هو خُرج يوضع على ظهر الدواب، وتحدث عن الشيوخ وقراءاتهم للقرآن، وعن التمايم والعين والحسد، والعرف في تهدئة الخصومات، وقيمة شيوخ القبائل، والزوايا، والتويذة كطريقة للتعاون والتآزر، وغير ذلك من القيم والمصطلحات الدالة على الخصوصية الثقافية الاجتماعية والدينية، فنتمثل بعض المصطلحات التي تدل على البعد الديني الإسلامي كالحرام، والصلاة، وشيخ الجامع، وبعض الأسماء التي تمت بصلة إلى التراث الإسلامي مثل رمضان، وشعبان، وموسى، وأدوات تقليدية ضاربة في القدم، كالكانون، المواعين، المكشط، القدور، السدة، المشط..

من جهة أخرى يعبر مولود معمري في روايته "الهضبة المنسية" عن خصوصية مجتمعه القبائلي، ويصوّر عادات وتقاليد هذا المجتمع، يقدم دلالات الأعياد في عيد الأضحى، التي تشكل الجانب الديني المتمايك بين الأفراد، تلك التضحية التي تقدم لله متمنين قبولها، «صورة مرفقة اختارها الكاتب ليصف مدى تعلق الجزائري بوطنه إلى جانب عرضه لبعض العادات الطريفة التي تميز المجتمع الجزائري المحافظ»²، على أنه يتوغل في رسم الشخصيات التي تعاني من بؤس الحرب، معاناة قاتمة حزينة تحتوي سحب الألم وهي تجر دموعها المنهالة من عيون شهدت تلك المعانات في أبشع صورها، كما يقدم «صورة أخرى موفقة ترمز للدور الذي قامت به نساء الجزائر في حرب التحرير، وكيف قدمت واهبات الحياة حياتهن مقابل الحفاظ على هذه الحياة»³.

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، ت: محمد عجيبة، سراس للنشر، تونس 1998، ص 43.

² - سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، ط1، بيروت 1967، ص 173.

³ - المرجع نفسه، ص 174.

أما **محمد ديب** فيجتذب خصوصيات متعددة، مثل تلك العادات التي تتميز بها المرأة الجزائرية إبان الاحتلال، وحتى لفترة أخرى بعده، ذلك "الحايك" الذي ترتديه المرأة وهي محتشمة في رداؤها الأبيض الذي يغطي كامل جسدها، فلا يظهر منها إلا عين واحدة تحاول أن تشق من خلالها طريقها ومقصدها، وبدون "حايك" فالمرأة في خطر التأنيب والتأديب، ففي رواية "الحريق" يتجسد ذلك فيما كتب: «وكانت زهور في مثل هذه الأحوال تخلع عنها حجابها، فتطويه حتى يصير أشبه بكرة، وتأخذ تركض في أثر الصبي، إنها تركض بلا حايك.. يا ويلها إذا علمت أمها أنها تسير بلا حايك، ولو في هذا الطريق المقفر..»¹.

في المقابل عمل **كاتب ياسين**² في روايته "نجمة" في فضاءات الاختلاف، وخرج بخصوصية المكان إلى خصوصية المعنى والأسطورة، ينطلق في روايته من حوار لا يعطي توصيفا فاعلا بين الشخصيات والحدث، بل هو مقاطع مختزلة لحالات متعددة لم يفصح الروائي في بعث تفاصيلها، وكأنه يأخذ من كل عالم متفرد حكاية، بل «ليس على القارئ الفرضي محاولة إيجاد العلاقات السببية بين الموضوعات، بين المواد السردية قاطبة، لأن الكاتب نفسه أرادها خلط ملط، انقطاعا على انقطاع، إضماراً على

¹ - محمد ديب: الحريق، ت: سامي الدروبي، دار الهلال، القاهرة 1970، ص 11.

² - كاتب ياسين (1929-1989) كاتب وأديب جزائري من أشهر رواياته "نجمة"، ولد بدائرة زيغود يوسف ولاية قسنطينة، بعد فترة قصيرة تردد أثناءها على المدرسة القرآنية بسدراتة (سوق اهراس) التحق بالمدرسة الفرنسية ببوقاعة Lafayette = سابقا ولاية سطيف سنة 1935 إلى غاية سنة 1941 حيث بدأ تعليمه الثانوي بسطيف حتى الثامن من شهر ماي 1945، شارك في مظاهرات 8 ماي 1945، قبض عليه بعد 5 خمسة أيام ببوقاعة، فسجن وعمره لا يتجاوز 16 سنة، وكان لذلك أبعد الأثر في كتاباته. بعدها بعام فقط نشر مجموعته الشعرية الأولى "مناجاة". دخل عالم الصحافة عام 1948 فنشر بجريدة الجزائر الجمهورية (ألجي ريببليكان) التي أسسها رفقة ألبير كامو، وبعد أن انضم إلى الحزب الشيوعي الجزائري قام برحلة إلى الاتحاد السوفياتي ثم إلى فرنسا عام 1951. قبل وفاته تقلد عدة مناصب، منها منصب مدير المسرح بسيدي بلعباس. نجى من محاولة اغتيال في تيزي وزو في 1987. أنظر: كاتب ياسين، الموسوعة الحرة ويكيبيديا، اكلع عليه بتاريخ: 23-04-

2018: كاتب-ياسين/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

آخر، سوابق على سوابق، بحيث كان لزاما علينا للاقتراب من "نجمة" القيام بشيء ضروري: إعادة بنيتها جذريا»¹، إن هذا القول الذي أدلى به السعيد بوطاجين في مقدمة ترجمته، يوحي بأن روح الشاعر لم تفارق الروائي لحظة واحدة، إنها تقاوم سرديته، وتحاول أن تجرّه إلى نص ثالث مختلف، ليست الشاعرية في روحها الإبداعية، بل شكل من أشكال التقاطع الذي يمارسه النص الشعري في بنيته، على أنه خص روايته ببعض الفضاءات التقليدية والدينية، كتطرقه لفريضة الحج، وأثر الذنوب، ومكانة مكة، ومتطلبات أخرى، يقول: «كان والد سي مختار قد دفن في مكة، لذلك عُين تلقائيا من بين أصحاب المقام، قامت سنواته الخمسة والسبعون بتسوية الأمور، بحيث أن الشيخ البهلول كان يغدو مع اقتراب الشهر المقدس، ومن غير جدل، الممثل الأعلى ليس للحجاج الذين يحيطون به فقط، بل ممثل المدينة كلها..»².

¹ - كاتب ياسين: نجمة، ت: السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2007، ص 6، 7.

² - المرجع نفسه، ص 145.

4- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأزمة الهوية

منذ بداية الكتابة الروائية باللغة الفرنسية خاصة تلك التي حملت هواجس الأرض والأهل والوطن، ومنذ أن تعلم المبدع الجزائري كيفية رفع همومه وقضاياه الإنسانية والاجتماعية والسياسية بشكل فني وإبداعي، عملت العملية الإبداعية على فرض منطقتها المتميز، وهي تزخر بأحلام شتى تقف على مرافئ تطوير لغتها وآلياتها وتقنياتها، لتفتح أمام القارئ الجزائري عوالم الحياة وهي تواجه حملات شتى من الاقصاء والتهميش واللامبالاة، حرب قادها الاستبداد والاستغلال وأسسها الإبادة، ورغم ذلك ومع حصون المقاومة المادية والفكرية، وبجانب هاجس الروح الإبداعية الجزائرية اقتربت الرواية الجزائرية باللسان الفرنسي من مساحات الإبداع كي تؤسس لمكانتها في غمار لغة مختلفة وسياقات أكثر تعدد، رغم اختلاف المستعمرات من مرحلة لأخرى، ففرض على المبدعين أن يمارسوا هذه اللغة وأن يتكلموا بها وأن يقدموا مجتمعهم وفكرهم وتقاليدهم وتاريخهم عبر هذه الوسيلة التي أثرت هي الأخرى في أدبهم، باعتبار أن المستعمر لا يفتح ولو نافذة صغيرة للغة العربية التي ظلت في سياق الزوايا والكتاتيب منتهجة منطلق الدفاع عن الهوية الإسلامية ولم تتشغل بعوالم الرواية التي ظلت بعيدة إلى ما بعد الاستقلال، ومنه فقد كان الصراع بين منطقتين في الدين، سار الأول مسيرة صوفية بحتة، في حين جاء المسار الثاني متأثراً بحركات الإصلاح في العالم الإسلامي، في الطريق الذي سار فيه محمد عبده، ورشيد رضا وغيرهم من دعاة الإصلاح الفكري، فانبرت جهود العلماء المسلمين في الجزائر المتأثرين بهذا الاتجاه على تجميع قواهم الفكرية في تنمية الوعي بالاسلام برؤية حديثة، وقد تكاثفت جهودهم في بعث "جمعية العلماء المسلمين الجزائرية"، التي «تأسست سنة 1931، وحرّم قانونها الاشتغال بالسياسة وركزت جهودها على محاربة البدع وتطهير العقيدة

الإسلامية من الشوائب»¹، لكن فيما بعد اضطرت أن تدخل غمار السياسة من خلال مواقف بارزة.

إن اللغة الفرنسية آنذاك لم تكن مجرد خيار يمكن رفضه، لقد كانت فرضاً جاءت به ظروف الاستعمار ودفعت المبدعين إلى تبنيه، والاستفادة من الخبرات الإبداعية الفرنسية حتى يقف الأدب الجزائري على قدميه مقدماً روحاً جديدة تتبص بالاختلاف.

ورغم ذلك فقد أثرت إشكالية تخص هذا الأدب، هل هو أدب فرنسي وإن كتبه جزائري، أم هو أدب جزائري وإن كتب بلغة المستعمر؟ وهل الفرنسي المولود في الجزائر يعد أدبه جزائري، أم فرنسي؟

وقد سارت الدراسات في هذا الموضوع وفي معالجة هذه القضية نحو التعرف على عدد من العوامل:

4-1 نحو احتلال الأدب الجزائري:

تدافعت الكثير من الآراء النقدية كي تمكن رؤيتها من فرض منطق موازي للبعد الفرنسي بحيث جعل من أدب من يكتبون باللغة الفرنسية أدباً فرنسياً، يستجمع كل خصائص ذلك الأدب، خاصة منهم من لم يباشر في إبداعاته موضوع الوطن كقيمة تقييمية للانتماء الوطني، ويتبنى هذا الاتجاه ممن يرون أن التعبير نفسه باللغة الفرنسية هو انتماء لها، فقد انتبه المستوطنون منذ البداية إلى وجوب احتلال الأدب الجزائري واحتوائه، حيث «نتج عن التصريحات والمناقشات والجدال الذي دار منذ بداية القرن العشرين وإلى بداية العشرينات، بين المستوطنين من جهة، وبينهم وبين منابر أدبية في "المتروبول"، حول وجود "أدب استيطاني" في الجزائر، إلى بعث ما يشبه "مدرسة أدبية" اتخذت من مجلة "فرنسا الكبرى" و"الحياة"، و"ميركور دو فرانس"، و"مجلة العالمين"، وإلى حد ما "جريدة الوقت" (لوتان)، منبرا لنشر أفكارها، وهي

¹ - عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري، المرجع السابق، ص 38.

الأفكار التي تبلورت شيئاً فشيئاً، لتعرف فيما بعد بحركة "الجزارة":
 «(L'algerianisme)»¹

وتنظيماً لهذا التوجه، فقد تدعم الأدب الاستيطاني بهياكل «تنظيمية تسنده،
 وتقاليد تعطيه شخصيته المتميزة، واستقلالته عن "المتروبول"، فأسسوا في سنة 1921
 جمعية أدبية أطلقوا عليها اسم "جمعية الكتاب الجزائريين"، ومجلة تنطق باسم الجمعية
 سموها "افريقيا"².

وعلى غرار ذلك وتطوراً لهذه المسيرة الأدبية والفكرية، فقد ظهرت في النصف
 الأول من القرن العشرين وفي منتصف الثلاثينيات "مدرسة الجزائر" تضم إليها
 «امانويل روبليه Emmanuel Roblès، وألبير كامو Albert Camus، وجول روا
 Jules Roy، وادمون بروا Edmond Brua»³، وبهذا فقد اشتغل المنتمون لهذه
 المدرسة على اعتبار انتمائهم للجزائر، ولم يكن البعض منهم قادراً على تصوير
 المعاناة التي يعيشها الجزائري في ظل هذا الاستعمار البغيض، «وقد أعطى هؤلاء
 الكتاب صورة خاطئة عن الجزائر إذ وقفوا منها نفس الموقف الذي تقفه السلطات
 الإدارية في المستعمرة»⁴.

4-2 آفاق الدمج الاستعماري الأدبي:

إن الصورة التوفيقية التي حاولت أن تقف عليها مدرسة الجزائر جسدت نوعاً من
 التغيير الذي طرأ على موضوعات الأدب، فقد تميزت بالاهتمام بالطبيعة وبتحريكها
 داخل العمل الإبداعي، كما لم يكن الكتاب الجزائريون بعيدون عن هذا الاتجاه، خاصة
 الكتاب الذين نشأوا في الظروف التي كان الاستعمار قد حدد استقراره فيها وبدأ في

¹ - أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، المرجع السابق، ص 138، 139.

² - المرجع نفسه، ص 139، 140.

³ - سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، المرجع السابق، ص 110.

⁴ - المرجع نفسه، ص 110.

إنشاء المؤسسات القارة ذات الطابع الدائم، ثم جاء الجيل الذي درس في المدارس الفرنسية وتعلّم في معاهدها وفهم الأبعاد الثقافية والسياسية التي تعمل عليها فرنسا، لأن هذا الجيل لم تكن مواقفه قد جاءت فجأة، فقد تعلم جيدا كيف تستعمل الكلمة، وتعلّم أبعاد النص الروائي القادر على إنتاج قارئ مختلف، وبذلك فقد اندمجوا مع هذا المحيط فهما ودراية، على غرار مولود فرعون، ومولود معمري، «وفي المرحلة اللاحقة كان كاتب ياسين ومحمد ديب ومالك حداد ومصطفى الأشرف ومحمد الشريف ساحلي ينتمون إلى اليسار، مثلهم مثل كامو وروبليك وسيناك»¹، لكن وبعيدا عن هذه التقسيمات، فيمكن أن نرصد أن المواقف تتطور وفق التكوين والأحداث، وقراءتنا لحياة فرد من هؤلاء الكتاب الروائيين ينتج عنها فهم مدى تعلق الكتاب بموطنهم وإن سكنته الأشباح، فلا غرابة أن تتوزع الأدوار وألا تكون المواقف متشابهة، فقد اتجه الكتاب في بدايتهم إلى المسار الفعلي للكتابة الإبداعية في شكلها العام من أجل بلوغ الإسم الأدبي القادر على المشاركة في كل المنابر الأدبية، ومن هنا استفاد البعض من جوائز وضعت أسماءهم في طريق الصوت المسموع، وهذا النوع من الاندماج فرضته ظروف اللغة والتعليم الضئيلة التي كابد فيها هؤلاء الكتاب من أجل فتح بعض أبوابها، بالإضافة إلى ضعف نسبة القراءة تحت وطأة ذلك الواقع التعليمي الهزيل، «بحيث كانت القراءة محصورة في عدد محدود من الموظفين وأنصاف المتعلمين من التجار وملاك الأرض، وهم القلة بحيث لا يشكلون جمهورا قارئاً، ولا رأياً عاما يعتد به»².

على أن تلك الآفاق التي كان يحملها المستوطن المثقف لكي يبقى الكتاب الجزائريون يهللون لفرنسا ولقدوم حضارتها لم تصل إلى مبتغاها، «وبعد أن سيطر الجزائريون تماما على اللغة الفرنسية وبعد أن تعمّقوا في دراستها ودراسة تاريخها

¹ - أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص ص 153، 154

² - المرجع نفسه، ص 155.

حوّلوها للدرجة التي تجعل من المؤلفات الجزائرية أدبا لا يختلف فقط من حيث المضمون بل من حيث الشكل عن الأدب الفرنسي. لقد استطاع الجزائريون أن يجعلوا منها لغة تساعدهم على التعبير عن قيمهم وأفكارهم وتقاليدهم، وبدلا من أن تسلب منهم شخصيتهم وقيمهم كما أرادت لها فرنسا ذلك، وبدلا من أن تكون أداة لتثويته تلك القيم والتقاليد، أصبحت لهم لغة قادرة على التعبير عن تلك الشخصية الجزائرية، وعن تلك القيم الجزائرية، والتقاليد الجزائرية نفسها»¹.

4-3 من هو الكاتب الجزائري؟

أثارت الكثير من الدراسات هذا السؤال في بحثها داخل فضاءات الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، هل هو الانتماء إلى الرقعة الجغرافية يحدد هوية الكاتب؟ أم في الأصول العرقية أو التاريخية؟ أم يكمن في اللغة؟ وعلى هذا المنوال دارت النقاشات، واندفعت الآراء والاتجاهات في تحديد هذا المصطلح، و«هذا ما دفع ببعض الصحف والمجلات المتخصصة مثل مجلة "الأخبار الأدبية" الفرنسية إلى القيام سنة 1960 باستفتاء في هذا الصدد، شارك فيه مجموعة كبيرة من الكتاب الجزائريين والمستوطنين، وكان من بينهم محمد ديب ومولود فرعون، ومالك حداد»² وآخرون من المستوطنين، في محاولة لرصد الآراء التي تحاول الإجابة عن الاستفتاء الخاص بمن هو الكاتب الجزائري؟

فاتجاه المستوطنين قَدّم «أسبابا واهية، وتقادوا ذكر الحقائق التاريخية التي نتج عنها»³، وفي السياق نفسه فقد «استنقز هذا القول وشببيه من الأقوال الشاعر مالك حداد الذي عاد مجددا إلى موضوع الاستفتاء المذكور في مقاله المطول "الأصفار

¹ - سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، المرجع السابق، ص 86.

² - أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، المرجع السابق، ص 156.

³ - المرجع نفسه، ص 157.

تدور في الفراغ»¹، ودافع بقوة عن رأيه مبينا أن «وللمستعمرين وإن الأنواء، قلوب كالحجارة لا ترق»²، مستقيضا في المعنى الحقيقي لعشق الوطن، وللتاريخ والمصير المشترك، معتبرا أن اللغة الفرنسية هي منفاها، وقالها صراحة «اللغة الفرنسية هي منفاي»³، وهي عبارة كانت جوابا عن جملة أخرى ذكرها غابرييل أوديسيو تعبر عن اتجاهه في التفكير، قال «اللغة الفرنسية هي بلدي»⁴.

وإذا نظرنا إلى الهوية في كونها ليست بالأمر الهين، خاصة إذا كانت فعلا كذلك عند الكثير، فإن «كل مطالبة بهوية أكثر تعقيدا سيجد نفسه مهمشا»⁵، أو منفايا بين وقائع لم يكن له دخل في وجودها، إلا أنه وجدها هكذا، فاستقبلها محاولا فهم كل هذه التحويلات.

ومن هنا وإذا وازنا بين المستوطنين والكتاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية، فإن هؤلاء هم أبناء الاستعمار الذي نضجت ثماره عبر سنين عديدة فانتمت إليه بما فيها من ثمار جيدة أو رديئة، وأولئك هم أبناء الفلاحين العرب أو البربر ممن نسج فيهم التراب رائحته، ومن ثم «فالانتماء على أساس التاريخ فهو شيء يخص به الكتاب الأهالي» من ذوي الأصل العربي - البربري، وهو العامل الذي يجعلهم يختلفون عن الكتاب المستوطنين حتى وإن استعملوا لغة واحدة مشتركة»⁶. على أن الانتماء يضاف إليه هؤلاء الذين ولدوا في الجزائر وشربوا لبنها، فأنجوا في ظلالها إبداعا له بعده

1 - أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص 158.

2 - بيت من قصيدة للشاعر أحمد شوقي، مطلعها «سلام من صبا بردى أرق * * * ودمع لا يكفكف يا دمشق».

3 - Malek Haddad : Les zéros tournent en rond, The international Solidarity Movement.

Article N° 14584. Vu le 08/04/2017 : <http://www.ism-france.org>

Ibid - 4

5 - Amin Maalouf : Les Identités meurtrières, Editions Grasset & Fasquelle, 1998, P.

09.

6 - أحمد منور: المرجع السابق، ص 159.

الجزائري وإن لم يتضمن صراحة قضية سياسية مباشرة بشكلها الحرفي، بل قد يتضمن أفعالا ومواقف لها وقعها التاريخي الإبداعي الجزائري والإنساني العام، كجان سيناك¹ مثلا، وغيره..

وفي الاتجاهات النقدية التي درست أجواء هذا الأدب فهناك من يعدّه أدبا جزائريا يتميز عن غيره المكتوب باللغة العربية أو العامية، أو الأمازيغية، في كونه أدبا مكتوبا باللغة الفرنسية أو بالتعبير الفرنسي، «ويأتي في طليعتهم الأستاذ جان ديغو والأستاذ شارن بون»²، وهناك من الجزائريين والباحثين المغاربة من يذهبون المذهب نفسه، من أمثال «غني مراد، وكريستيان عاشور، وعبد الكبير الخطيبي، وألبير ميمي»³.

وقد تطرق الدكتور عبد الله الركيبي وهو في غمرة معالجة هذا الموضوع إلى ملاحظة هامة جدا، حيث أكد أن «أدباء الجزائر الذين عبّروا بلغة فرنسية لم يحسوا بهذه الازدواجية، ولم يشعروا بهذه المأساة قبل الثورة... لأن هذا الأدب لم تتضح معالمه قبل هذا الوقت ولم يكن محل نقاش بسبب أن اللغة الفرنسية هي التي كانت المسيطرة على الحياة في شتى مظاهرها»⁴، فلا يمكن أن نحكم على وقائع الأمس

¹ - وُلد في بلدة بني صاف، قرب وهران، عام 1926، من أب مجهول وأم إسبانية الأصل. وانتقل للعيش في الجزائر العاصمة عام 1943، حيث تطوّع في الجيش الفرنسي لمقاومة النازية. لكنّ تلك التجربة العسكرية لم تدم طويلاً بسبب صحته المعتلة. زار فرنسا لأول مرة، بعد تحريرها عام 1946، حيث تعرّف إلى متقفي الـ«ريف غوش (rive gauche) في باريس، وبالأخص إيمانويل روبلاس وسيمون دي بوفوار اللذين أصبحا من أصدقائه المقربين. لكنّه لم يلبث أن عاد إلى الضفة الأخرى للمتوسط، ليلعب دوراً بارزاً على الساحة الثقافية الجزائرية، منذ منتصف الأربعينات. انخرط في «جمعية الكتاب الجزائريين» عام 1947، وأسّس في العام التالي صالوناً ثقافياً سمّاه «حلقة ليليان للفنون والآداب». ومن خلاله أصدر مجلة «شمس» عام 1952، ثم «سطوح» عام 1953. هكذا، أسهم سيناك في نشر الكتابات الأولى للعديد من الكتاب الذين أصبحوا لاحقاً أسماء لامعة في الساحة الثقافية الجزائرية، كمحمد ديب وكاتب ياسين ومولود فرعون ومالك حداد...أنظر: عثمان تزغارت: جان سيناك ثائرا (ومثليا) وشهيدا، جريدة الأخبار، ع 417، لسنة 2008.

² - أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، المرجع السابق، ص 177.

³ - المرجع نفسه، ص 178.

⁴ - عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، المرجع السابق، ص 211.

بمستجدات الحاضر، بل نحكم بأدوات الماضي وفق المنهج والمعرفة الحاضرة، فبعث الثورة تجلت مفاهيم جديدة وأحاسيس لم تكن لتتأجج لولا الأرضية المحدثة التي أتاحتها التحولات السياسية العالمية، وفهماها القادرون على ترويج منتجها الفكري والشعوري على أتم وجه، ومن خلال عناصر أخرى لها وقعها الهادف والهام.

لقد كان كل شيء للأوربيين ولا شيء للجزائريين، حتى أبسط الأشياء آدمية، ولكن ورغم ذلك فقد فتح المبدع الجزائري نوافذ جديدة على أفق الإبداع والرقي، لقد دخل هذا العالم بلغة تختلف عن موروثه، لكنه صنع من تلك الازدواجية سلاحا عظيما يستطيع به أن يفهم حاضره ومستقبله، وعلى الأقل لم يترك مجال الكتابة إلى المستوطنين الذين كانوا يعملون على تلميع المستعمر، وحتى وإن قيل إن الكاتب الجزائري لا يجد ما يكتب عن مواطنيه، إلا أنه يعلم أن فرنسا تدخر كل جهدها لتعليم الأجيال اللغة الفرنسية فعلى الأقل يستطيع هذا المواطن المتعلم أن يجد أدبا جزائريا يحاكي الآداب العالمية ويرسم بريشة لغة مختلفة مشاعر الوطن والأهل والتراب، «إنهم من وطن واحد، وجميعهم مهاجر إلى لغة وطن لا يتكلم بها وطنه، وهم واقعون في ازدواجية ثقافية واضحة، ثقافة البلاد التي ولدوا فيها وانتما إليها، وثقافة البلد الذي وجدوا أنفسهم يتكلموا لغته»¹، لكنهم تكلموا بما توفر لديهم من أدوات وتحدثوا بما أتيح لهم أن يتعلموا من لغات، فكانت في البدء كلمتهم، وكانت بعد الاستقلال ثروة إبداعية ما زالت تعطي ثمارها كل حين.

¹ - محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، المرجع السابق، ص 11.

الرؤية للعالم في روايات مولود فرعون (نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة)

- مولود فرعون، نشأته وأعماله
- مولود فرعون.
- أعماله.
- ملخص الأعمال الروائية.
- الترجمة وتحولات المعنى في البعد الإثنوغرافي
- تقديم المترجمين لأعماله الروائية.
- خصوصيات الترجمة من خلال العناصر الثقافية الواردة في الروايات الثلاث.
- الترجمة وحدود النص.
- الرؤية للعالم في روايات مولود فرعون
- الفهم *La compréhension* وبنية الواقع والتحولات.
- الفقر كبنية دالة.
- النسق الروائي بين أبعاد الشكل وفلسفة المعنى.
- التفسير *L'explication* ومنعرجات الرؤية/ من الوضعيات المضادة إلى التجاوز.

لم تكن الفترة الاستعمارية لتمنع نضوج النص الإبداعي الجزائري بلغة تصل إليه مباشرة، وتحكي له بطريقة أو بأخرى عن الواقع الذي وصل إليه الفرد داخل مجتمع مكبل ومسجون لا يغيره أي أفق سوى أن يمتلك حريته وينتج حضارته، ولم يكن الكاتب الجزائري مولود فرعون ليقبع في ظلال نص تقليدي مشبع بالتبعية، بل تجاوز ذلك إلى رسم مجتمعه في عمق تجلياته البيئية والثقافية وتطلعاته لغد آخر يتجاوز واقعه، فعبر عبر مسامات ضيقة تملئها ضرورات عدة إلى صناعة لوحة تشكيلية إبداعية لواقعه وما يحمل من تناقضات متعددة في أعماله الروائية (نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة)، متحديا رتبة المعنى، تلك التي قد سادت كتابات عديدة كانت مهذا لخروج موجة من الكتابات الناضجة، ولم تكن القضية الوطنية الجزائرية في شكلها السياسي حاضرة بقدر ما كانت القضية في شكل إبداعي اجتماعي يعطي صورة واضحة وجليّة لحالات أبناء الفقراء إبان الاحتلال، متميزا داخل الحكاية بأسلوب يوحي بتقدم كبير في تشكيل اللغة وفتح آفاقها الإبداعية على نص محترف، متّحدٍ في فضاء البناء الروائي مع ما كتبه مثلا فيكتور هيجو Vector Hugo (1802-1885) في روايته "Le dernier jour d'un condamné"، وما كتبه ألبير كامو Albert Camus (1913-1960) في روايته "L'étranger" التي نالت شهرة عظيمة، كانت رواية "نجل الفقير" ليست أقل من تلك الفضاءات وذلك التبجيل، وبالرغم من العمق الذي وصله مولود فرعون في كتاباته الروائية إلا أن هناك إشارات كثيرة لنقاد يسجنون هذا الكاتب في زاوية توحى بعدم مبالاته بالقضية الجزائرية، لكن الواقع الإبداعي وليس السياسي بشكله المباشر يؤكد على الاحترافية التي بلغها مولود فرعون في رصد هذا المجتمع في جبلية القبائلية ناسخا الكثير من

المواقف التي تؤكد تراجع مكانة المواطن الجزائري أمام هيمنة المستعمر، ومجابهته بلغة باحثة تترصد منافذ التحرر، ومشيرا إلى أبجدية تكتب خيالات المبدع على واقع بائس يعرقل تلك الأحلام من أن تجد سبيلا لها في التحليق، ومهما كان «الكتاب بعيدون كل البعد عن الصراع الفكري الذي يدور في حياة بلادهم فإنهم سواء أرادوا أم لم يردوا إنما يعكسون في كتاباتهم وفي مواقفهم تلك الصراعات السياسية والإيديولوجية والاجتماعية التي تمور بها حياة تلك البلاد»¹، ف«فوغولو» بطل رواية «نجل الفقير» على سبيل المثال، هو نموذج الطفل القروي في مجتمع مستعمر هشمه الفقر الذي تشخص في الكثير من القرى الجزائرية، هذا البطل الذي يسعى إلى بناء نظرة مختلفة للفرد الجزائري، من خلال تطوير حياته وفق سياقات نشأت في المقابل لتخدم هذا الطموح وهذا التحدي، ومن ثم ينسج الكاتب واقعا موازيا بمفردات إبداعية منتجة، فالعمل الإبداعي يرتقي عن الواقع بحرفيته، ويحترف ليخترق عالما جديدا لا ينأى بعيدا عن واقعه الاجتماعي والتاريخي معا، لكنه يستمد منهما استمراره وبقائه، وهذا ما ذهب إليه لوسيان غولدمان Lucien Goldmann فيما كتب مشيرا إلى أنه «ليس هناك أفعال اجتماعية منفصلة وأفعال إنسانية أخرى من شأنها أن تكون تاريخية، وحتى ليس هناك بُعدين متميزين لأفعال يمكن أن تكون مرتبطة بعلمين مختلفين»²، وما يعيننا حقيقة في تفعيل هذه الأبعاد سوى متابعة وتحليل تمظهرات الوعي القائم والممكن التي امتزجت مع الرؤية الجماعية، أي محاولة إعادة البنية الدالة الصغرى في بنية أكبر تتيح قراءتها بشكل أوسع، وهو ما يجعلنا نستكشف الرؤية للعالم من خلال بنية عميقة تصور امتزاج الرؤى المتعددة بكل توصيفاتها من خلال الأعمال الإبداعية للكاتب،

¹ - سعاد محمد خصر: الأدب الجزائري المعاصر، المرجع السابق، ص 127.

² - Lucien goldmann: Structuralisme génétique en sociologie de la littérature, in «Le structuralisme génétique», *op. cit.*, p. 17.

وأبعاد تلك الرؤية في الأعمال الروائية محل الدراسة، وفي شخصيات وظروف وأحداثٍ مخبوءة لها وقعها في بناء النص، باعتبار أن العمل الأدبي «هو التعبير عن رؤية للعالم، عن نمط من الرؤية والإحساس بعالم ملموس من الكائنات والأشياء»²، وهنا نقف عند مسألة لها أهميتها في «معرفة كيفية تحوّل تجربة ورؤية المجموعة الاجتماعية أو الطبقة إلى طريقة للرؤية والإحساس لدى الفرد دون أن يمس ذلك أفكاره ونواياه»³، ومن خلال هذه الوضعيات¹ نتعمق فيها بواسطة الأدوات الإجرائية للبنىوية التكوينية، في ضوء استقرار مكامن الوعي القائم وتدرجه نحو الوعي الممكن ومن ثم الوضعيات المضادة² في الوعي الممكن التي تقودنا إلى مفهوم "التجاوز" وتطبيقاته، حيث سنعالج ذلك وفق المنهج البنوي التكويني، أي تتمظهر الوضعيات في الوعي القائم (الفهم)، والوضعيات المضادة من خلال الوعي الممكن (التفسير) ثم التجاوز وتجميع الأجزاء في الرؤية للعالم، وسنتطرق إلى ذلك في هذا الفصل بالتفصيل.

لكن قبل ذلك نستكشف عوالم الكاتب مولود فرعون من خلال حياته وأعماله وملخص لهذه الأعمال محل الدراسة، منتبهين إلى ضرورة التطرق إلى الترجمة والمعنى في البعد الإثنوغرافي، هذه الإزدواجية التي أبدعت مجالات متعددة في الفعل الإبداعي، الكتابة من جهة كفن ودلالة، والبعد الإثنوغرافي المتغلغل في التفاصيل برصد ذلك التراث والإنسان بطريقة دقيقة، وأيضاً نتجه إلى خصوصيات هذه الترجمة

² - بون بسكادي: البنىوية التكوينية ولوسيان غولدمان، ضمن كتاب "البنىوية التكوينية والنقد الأدبي"، مرجع سابق ص 49.

³ - المرجع نفسه، ص 49.

¹ - Mohamed Salim Negged, *op. Cit.*, p. 06.

² - لفهم "الوضعيات والوضعيات المضادة والتجاوز"، «سوف نقول أنه بالنسبة إلى غولدمان، كما هو بالنسبة إلى ماركس، فإن الرجل، أو أعماله، أو حتى تاريخه، تتكون من تعدد الوضعيات التي يجد كل واحد منها ما يقابلها للتقدم نحو التجاوز. ومن الناحية الشكلية، ستكون الوضعيات والوضعيات المضادة هي الأجزاء، وسيكون التجاوز كلياً. وهذا حتى في الفكر الجدلي». أنظر: المرجع نفسه، ص 06.

من خلال العناصر الثقافية الواردة فى الروايات الثلاث، لنصل إلى مساحات الرؤية للعالم مجتمعة من خلال تمازج كل هذه الأدوات فى بحثها داخل فضاءات الأعمال الإبداعية المختارة.

1- مولود فرعون، نشأته وأعماله:

1- مولود فرعون:

يعتبر الكاتب والروائي الجزائري مولود فرعون من الكتاب الذين توغلوا داخل عوالم عميقة في بنيات الطبقة الاجتماعية بكل ما تحمل من فضاءات مختلفة وتفاصيل دقيقة، وعلاقات لها فاعليتها في الشخصية الجزائرية بكل تمظهراتها، وتنتز عبر نصوصه مؤشرات على مواقفه ضد كل الأوضاع، خاصة ما تجلى أثره نتيجة الحضور الاستعماري وتمثل عبر هذا الوجود داخل التفاصيل اليومية لحياة الأفراد، فهو «من الكتاب الجزائريين الذين كانوا يتنافسون فكريا بالحرف الفرنسي كنتيجة من نتائج الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر، لكن ذلك لم يفصل الكاتب عن هموم أمته، لأنها همومه، وبالتالي سحر امكاناته بالحرف الفرنسي لمناهضة الاستعمار الفرنسي وآثاره، والتعبير عن واقع أمته الرازحة تحت نير الاستعمار البغيض»¹.

ينتسب الكاتب مولود فرعون إلى عائلة تدعى «آيت شعبان، وفرعون» هو اسم أطلقته عليهم الحالة المدنية الفرنسية²، ولد في قرية «تيزي هبيل Tizi-Hibel، واحدة من قرى بني دواله Béni-Douala على بعد عشرين كيلومتر جنوب شرق تيزي وزو»³، و تيزي هبيل هي «البلدية القديمة لـفور ناسيونال Fort-National، (الأربعاء ناث إيراثن)⁴ وقد ولد رسميا في «8 مارس 1913⁵، ونشأ في عائلة فقيرة، أبوه المتوفى عام 1958 كان عاملا في المناجم بفرنسا، وقد كان الكاتب راعيا مدة

¹ - عمر بن قينة: دراسات في القصة الجزائرية، المرجع السابق، ص 183.

² - Rachida Saadouni : Mouloud Feraoun l'eternel Fouroulou Menrad. Edition Dar El houda. Alger., 2015. P09.

³ - Youssef NACIB : Mouloud Feraoun, edition Mehdi, Alger 2000. P.05.

⁴ - Rachida Saadouni, *op. cit.*, p.09.

⁵ - ولد في سنة 1912 وتم تسجيله رسميا في 08 مارس 1913. كما أنه ذكر تاريخ ميلاده في روايته "نجل الفقير".

عام، في السابعة من العمر دخل المدرسة أملا في الحصول على مفاتيح العلم والفرج، فالعائلة تنتظر منه الكثير، وجزاء اجتهاده ومواظبته، انتقل إلى المدرسة التكميلية بتييزي وزو بفضل المنحة، فكان هذا الانتقال حدثا بالغ الأهمية في القرية بأسرها، وبعد اجتيازه لمسابقة الدخول إلى دار المعلمين الابتدائية ببوزريعة أدرك أنه خُلِق ليكون معلما، قضى في هذه الدار العتيقة ثلاث سنوات وهناك تعرّف على إيمانوال روبلاس¹ Emmanuel Roblès الذي أصبح فيما بعد من أقرب أصدقائه إليه²، وقد كانت السنة التي ولد فيها مولود فرعون هي أيضا السنة نفسها التي ولد فيها ألبير كامو، وقد جمعتهما صداقة متينة، إلا أن فرعون كان كثير الملاحظة لما يكتبه كامو، وحكى ذلك في إحدى رسائله إلى روبلاس: «ردّ "كامو" على رسالتي، واستطعت أن أفك رموز جوابه، إنه واضح في تعابيره لكن خطوطه تعد صفرا في تقديري، كان سعيدا برسالتي حيث عاتبته فيها بعدم الكلام عن عرب وهران في "الطاعون"³، كما كانت له صداقات أخرى مع «إمانويل روبلاس، جرمان تيون، غابرييل أوديسيو، جيل روي، ريني جون كلوت، إدموند شارلوت، وشخصيات أخرى في عالم النشر والأدب»⁴.

¹ - إيمانوال روبلاس (1914-1995)، ولد بين عائلة متواضعة بوهران، كان والده مانوال يشتغل بناء، مات بسبب مرض التيفوس قبل بضعة أشهر من ولادة ابنه، أصل تسميتهم هي كاستيان Castilliam وتعني كما قال روبلاس (شجرة البلوط)، بين 1931 و1934 التحق بمدرسة (Ecole Normale d'Alger) أين تعرّف على مولود فرعون، تعرّف أيضا على ألبير كامو وريني جون كلوت وإدموند شارلوت في الجزائر العاصمة، نشر العديد من الأعمال وسافر إلى العديد من الدول، توفي في 22 فيفري، آخر أعماله كان (Jeunes saisons). أنظر: Fonds Emmanuel Roblès, le site officiel de Emmanuel Roblès. Voir le : 15-02-2018 :

<http://robles.bm-limoges.fr/bio-bibliographie-demmanuel-robles>

² - مصطفى ولد يوسف: من أعلام الرواية الجزائرية مولود فرعون مولود معمري، المرجع السابق، ص 09

³ - مولود فرعون: الرسائل، ت: عبد الرزاق عبيد، دار تلاتيقيت للنشر، د ط، الجزائر 2016، ص 54.

⁴ - Mehenni Akbal : Mouloud Feraoun-Maurice Monnoyer Histoire d'une amitié,

édition El AMEL, Alger 2007. P15

لقد تعلق بالمدرسة كثيرا وصنع فيها عالما موازيا، «ففي 1935 عين معلما في تيزي هبيل أين تزوج ابنة عمه "دهبية" التي أنجب منها 7 أولاد، وهذا الاسم هو من الشخصيات الرئيسية في رواية الدروب الصاعدة»¹.

وحين فتح نوافذ التعليم وتمكله التدريس وفضاءاته المتنوعة، تملكته حرفة البحث عن المعنى واكتشاف المختلف، وهنا نفذ إلى عالم النص متوغلا في دروبه الصعبة والشاقة، ففي «عام 1939 بدأ في كتابة روايته "فورولو منراد" المعروفة بـ "نجل الفقير" فيما بعد، وفي عام 1946 يرقى ليصبح مديرا، فكان مسؤولا حريصا كل الحرص على توفير الشروط الملائمة للأداء التربوي بالمدرسة ونظرا لكونه مسيرا ناجحا أصبح مديرا للمدرسة التكميلية بالأربعاء ناث ايراشن وكان ذلك عام 1952. وفي خضم اشتداد المعركة التحريرية انتقل إلى الجزائر كمدير لمدرسة النادور Nador في عام 1957، ثم مفتشا للمراكز الاجتماعية عام 1960، وتشاء الأقدار أن يقع ضحية حقد المنظمة المسلحة السرية في 15 مارس صباحا بالأبيار وكان من بين الضحايا أيضا مارشال باسي Marcel Basset وماكس مارشو Max Marchand وقد اغتيلوا رميا بالرصاص»². لعل هذه الحادثة قد تتبأ بها حين «كتب في 14 مارس 1962 وهو لا يدري أنها المرة الأخيرة التي يكتب فيها: "في الجزائر العاصمة الرعب في كل مكان، رغم ذلك الناس يخرجون لقضاء حاجاتهم... طبعا لا أريد أن أموت، ولا أريد أن يموت أبنائي لكني لم أحتظ لأي طارئ..»³، ويمكن تتبع سيرته عبر هذه النقاط⁴:

¹ Rachida Saadouni, *op. cit.*, p10.

² - مصطفى ولد يوسف:من أعلام الرواية الجزائرية مولود فرعون مولود معمري،المرجع السابق،ص ص09، 10.

³ - المرجع نفسه، ص 10.

⁴ - Mehenni Akbal, *op. cit.*, p. 13- 14.

- مولود فرعون من عائلة آيت شعبان و(فرعون اسم أطلقته عليهم المصالح المدنية الفرنسية)، ولد رسميا في 08 مارس 1913. بتيزي هبيل (حاليا تدعى بلدية آيت محمود، دائرة بني دواله، تيزي وزو).
 - تدرس وعمره 7 سنوات في قريته.
 - في 1928، نجح في امتحان المنح للدخول إلى المدرسة الابتدائية العليا في تيزي وزو.
 - في 1932، حصل على الشهادة التكميلية وعبر بنجاح امتحان الدخول للمدرسة العادية ببوزريعة، وتعرّف على إيمانويل روبلاس.
 - بين 1936-1937، درّس ب تاويرت عادن.
 - في 1938، تزوج ابنة عمه "دهبية"، وأنجب منها 7 أولاد.
 - بين 1937 - 1945 درّس في تابودريست، ببني دواله.
 - بين 1945-1946 درّس في آيت عبد المومن، ببني دواله.
 - بين 1946-1952، أصبح مديرا بمدرسة تاويرت موسى، ببني دواله.
 - بين 1952-1957، مديرا لمدرسة الشبان بفور ناسيونال.
 - في 1957، مديرا لمدرسة النادور، "كلو سالمبيي"، الجزائر.
 - 1960، أصبح مفتشا للمراكز الاجتماعية.
 - في 15 مارس 1962، أغتيل ب شاطو روايال مع خمسة من زملائه من طرف L'OAS منظمة الجيش السري.
- يمكن القول إن مولود فرعون كان حقيقة شخصية أدبية عالمية لها ثقلها الإبداعي الذي نسج لوحة خالدة، تأثر الكثير بمشهد موته، وكتبوا عن ذلك منتبهين لأثر هذا

المبدع الإنسان، قال عنه موريس مونييه¹ Mourice Monnoyer «مولود فرعون لم يمت أبداً، إنه يعيش في قلوب الذين يحبونه: أقرباءه، أصدقاءه، والعدد الكبير من قرائه. إنه فتح طريقاً نحو السلام والأخوة بين الناس... لن ننسأه أبداً».

لقد تأثر الكثير بفقدانه، وأعمق وصف نجده لهذه الحكاية، ما جاء في رسالة كتبها أحد أبنائه إلى مانويل روبلاس بعد اغتيال مولود فرعون، قال فيها: «كتبتكم، يوم الثلاثاء، رسالة إلى والدي، سوف لن يقرأها. إنه شيء فظيع». في هذه الرسالة، يروي الابن تفاصيل الليلة الأخيرة مع والده: "لقد سهرنا طويلاً معه يوم الأربعاء، وذلك لأول مرة منذ وجودنا في فيلا "لنغ". في البداية سهرنا في المطبخ، ثم انتقلنا إلى الصالون، وتذكرنا كل المدارس التي درّس فيها، وشاهدنا بعد ذلك برنامجاً في التلفزيون يتحدّث عن روايتك، وقد سرّه ذلك كثيراً، وأنا أعرف العلاقة التي تربطكما. بعدها، تحدّثنا عنك، ثم ذهب ليناوم. كنت في الفراش حين سمعته يقول لأمي: "اتركي الأطفال ينامون". كانت تريد إيقاظنا لنذهب إلى المدرسة. "كل صباح تُخرجين ثلاثة رجال، هل تعتقدين حقاً، أنهم سيعيدونهم إليك سالمين". بصقت أُمّي على النار، تحاول طرد الشؤم. وكما ترون، لم ينفذ ذلك. خرج والدي ولم "يعيدوه" إلينا... رأيتُه في غرفة الموتى: اثنتا عشرة رصاصة لم تُصب وجهه أيّ منها. أبي كان يبدو جميلاً، لكنه كان جامداً تماماً، ولم يكن يريد النظر إلى أحد. كان هناك نحو خمسين، بل مئة مثله، ممدّدين على طاولات ومقاعد على الأرض، في كل مكان. أمّا هو، فقد أرقدوه على طاولة في الوسط»².

¹ - موريس مونييه كاتب وصحفي ولد ب: نامير (بلجيكا) في 20 جوان 1920، أمه كانت قروية بسيطة، ووالده كان يعمل بالسكة الحديدية، كان من بين الأصدقاء المقربين لمولود فرعون. عاش 09 سنوات كاملة في الجزائر، من 1948 إلى غاية 1956. أنظر: Mehenni Akbal, *op. cit.*, p. 19.

² - بوداود عمير: مولود فرعون ابن الفقير.. في دروبه الصاعدة، جريدة العربي الجديد، 09 أفريل 2017، اطلع عليه بتاريخ: 2017-12-16: <https://www.alaraby.co.uk/culture/2017/4/9>.

2- أعماله:

منذ أن اكتشف مولود فرعون عالم الكتابة واتبع بريقها، واستنطق خبأها وهو يشتغل على تفرد معين له عمق كبير جدا، فلم يصاحب في قراءته وواقعه إلا تجارب إبداعية لها أثرها في اقتناص لحظات الكتابة العميقة، وبذلك فقد أصدر مجموعة من الأعمال الأدبية، خاصة ما جاء في جنس الرواية، منتهجا بناءا قادرا على أسر المتلقي واحتوائه، وسنتطرق إلى كل عمل على حدة باختصار حتى نستدرك معه لحظاته تلك في صفاء تلك التجربة¹:

- رواية نجل الفقير Le fils du pauvre، صدرت عام 1950، الطبعة الأولى (على حساب المؤلف) عن دار " Le Puy, Cahiers du nouvel humanisme"، وحصلت هذه الرواية على الجائزة الأدبية الكبرى لمدينة الجزائر في ديسمبر 1950. أما الطبعة الثانية (ملخص) صدرت عن دار Le Seuil، (Collection Méditerranée) 1954، ثم طبعة أخرى (Collection Points) في 1982، وفي 1995 اقتطع كل الجزء المعنون بـ فوغولو منراد، أعيد في كتاب "عيد الميلاد".
- الأرض والدم La terre et le sang صدرت عام 1953 عن دار Le Seuil، هذه الرواية حصلت على جائزة الجمهور في السنة نفسها، وأعيد طبعتها مع مقدمة لمانويل روبلاس سنة 1962، ثم في سنة 1976 أيضا، وأعيد طبعتها في سنة 1998 مع (La collection Points).
- أيام القبائل Jours de Kabylie، كتابات، ظهر هذا العمل أول مرة سنة 1954 عن دار Baconnier، وأعيد طبعه عام 1968 عن دار النشر Du Seuil.

¹ - Mehenni Akbal, *op. cit.*, p. 14-15.

- الدروب الصاعدة Les chemains qui montent صدرت عام 1957 عن الدار نفسها.
- أشعار سي محند، دراسة ميدانية نشرت عام 1960 عن دار Minuit .
- اليومية Journal، نشرت أول مرة عام 1962 عن دار Le Seuil، وأعيد طبعه سنة 1972.
- رسائل إلى أصدقائي Lettres à ses amis نشرت عام 1969 عن دار Le Seuil مع مقدمة لمانويل روبلاس.
- عيد الميلاد L'anniversaire هذا العمل نشر عام 1972 عن دار النشر Le Sueil (Collection Méditerranée)، وأعيد طبعه مع la collection Points سنة 1989.
- حي الورد La Cité des roses، الجزائر، دار يامكوم 2007، (بعد الوفاة)، وتعتبر هذه الرواية هي «الرواية الأخيرة لمولود فرعون، حيث كانت عبارة عن مخطوط غير مكتمل، وقد حررت منفصلة عن رواية "عيد الميلاد" لكي تُبقي على وحدتها، في هذه القصة التي تجري أحداثها سنة 1958، يقدم الكاتب مشهدا لمدير مدرسة عاشق لزميلة فرنسية، حيث تزوجا وعاشا حبا مستحيلا لم يعيشه معلم من الأقدام السوداء، محاولا أخذها إلى بلده وإلى مناخها وتقاليدها الخاصة، وتعتبر هذه الرواية رواية قدمت حرب الجزائر، في آخر انتفاضة للاستعمار، وهي استعارة للتقارب المستحيل بين البلدتين. وربما هو الكتاب الأقوى في كل ما كتب حتى الآن»¹.

José Lenzini : Mouloud Feraoun un écrivain engagé, édition CASBAH. Alger – 1
2016., p. 366-367.

- أما مساهماته في مختلف المجلات والجرائد فنختصرها فيما يلي²:
- "تعارض"، مجلة *Soleil*، الجزائر، عدد 06، جوان 1951.
 - "حول مدرسة الأدب لشمال إفريقيا"، مجلة إفريقيا، AEA، الجزائر، العدد 241، جويلية- سيبتمبر 1951.
 - "ثرثرة"، مجلة *Foyers ruraux*، باريس، العدد 08، 1951.
 - "عادات قبائلية"، مجلة *La vie au soleil*، باريس، سيبتمبر- أكتوبر، 1951.
 - "أحلام إرما السمينة"، *Les Cahiers du sud*، مارسيليا، عدد 316، الفصل الثاني 1952.
 - "أمي"، *Simoun*، وهران، J.M. Guiaro، عدد 08، ماي 1953.
 - "الأيام الجميلة"، *Terrasse*، جان سيناك، جوان 1953.
 - "الرد على التحقيق"، *Les nouvelles littéraire*، باريس، لاروس، 22 أكتوبر 1953.
 - "صورة جزائرية لمانويل روبلاس"، *Simoun*، وهران، J.M. Guiaro، العدد 30، ديسمبر 1953.
 - "الكاتب وشخصياته"، *Bulletin de l'amicale des anciens élèves de l'école normale de la Bouzaréa*، فيفري 1954.
 - "فوق الكراهية"، *Simoun*، وهران، J.M. Guiaro، العدد 31، جويلية 1954.
 - "الرحيل"، *L'Action*، تونس، الحزب الاشتراكي الدستوري، العدد 09، 20 جوان 1955.

² José Lenzini, *op. cit.*, p.369. -

- "الرحلة إلى اليونان وسردينيا"، *Journal des instituteurs de l'Afrique du Nord*، العدد 01، 29 سبتمبر 1956.
- "مغامرات عمي مشيفشي"، *Journal des instituteurs de l'Afrique du Nord*، العدد 01، 29 سبتمبر 1956.
- "مغامرات عمي مشيفشي" الجزء الثاني، *Journal des instituteurs de l'Afrique du Nord*، العدد 02، 13 أكتوبر 1956.
- "ذكرى دخول جديد"، *Journal des instituteurs de l'Afrique du Nord*، العدد 02، 13 أكتوبر 1956.
- "معلم قرية في الجزائر"، *Journal des instituteurs de l'Afrique du Nord*، العدد 03، 25 أكتوبر 1956.

هذه الأعمال التي نثرت بريقها في أفق غدٍ يترصد سحابات تتسع على المكان فتغير فيه ذلك الجفاف وتمنح له حياة جديدة، وهنا يمكن القول إن مولود فرعون صنع من خلال أعماله أيقونة سحرية ماثلة بمكانتها فوق قمة شماء، و«إضافة إلى هذه الأعمال القيمة اهتم الكاتب بالتراث الشفوي بشقيه النثري والشعري، فمن النثري نشره لحكايات شعبية هي "بقرة اليتامى، مقيدش والغولة، والشاب الجميل في قرية تيزي»¹، ولعل أعماله ليست بتلك الكثرة التي تعطي للمكتبة العربية والعالمية ذلك الكم الذي اشتغل عليه الكثير من الكتاب خاصة في أعماله الروائية، إلا أن رواياته الثلاث حققت نجاحا عظيما لا يحسب فقط على عالم الكتابة والإبداع العربي، بل على عالم الكتابة والإبداع في بعده الإنساني العالمي.

¹ - مصطفى ولد يوسف: من أعلام الرواية الجزائرية مولود فرعون مولود معمري، المرجع السابق، ص.17

3- ملخص الأعمال الروائية

1-3 نجل الفقير Le fils du pauvre

تجسد رواية "نجل الفقير" الانطلاقة الفعلية لعالم الحكي لدى مولود فرعون، فهي تعتبر «رواية مؤسسة في الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية، وقد عرفت تميزاً فريداً، حيث بدأها الكاتب في ربيع 1939، وأنتهى منها في أكتوبر 1944»¹. تستقرأ هذه الرواية الحياة الاجتماعية بكل مضامينها وتفصيلها الدقيقة، ترسم ذلك العالم الذي يواجه الظروف القاسية في ظل الاستعمار الفرنسي، في فترة استلهمت جزءاً كبيراً من حياة الكاتب، فهي كما نُشر في (L'Effort algérien du 9 février 1951) وحسب تعبير الكاتب نفسه، رواية «تحكي عن عالم بسيط جداً، قصة مؤثرة لطفل قبائلي عرف كيف يسمو فوق بؤس أسلاف عائلته وأصبح في قريته التي ولد فيها موجّهاً ومستشاراً للرجال. يا له من سرد عجائبي!»² وتتطلق الرواية من وصف مكاني يحدد موقع الأحداث التي ستجري فيها هذه الوقائع، بعد أن يستوقف القارئ في محطة عامة تعطي مسحةً خاصاً لخصوصية ذلك المكان، «إن السائح الذي يجرؤ فيتوغل في صميم بلاد القبائل، ليلمى سواء عن اقتناع أو عن شعور بالواجب في معالم يجدها بديعة الحسن، وفي مناظر طبيعية تبدو له ذات شاعرية فياضة فإذا هو يحس دوماً بضرب من التعاطف والتسامح إزاء السكان وأخلاقهم»³، لينتقل بعد ذلك إلى المكان الذي يحتوي الوقائع والأحداث، هذا المكان الذي يحمل تلك الأجساد وهي في صراعها من أجل البقاء، «تيزي» تجمع سكني يعدّ ألفي نسمة، ومنازلها يتعلق

¹ - Robert Elbaz, Martine Mathieu-Job : Mouloud Feraoun ou l'émergence d'une

littérature. Edition KARTHALA.Paris 2001., p 11.

² - Mehenni Akbal, *op. cit.*, p. 37-38.

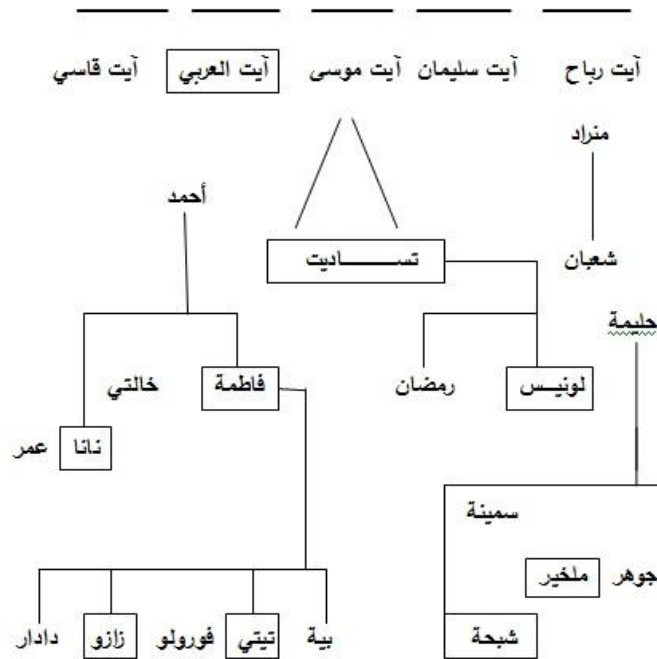
³ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 09.

بعضها ببعض، الواحد تلو الآخر، على قمة منحدر صخري كأنها فقرات ضخمة لبعض وحوش ما قبل التاريخ»¹.

في المقابل تظهر صورة لها دلالتها كي تتوغل في كل ركن وزاوية في القرية، مكان اجتماع أفراد القرية "جماعة"، المساجد التي هي دون الجماعات أهمية، أحياء القرية ومقاعدتها الحجرية، ساحة الموسيقين، وغير ذلك من المظاهر المادية ليوطن ذلك في المقابل بالعادات والتقاليد وحتى ما يعتاد عليه الأهالي من لباس ومأكل ومشرب، وما يشتغلون عليه وينتجونه في تلك القرية التي تحوي ثلاثة أحياء وبالتالي ثلاث جماعات، بالإضافة إلى تصوير شخصيات تلك القرية التي تنتسب إلى سلالة "مزوز":

سلالة مزوز

خروبة (1) خروبة (2) خروبة (3) خروبة (4) خروبة (5) البشرىون



مخطط يظهر شجرة سلالة مزوز²

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 10.

² - المصدر نفسه، ص 25.

إن واقع فوغولو (بطل الرواية) لم يكن هو ذلك الواقع بحرفيته، مهما بلغ الراوي من الوصف والتدليل، لقد التحق بالمدرسة الابتدائية بتاوريرت موسى، وكان يقطع مسافة طويلة سيراً على الأقدام، كان متطلعا إلى الأمام شغوفا بمهام المتحدي والصبر، فقد ولد ليجد الفقر أمامه، فأبواه فقيران لدرجة أن مستقبل رعي الأغنام كان يلوح في أفقه.

وفي المقابل لم يكن ذهنه خاليا، كل هذا جعله يغرق في قراءة ما حوله، فهو يصنع كائنات حية موازية تحاول تظليل هذا العالم الطفولي المليء بالأمال والتطلعات، في واقع بائس يستحيل منطقيا أن يغير من حياة الطفل شيئا، سوى أن يجعله مساويا لتلك الكائنات الحية، لكن ما يعمق صلته بالنص هو الوقوف على المشاعر الحقيقية والكامنة داخل عالم فوغولو.

لقد تأثر البطل بكل هذه الشخصيات التي حوله، وحاول استكشافها، وتقرب من بعضها، ونبذ بعضها الآخر، وانشغل أيضا بهذا المكان وبكل تفاصيله، وما يعمل عليه أهل القرية في جني الزيتون وصناعة الجرار، وحتى أولئك الذين يسافرون من أجل لقمة العيش حين يضيق بهم المكان وتتراكم عليهم العراقيل ويأسرهم ويخنق أنفاسهم الضيق، فكان والده من بين هؤلاء الذين سافروا من أجل ذلك حين تراكمت عليه الديون فلم يكن له من مخرج سوى أن يغادر في جنح الليل وفي ظلام حزن عميق، «لم يكد أحد من أبنائه يتوقع ذلك عشية الرحيل، وشاءت الصدفة أن يستيقظ فورولو أثناء الليل، لم يكن أبوه نائما، كان يدعو الله في الظلام بصوت مسموع راجيا من العلي القدير أن يكون به رؤوفا رحيفا»¹، ومع هذا السفر وهذه الغربة، ظل فوغولو منشغلا بدراسته وتعلم اللغة كي يتمكن من فضائها الواسعة، فكانت الرسائل التي

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 122.

تأتي من والده لا يفك شفرتها إلا بالاستعانة بشخص آخر، مما تبادر إلى نفسه أنه قادر على أن يفعل مثل ما فعل، وبمرور الوقت أضحى هو يكتب لوالده، وكان سعيدا حين تصله من والده بعض الكتب، كأنها صديق يجالسه في غيبة أبيه، كل ذلك لم يمنع الانتكاسات التي كانت تتهاطل من فترة إلى أخرى، ومن حين لآخر، تعيدهم كلما تقدموا شيئا إلى الأمام يتقهقرون إلى الوراء، وتمنع عنهم دوام أي فرحة.

لقد كان هدف فوغولو أن يكون معينا لوالده الذي كان يرغب في ذلك كثيرا، وغادر باتجاه المعهد بريئا صادقا مستعينا بطموحه كي يحصل على الإعدادية، ومنها إلى مدرسة ترشيح المعلمين كي يصبح معلما، وكان له ذلك، فقد تجاوز محنا عديدة، خاصة تلك التي منعت عنه المنحة، ولكن ورغم كل ذلك يشاء القدر أن يستمر وأن يتجاوز تلك المحن ويصل إلى ما كان يصبو إليه، تلهمه عبارة والده التي ظلت أيقونة تحيي داخله العزيمة وتعطيه فهما لما حوله وما يمكن أن يكتشفه في نفسه وما يمكن أن يكون عليه، «أنت ذاهب إلى الجزائر، ستكونون كثر، هنالك، لكن لن يختاروا منكم إلا نفرا قليلا، والاختيار دوما موكول إلى الصدفة، أما نحن، هنالك فوق فسنتنظر. إن أخفقت، فعد إلى المنزل متأكدا من صادق محبتنا لك. ثم إن معرفتك لن ينتزعها منك أحد، أليس كذلك؟ إنها لك، والآن ينبغي أن أصدع إلى القرية. ستعلم أمك أنني تحدثت إليك، سأقول لها أنك لست خائفا. -نعم قل لهم، هنالك فوق، أنني لست خائفا»¹.

إن هناك الكثير من الترتيبات التي جاءت في سياق تدافع الأحداث، تعيد قراءة تكون تلك الجماعة التي تحكم فئة من الناس، تلك الفئة التي تجسد حقيقة الوضع الاجتماعي، من خلال البطل الاشكالي الذي كان حاضرا في جميع سياقات النص الموازي الذي يقدم وجهة نظر مختلفة وقادرة على التقدم أكثر.

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 162.

3-2 الأرض والدم La terre et le sang

انبتت رواية "الأرض والدم" على مسافات عميقة داخل تفاصيل الحياة القبائلية وفي أعماق صورها، وتفرست في معاني العبور إلى الضفة الأخرى، هجرة شمال افريقيا من أجل لقمة العيش، هذه الهجرة التي تناولت البسطاء من الفلاحين والعمال نتيجة الوضع الاستعماري القاسي الذي لم يعطهم فرص الحياة الكريمة، ولتتحول هذه التنقلات من القرية إلى مواطن العمل والكسب أمرا عاديا يستقطب الكثير من سكان تلك القرى، تجاوزا لعيش لا يمنح شيئا لساكنه، حياة الفقر التي لمست كل ركن وزاوية، وتوغلت في تفاصيل قرية وصفها الكاتب وصفا سوداويا يعبر عن بشاعة وقسوة تلك الحياة، «ينبغي أن نعترف من الآن، بأن القرية بشعة جدا»¹، وتلك البشاعة تجسدت في الداخل والخارج، داخل أزقة القرية وبيوتها، وخارجها من خلال المنعرجات والمسالك المتعبة والصعبة المليئة بالأوحال والغبار، بحيث يكون الدخول إلى القرية والوصول إلى هذه المواطن كما وصفه الكاتب دخولا يحمل حدثا جلا، «يكون الدخول حدثا صاخبا»²، ولعل أبرز وصف للخلاء الذي تعرفه تلك المواطن تجسّد في حياة الأفراد وعلاقتهم بالمكان «لا نعثر في أي مكان على إنجاز إنساني عظيم أو ضخمة، معقد أو رائع، قادر على أن يصمد أمام نوائب الدهر، ويشهد على وجود ماض عريق وياهر، إننا لا نشعر هنا إلا بالجهد المعزول، الفظ، غير المثمر، لإنسان عديم الوسائل، إنسان يصارع باستمرار من أجل العيش، ونفهم أيضا أن هذا الجهد المضني لا يمكن أن يستمر إلى أبعد من حياة الفرد الواحد، لذلك كان الإرث دائما ضئيلا وعلى كل جيل أن يعيد الكرة من جديد، وأن يعمل لحسابه»³، وعلى هذا الأساس يلخص

¹ - مولود فرعون: الأرض والدم، دار تلاتنتيقت للنشر والتوزيع، ت: عبد الرزاق عبيد، د ط، ص 03.

² - المصدر نفسه، ص 04.

³ - المصدر نفسه، ص ص 09، 10.

الكاتب العلاقة بين الفرد والأرض، ويلخص تلك العزلة التي أضحت جزءا من حياته، ويشير إلى قلة الحيلة التي منعت هذه الأماكن من الرقي وصنع أثر مادي ثقافي يخلد تاريخها، حتى أن كل التغييرات التي طرأت على بيوت القرية كانت بعيدة عن الرمزية الحضارية التي قصدتها في تلك الجملة.

تعود أحداث رواية "الأرض والدم" إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، أي في الفترة التي تفصل ما بين الحربين العالميتين، وتستمر أحداثها إلى غاية 1930، وكان من المفترض أن تستمر إلى غاية 1950، فقد أكد فرعون في إحدى رسائله إلى روبلاس أنه كان ينوي أن يكتب وقائعا وأحداثا في الفترة ما بين 1910 وإلى غاية 1950، إلا أنه توقف في سنة 1930، ورأى أن البقية تأتي في العدد المقبل¹. ومن هنا تأتي أهمية هذه الرواية في كونها تنغمس في قراءة تيمتين هامتين، الفقر والهجرة، لأن سكان إيغيل زمان على حد تعبير بن سالم بيرا²، «غير قادرين على تجاوز مرحلة بسيطة من البقاء على قيد الحياة، وهذا يعني أنهم يعيشون يوما بيوم»³، ولأن الهجرة إلى فرنسا والانتقام والأخوة حسب ما قدمته الباحثة رشيدة سعدوني ومن خلال تعبير ميشال كيلبي هي «تيمات هذه الرواية»⁴ بالإضافة إلى حياة العائلات في هذه القرية وخصوصا حياة النساء، تنتشظى بين نوعين من الحياة وبين ثقافتين. وبالتالي، «ينظر للهجرة على أنها سبيل الخلاص بالنسبة للقرويين القبائليين الفقراء، هذه المنطقة المحرومة في الجزائر هي الأكثر تضررا من هذه الظاهرة، وهذا ما عمل عليه أليان جيلات وعبد المالك

¹ - Mouloud Feraoun : Lettres à ses amis, édition Ministère de la Culture. Alger 2009., -

p. 69.

² - باحث أكاديمي وأستاذ بجامعة الوادي، كان له رأى نقدي في أعمال مولود فرعون في الدراسة التي قامت بها

الباحثة رشيدة سعدوني الموسومة بـ " Mouloud Feraoun l'éternel Fouroulou Menrad"

³ - Rachida Saadouni, *op. cit.*, p 164.

⁴ - Ibid. P164.

صياد حين برهنا في دراسة لهما معنونة بـ "الهجرة الجزائرية إلى فرنسا" نشرت سنة 1984، حيث أكدنا على أنه "حتى 1918، كانت الهجرة الجزائرية تتمركز في بلاد القبائل"، وحسب الباحثين فإن الأسباب تتخلص في جانبها الاقتصادي»¹.

البداية تكون بعودة عامر أوقاسي (بطل الرواية) إلى قريته، محملا بملاحم الاشتياق لتلك الأجواء الحميمية، بعد أن عمل في فرنسا سنوات عديدة، لكن هذه العودة قد جلبت معها سحابات مختلفة، لقد عاد مع زوجته الفرنسية التي وإن كان قد حدثها عن هذا المكان، إلا أن واقع الأمر جعله يخجل من كل هذه الأشياء التي حوله، فانكب في تفحص ما حوله منتظرا هذه الجموع التي تأتي لمصافحته، في حين هي تسعى لمعرفة ما اختزن من أموال، وبقدرها يقدرونه، حتى والدته "كمومة" كانت على تلهف كي تعرف ذلك، لكن بصورة مختلفة، واستمر لمدة سنتين حتى يستطيع التأقلم في أجواء هذه القرية التي يراها مجددا كأنها صورة موحشة، فقد قرر حين كان في فرنسا ألا يرجع إليها أبدا، حتى وإن حملت أنفاس والديه، لكن ورغم ذلك ها هو يعود إلى موطنه منشغلا بأن يعود قبائليا أيضا.

لقد وجد والده قد توفي منذ زمن، وحل محله الفقر والجوع والتهميش والحرمان والحزن الذي يتربع في عمق قلب والدته، وها هو ابنها الوحيد يعيد لها بعض الأنفاس بهذا الرجوع، لكن ورغم ذلك فإن لهذه العودة ثمنها البهيف، العودة إلى الثأر، وسليمان شقيق القتيل لن يتخلى عن ثأره، وتتدافع الأحداث خلال هذه العودة التي لم يرحب بها سكان هذه القرية ومواطنوها، هذه العودة التي تتكرر لها الجميع، وتتكروا من هذه الأشياء التي حملها معه، أشياء غريبة مثله، فهم يعاملونه كالغريب أيضا. وعلى هذا المسار وبين الوقائع تنشأ علاقة بين زوجة سليمان وعامر، ولكن عامر ينتبه لهذا الأمر فيفجر المنجم وينتقم لهذا الصنيع، لينتهي معا.

¹ Rachida Saadouni, *op. cit.*, p. 169. -1

3-3 الدروب الصاعدة¹ Les chemins qui montent

منذ البداية ينتهج الكاتب نمطا جديدا في تناول عمله الإبداعي، حيث تظهر إحدى الشخصيات الرئيسية وهي في عرض مشهد يعبر فعليا عن الدخول لهذا العالم الروائي المليء بالعزلة والصخب، تمر هذه الشخصية "الذهبية" ببطء نحو ذكرياتها لتكتب وتتحدث في أناة، «أخذت (ذهبية) يوميات عامر، ووضعتها أمامها. ثم قربت منها صندوقا، واتخذت منه مكتبا، كما رأته يفعل غير ما مرة، وشرعت تكتب على دفتر صغير بلي غطاؤه الأخضر بعض الشيء. وظلت تكتب مستضيئة بالنور الشاحب الذي ينبعث من مصباح الغاز العتيق»²، هذا المدخل العميق الذي يحول تقنية الكتابة عند مولود فرعون من الدخول عبر المكان إلى الدخول عبر الشخصية وعلاقتها بالذات والآخر "عامر"، وبكل ما يحيط بها من تحولات، ومتأثرة بشكل واضح بشخصية "عامر بن عامر".

تنقسم الرواية إلى قسمين منفصلين، القسم الأول معنون بـ "La veillée- السهرة" ويترجمها الدكتور حنفي بن عيسى بـ "ليل وسهاد"، ويتضمن هذا الجزء 120 صفحة، أما القسم الثاني معنون بـ "Le journal- اليومية"، ويترجمها الدكتور حنفي بن عيسى بـ "يوميات عامر"، وتتضمن 167 صفحة في الترجمة العربية.

¹ - اعتمدنا في ترجمة عنوان هذه الرواية على ما اشتغلت عليه المترجمة والصحافية والأكاديمية الدكتورة سعاد محمد خضر في كتابها "الأدب الجزائري المعاصر"، حيث تعددت ترجمات هذا العنوان خاصة فيما يتعلق بلفظة "montent"، فترجمها الدكتور حنفي بن عيسى "الوعرة"، وترجمها حسن بن يحيى بـ "الشاقة" وغيرهما ممن ركز على لفظة "الشاقة"، لكن اشتغال الدكتورة سعاد محمد خضر كان في رأينا هو الأقرب، بحيث ترجمت هذه اللفظة بـ "الصاعدة"، فمن الممكن أن الكاتب تقصد هذه اللفظة دون غيرها، وباعتبار أن الكاتب لا يلقي بعباراته جزافا، فإننا اعتمدنا على حرفية هذه العبارة، بالرغم من اعتمادنا في التحليل على ترجمة الدكتور حنفي بن عيسى، ونرى أنه من الممكن ترجمة هذا العنوان كاملا بـ "الدروب التي تصعد دائما".

² - مولود فرعون: الدروب الوعرة، ت: حنفي بن عيسى، دار القصة، د ط، الجزائر 2012، ص 09.

تدور أحداث الرواية في أوائل الخمسينات، أين يستدرج "عامر" مناخات الذاكرة ليكتب ويتحدث ويبث ما في القلب من هواجس متعددة تركها في يومياته، فيظهر الراوي في هذا السياق علاقة حب بين عامر وذهبية، تلك المرأة المسيحية التي تربت في كنف الآباء البيض ونهلت من منابع الحياة المسيحية، وبفقدتها لعامر أضحت تتبع سبيلة كي تنهي ما بدأه، فحاولت الكتابة كي تنزع عن كاهلها بعض أثقال الحزن والألم، لذلك فذهبية «تعتقد جازمة أنها بنت لا كالبنت الأخرى، وبالتالي فهي شبيهة بعامر الذي هو رجل لا كبقية الرجال، وقد كانت دائما تصدر هذه الفكرة في حياتها»¹. ثم تتصاعد وتتطور حكاية ذهبية وعامر، وذلك الحب يظل هو الرابط القوي الذي جمع بينهما، غير مهتم بفقدانها لعذريتها عن طريق علاقتها بـ"مقران"، ولكن للقدر وجهة نظر أخرى حين يموت عامر ويترك في نفسها فراغا عظيما وجرحا بالغ الأثر في قلبها يزداد اتساعا يوما بعد يوم، ومن جهة أخرى تدافعت الأحداث في علاقتها بأمرها، وبمن حولها، من الرجال والنساء، وحتى مع طائفتها المسيحية، التي تصفهم بأنهم لا يحملون من هذه الصفة سوى الاسم.

لقد انبنت الرواية على جزأين، الجزء الأول تضمن تسعة فصول، أما الجزء الثاني فقد تضمن "يوميات عامر"، وكان الجزء الأول قد احتوى حكاية ذهبية منذ أن كانت مع الآباء البيض، حيث أضحت مسيحية المعتقد وغيّرت اسمها إلى "مونيك".

وترجع الأحداث إلى خروجها من الكنيسة ولم تشعر بالأسف لفراق الآباء والراهبات لأنها تعلم دورهم وتكن لهم فائق التقدير، إلا أن صفة الغرور قد طبعت سلوكها، فكانت تعلم ذلك مستعينة بصدقها في اتباع دينها من صميم القلب، فلقد تزوج والدها بـ"نانة مالحه التي كانت تقطن "ايغيل نزمان" وانتقل بها إلى "آيت واضو"، ولدت

¹ - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 19.

ذهبية وفي قلب والدها ضرر كبير بحيث لم يتخيل أن فعلا هذه الطفلة تكون هي ابنته، وحينما ماتت عادت أمها بطفلتها إلى "إيغيل نزمان".

كانت تعلم عن "عامر" الكثير من الأمور بحكم أنه ابن عمها الذي ولد من أم فرنسية أسلمت بعدما تزوجها والده، كما كانت أمه "مدام" مروجاً ثميناً لشخصيته. وهذا ما لفت إليه الانتباه، وجعل من ذهبية تتبع هذه الشخصية إلى أن وقعت في الحب، وأوقعت عامر أيضاً في هذه الرابطة المقدسة.

تتطور وقائع وأحداث الرواية في بعدها الاجتماعي، أين تتصاعد في منحنيات عديدة، بين شخصيات الرواية، ف"نانا مالحة" لم يُرغب في تواجدها في القرية، مما يشير ذلك إلى سمعتها، لكنها تحاول أن تقدم وجهاً آخر لها، ولإبنتها أيضاً، رغم المعاكسات الكثيرة التي تتلقاها في كل حين، فيغري "مقران" ذهبية بالزواج، لكنه يتزوج من أخرى، لتجد ذهبية قدراً آخر بعيداً عن مقران الذي فضل "لويزة" عنها، وانتقاماً منه سلمت له نفسها وفقدت شرفها نتيجة غيرة وطيش، لكنها وجدت في عامر ملاذاً منه، ومن "لويزة" زوجته التي أحبت عامر كثيراً، وفي سياق تجاذب هذه المشاعر والأحداث ينتهي الجزء الأول.

أما الجزء الثاني فإنه عبارة عن يوميات عامر، يتضمن اثنتي عشر يوماً، تبدأ بـ 20 يناير من الخمسينات، وينطلق من سبب اختيار هذا الاسم له، وكيف يميزه بين الناس، يتحدث عن أمه الفرنسية، وعن موتها، وعن احساسه باليتم، والأثر العميق الذي تركته بعد غيابها إلى الأبد، «كل ما أريده هو أن أكتب وأن أتحدث عن كل شيء: عن حياتي وعن حياتها، وأن أقول للناس بأن أمي، وإن غابت عن الأنظار، إلا أنها لا تزال هنا تحوم من حولي، وأشعر بها مندمجة في نفسي وأنها هي التي تتحدث

إلّكم جميعاً، وهي التي تريدني أن أكتب»¹. وفي السياق نفسه يأتي اليوم الثاني ما بين حياة عامر وتحولاتها ومناجاته لأمه التي افتقدها فعلاً، ولم يحزن أبداً لكون أمه فرنسية وأخواله الفرنسيون، هؤلاء الذين لا ينتمي إليهم مطلقاً، فقد عاش كغيره من الجزائريين الفقر والهوان على يد المستعمر.

في اليوم الرابع يتجه الحديث إلى علاقة عامر بذهبية وبوالدتها نانا مالحه، وهو جسده اتجاههما، ف"نانا مالحه" قد ساءت سمعتها، حيث يتداول الناس عنها كلاماً لا يشرف، لكن عامر لا تستهويه الأفكار المسبقة، بل يحب أن يأخذ المغامرة بنفسه ويستكشف لعله يجد لها عذراً، وفي الأيام الباقية تتدافع الأحداث بين نانا مالحه وعامر وذهبية، وفي آخر الرواية يطلعنا خبر انتحار عامر.

ويمكن اختصار أحداث هذه اليوميات في النقاط التالية²:

- موت أم عامر "مدام" وتجاوب ذهبية ونانة مالحه معه، ومواساتهما له.
- ذكريات عامر عن طفولته، وتعبيره بآبن الرومية (الفرنسية) التي تزوجها أبوه ومات.
- شعوره بالغرابة بين أهله.
- وهكذا يدعى لبيت نانة مالحه، فيلقى العناية التامة، ويتناول طعامه هناك، عند نانة مالحه وذهبية.
- اطمئنان عامر لهما، وذكريات عن أمه.
- حضوره مأتم "رحمة" التي انتحرت لتعاستها.
- يعود لذكرياته عن أمه، ويسافر وصاحبه سعيد إلى فرنسا، حيث يلقي سعيد حتفه.

¹ - مولود فرعون: الدروب الوعة، المصدر السابق، ص 145.

² - عمر بن قينة: دراسات في القصة الجزائرية، المرجع السابق، ص ص 187، 188.

- تفكيره فى الزواج من ذهبية، وتفكيره فى وضعه بفرنسا التى يجب أن يتقبل فيها كلمة "البيكو" لا بالنسبة لمنطقة القبائل فحسب، بل بالنسبة لكل الجزائريين وكل أبناء شمال إفريقيا عامة.
- وتبقى صورة ذهبية تلاحقه، والسخط على واقعه يضغط على صدره، ثم اكتشافه لاسم ذهبية المسيحي "مونيك" كما يكتشف أنها فقدت "عفافها" لكنه يعتقد أن الذى اغتصبها هو ابن شيخ البلدية، ثم نراه يذكر استعداده لمقابلة مقران بعد أن أحس خطواته فى الباحة ليصارعه، لكن تنتهي الرواية فى هذا القسم عند الإحساس بوقع خطوات مقران.
- ويصادفنا أخيرا خبر "جرائد 2 فبراير" يعلن خبر انتحار عامر.

II- الترجمة، وتحولات المعنى في البعد الإثنوغرافي

لقد اشتغل بعض المترجمين على تقديم عوالم الكاتب مولود فرعون بترجمة أعماله الروائية، ونقلها من فضاءاتها في أثواب اللغة الفرنسية إلى عوالم اللغة العربية بكل خصوصياتها الدلالية الثرية، ولعل الأمر الذي جعل هذه الترجمات قريبة من الأصل الفرنسي هو انتماء الكاتب للحياة العربية في بعدها الاجتماعي وبعدها الحضاري أيضا، ولذلك سوف نتطرق إلى دراسة مختصرة لهذه الترجمات، دون أن نغفل التعريف بالمترجمين الذين خاضوا هذه التجربة بكل صعوبتها ودروبها الصاعدة والشاقة، وأيضا العمل على تقديم هذه الأعمال من خلال مقابلة الترجمة بالعناصر الثقافية التي استوطنت هذه الأعمال.

1- تقديم المترجمين لأعماله الروائية محل الدراسة

1-1 محمد عجينة (نجل الفقير)

محمد عجينة كاتب ومترجم تونسي، اشتغل في مجال الترجمة الأدبية والفورية الشفوية والتحريرية، صدر له العديد من الأعمال، أهمها: «موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، حفريات في الأدب والأساطير، تاريخ تونس مع محمد الهادي الشريف، دروس في الألسنية العامة»¹، وترجمة لرواية الكاتب الجزائري مولود فرعون "نجل الفقير"، التي حاول ترجمها عدد معتبر من المترجمين عبر مختلف أرجاء الوطن العربي، مساهمين في تفكيك هذه العوالم داخل هذا النص الهام.

1-2 أحمد بن محمد بكلي (الأرض والدم)

أحمد بن محمد بكلي مترجم وروائي جزائري، «ولد في 1944 بغرداية، وهو من الكتاب القلائل الذين يكتبون باللغة الفرنسية في وادي مزاب، صدرت له رواية بعنوان

¹ - أنظر: محمد عجينة، مكتبة الملك فهد الوطنية، اطلع عليه بتاريخ: 15-06-2017:

<http://ecat.kfml.gov.sa:88/ipac20/ipac.jsp>

"حديث الصمت" عن دار القصة سنة 2008م¹، كما اشتغل في مجال الترجمة وقدم أعمالا مهمة للقارئ الجزائري والعربي، صدرت له عدة ترجمات منها كتاب "أعلام ومعالن" لمصطفى الأشرف²، ورواية "تنشئة جزائرية" لوسيلة تمزالي³، وترجم رواية الكاتب الكبير مولود فرعون "الأرض والدم"، هذا الكاتب الذي قال عنه إننا «نحس إذن، في بعض الأحيان، من خلال أحداث الرواية، بأن الكاتب، حتى وإن كان قبائليا، قد وقف من موضوعه موقف المتقف الذي ينزع أحيانا إلى معايشة شعبه من موقعه كمفكر سلك في حياته مضمار امتياز مكنه من رسم لوحات رائعة»⁴.

كما ترجم الكاتب والمترجم أحمد بن محمد بكلي ثلاثية الروائي محمد ديب إلى العربية⁵، ممتنها طريقا جديدا في الترجمة حيث أكد على جزأة الحوارات في هذه الروايات لكي يحافظ على محلية الرواية.

¹ - N. Maouche : L'amour pour exorciser la mort, la Dépêche de Kabylie : P le : 21 -

10-2009, consulté le : 25-03-2018 : <http://www.depechedekabylie.com/cuture>

² - أنظر: مصطفى ماضي: المتقف العارف بهوم مجتمعه والملتم بقضايا شعبه، ضمن استطلاع "في الذكرى السابعة لرحيل مصطفى الأشرف" لنواة لحرش، جريدة النصر، نشر بتاريخ: 13-01-2014، اطع عليه بتاريخ: 27-03-2018:

https://www.annasronline.com/index.php?option=com_content&view=article&id=61687

³ - أنظر: ريتا باسيل، وسيلة تمزالي امرأة مناضلة من الجزائر، جريدة الأخبار، نشر بتاريخ: 01-11-2013، اطع عليه بتاريخ: 16-04-2018 : https://al-akhbar.com/Literature_Arts/59801

⁴ - مولود فرعون: الأرض والدم، ت: احمد بن محمد بكلي، دار القصة للنشر، د ط، الجزائر 2012، مقدمة المترجم، ص 07.

⁵ - أنظر: حميد عبد القادر: جزأرت الحوارات للحفاظ على محلية الرواية، جريدة الخبر، نشر بتاريخ: 15-10-2011، اطع عليه بتاريخ: 16-04-2018 : <https://www.elkhabar.com//index.php?op=print&news=267717>

1-3 حنفي بن عيسى (الدروب الوعرة)¹

حنفي بن عيسى هو مترجم جزائري ولد في الجزائر عام 1932 ، يحمل إجازة في التربية وعلم النفس - جامعة دمشق 1960، إجازة في اللغة الانكليزية وآدابها - جامعة دمشق 1961. دكتوراه في الفلسفة- علم النفس اللغوي وقضايا الاتصال من جامعة الجزائر 1971. يعمل استاذاً لعلم النفس بمعهد علم النفس، جامعة الجزائر فن الترجمة تطبيقاً وتنظيراً. عضو جمعية الترجمة، وله ترجمات عديدة منها:

- 1- محاضرات في علم النفس اللغوي.
- 2- تعلم لتكون. - الجزائر 1974 - بمشاركة اليونسكو.
- 3- نتعلم ونعمل. - تحت اشراف اليونسكو.
- 4- تاريخ افريقيا العام
- 5- الدروب الوعرة. - رواية - الجزائر، 1967.
- 6- الجزائر الأمة والمجتمع. الجزائر 1983.
- 7- رصيف الأزهار لايحيب - رواية- الجزائر-1964.
- 8- من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية- الجزائر 1976.
- 9- النظام التربوي في الحال والمآل- الجزائر - بمشاركة اليونسكو.
- 10- الثقافة في الجزائر، ماض وحاضر.
- 11- فن الترجمة تنظيراً وتطبيقاً.

¹ - ن بعيبي: حنفي بن عيسى، موقع جمعية سيليفيس للصحة النفسية، اطلع عليه بتاريخ 02-03-2018،

<http://assps.yourforumlive.com/t56-topic>

2- خصوصيات الترجمة من خلال العناصر الثقافية الواردة في الروايات الثلاث

قدمت الروايات محل الدراسة ألفاظا وعبارات معينة كانت مفتاحا للعبور إلى خصوصية العناصر الثقافية التي تساهم في تشكيل تلك الجماعات، أو تندرج تحت البعد الاجتماعي الخاص الذي يبني تلك العلاقات بين الأفراد في تلك الجماعات، ومنها ما يشكل شبه ثوابت تفرض منطقتها على سلوك الجماعة كالأمثال والحكم التي تقيم سلوك الأفراد وتعيدهم إلى النمطية الاجتماعية المتوارثة، أو تلك التي تعطي رمزية خاصة للبعد الثقافي الذي يمنح الحضور الخاص لتلك الفئات الاجتماعية، ولذلك سنعمل على متابعة الأهم منها والتي تحمل في داخلها تمثلات دالة داخل المجموعات الاجتماعية المكونة لتلك الفئات.

2-1 جماعة (Djema):

من خلال سياق النص يندرج هذا اللفظ في خصوصيات بلاد القبائل (القرية)، حيث تستعمل هذه الكلمة للتعبير عن جماعة معينة بذاتها، فلكل حي من أحياء القرية "جماعة" لها مكانها الخاص في ذلك الحي، هذه الجماعة التي تعطي للفرد حضورا و"رجولة" ومكانة في القرية، وتكون تلك المجالس في سياق ندوة تطرح فيها إشكالات القرية وتتكاتف الآراء من أجل حلها، كما تؤخذ المستجدات منها والأخبار وما تبع ذلك من تفاصيل صغيرة، فالقرية «ثلاثة أحياء، وبالتالي ثلاث "جماعات" ولكل "جماعة" مقاعدها الحجرية وبلاطاتها اللماعة (...). وثمة أيضا مسجدان، ومن الواضح الجلي أن المسجدين دون "الجماعات" أهمية»¹، وهنا تكمن أهمية الجماعة تلك ودورها الريادي في تلك القرية «وقلما كان الفلاح يقضي أوقات الاستراحة في كوخه بين النساء، فالجماعة ملجأ أمين ومتوفر دوما ومجان»²، حتى الأطفال حين يستدعونهم

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 11.

² - المصدر نفسه، ص 16.

للجلوس يكون ذلك بالنسبة لهم عرسا كبيرا وفرحا عظيما، فهم لهم مكانتهم أيضا، حيث «يتعلم جميع غلمان القرية منذ عهد مبكر أن لهم مكانهم في الجماعة، ولأدنى غلام نكر من الحقوق ما لأي واحد، وهذا ما لا نتردد البتة في أن نذكر به الكبار بنفس القدر من الوقاحة واللياقة»¹، وعليه فقد قدم المترجم تعريبا لهذه اللفظة وحافظ على حرفيتها لأن الكاتب نفسه قدمها في ثوبها العربي وتداولها الأمازيغي العامي "جماعة-Djema"، محافظة منه على روح النص كي يبقى له خصوصيته في تلك المنطقة، ولكي تبقى تلك الألفاظ تشير إلى معالم هذا المكان.

2-2 خرايب Karoubas:

يصفها شارل أندري جوليان² Charles André Julien بأنها «جملة من العائلات المتواجدة في بلاد القبائل، يجتمع شملها في ثلاثة مواقد من النار وقد يصل عددها إلى خمسة عشر»³، ومن السياق يظهر أن الخرايب مجموعة من العائلات تنتسب إلى جد معين، لكن في سياق التلاحم بين العائلات والأصول، «لا يهم إن كان لكل حيّ جده الخاص فقد احتفلنا منذ عهد بعيد بزيجات بين الخرايب بحيث أن تاريخ القرية الآن هو تاريخ واحد كأنما هو تاريخ شخص واحد، فلا وجود لطبقات مغلقة ولا لألقاب نبيلة تختص بها أسرة دون أسرة»⁴، «كانت الثقة التي أبدأها عامر مؤشرا بديهيا لثرائه، لم يلبث أن وجد في القرية معجبين به، أبدت "خروبوته" اعتزازها باستقبال العائلة

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 36.

² - شارل أندري جوليان ولد بمدينة كان (Caen) الفرنسية عام 1891 وتوفي عام 1991، مؤرخ وصحافي فرنسي مختص في شؤون المغرب العربي، وقد درّس خاصة في معهد الدراسات السياسية بباريس، وفي المدرسة القومية للإدارة وفي السوربون. أنظر: شارل أندري جوليان، الموسوعة الحرة ويكيبيديا، اطلع عليه بتاريخ: 18-05-2017: https://ar.wikipedia.org/wiki/شارل_أندري_جوليان

³ - Charles André Julien : Histoire de l'Algérie contemporaine. Paris 1964, PUF. P58.

⁴ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 13.

الجديدة»¹، كما أن هذه السلالات التي يقدها الأهالي تعتبر معطى من معطيات وجودهم في الحياة، لذلك فأغلب السلالات تتضامن فيما بينها وتتجاوز، «إن الحي السفلي مثلا من سلالة مزوز. كان لمزوز خمسة أطفال ذكور وهبوا أسماءهم إلى كل أسرة من أسر الخروبة الخمس. ولذلك تشتمل الخروبة على آيت رباح، وآيت سليمان، وآيت موسى، وآيت العربي، وآيت قاسي»²، حتى أنهم يعرفون السلالات الدخيلة التي تنتسب للمكان فقط دون الخرايب، «أما البشيريين فليس جدهم سوى لاجيء أتى من الجرجرا، وليس البشيريون فخورون بأصلهم، وهم يستشعرون في قرارة أنفسهم ببعض النقص، أما الآن فلم يعد أحد يفكر في ذلك»³، لأن انفتاح الحياة على تعقيدات أكبر وأعمق جعل مثل هذه الأمور تقل أهميتها مع الزمن.

2-3 الأمين Lamin

مثلا استعمل الألفاظ السابقة بحرفيتها منتبها إلى ضرورة توطين معالم النص بخصوصية المنطقة ثقافيا، فقد ترك هذا اللفظ بحرفيته أيضا، ويعتبر "الأمين" هو الشخص الذي يأتونه أهالي القرية على شؤونهم المختلفة، ويقوم مقام الشيخ الأول الذي يستمع إليه كبار القرية وصغارهم، فهو رئيس القرية الذي يتولى أيضا فض النزعات وإصلاح ذات البين.

2-4 الأمثال والحكم

تعتمد الأمثال والحكم على تأصيل نوعي في حياة الجماعة، فهي نتيجة لتجربة طويلة وعميقة بين الأجيال، ولكل عدد من الأجيال مصطلحه ولغته في الأمثال والحكم، تكون كقاعدة سلوك تقوم مدارك الفرد كي يعدل ذلك السلوك، وتكون كتجربة

¹ - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، ص 58.

² - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 13.

³ - المصدر نفسه، ص 13.

يستفيد منها الفرد في حياته اليومية، هي مدرسة أحيانا لمفاهيم الحياة، لذلك تنتقل هذه الأمثال وهي محافظة على دلالاتها العميقة تفرض منطقتها على جميع المتلقين سواء استفادوا من عمقها أو لم يستشرفوا بريقها.

وقد جاءت بعض الأمثال في سياق النص تتموضع في بعدها الاجتماعي «إسطبل الميل، يا مزين من برة آش أحوالك من الداخل»¹، وهي تستقطب في دلالاتها كل معنى مادي أو معنوي سطحي يستجلب إليه كل فرد يعنى بتغليب الأمور التافهة أو الخبرة بغلاف لا ينتسب إليها ويعطي صورة عكسية لما هي عليه.

كما جاء من الأمثال «نحن جيران للجنة لا للمضايقات»²، يندرج ضمن توطيد العلاقة بين الجيران، يتكاتفون ويتعاونون ويحبون بعضهم بعضا، لأنهم يهدفون إلى أهداف سامية لا تعمل ضمن سياقات المضايقة والصراع بينهم، إضافة إلى أمثال أخرى، «ضربة ابنة اقدي وقومي»³، أي أنها «ضربة من يقال لها اقدي وقومي يعني ضربة أمة لقيامها وعودها في خدمة مواليتها، "عن الميداني مجمع الأمثال (المعرب)"⁴، و«ما من كومة من القمح إلا وفيها نفايات»⁵، وهنا تأتي رمزية عدم الكمال في شيء يخص الإنسان، باعتباره ضعيف لا يقدر أن يصل إلى نطاق ذلك الكمال، فلا يوجد إنسان تنسجم داخله جميع الصفات والمثل الإنسانية الحميدة، وتتحد فيه، باعتبار أن النقص أيضا من بين صفاته، فلا يوجد في هذا الوضوح الذي يكتسبه إلا وبعض الظلام يتخلله ويتوغل داخله.

1 - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 12.

2 - المصدر نفسه، ص 12.

3 - المصدر نفسه، ص 31.

4 - هكذا في تهيمش مجد عجينة وشرحه لهذه العبارة، أنظر: المصدر نفسه، ص 31.

5 - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 154.

2-5 عناصر ومحددات ثقافية أخرى

يتضمن العمل الإبداعي لدى مولود فرعون ألفاظا وعبارات جاءت في بعدها الأمازيغي والعربي، تعطي خصوصية معينة لذلك المجتمع، وتميزه بشكل معين عن بقية المجتمعات، وقد تتقاطع هذه العناصر مع مجتمعات لها الطبيعة نفسها في بعدها الجزائري والجبلي، وسنورد بعض الأمثلة -رواية نجل الفقير كنموذج- كما جاءت في النص الأصلي، و كما وردت في ترجمة محمد عجينة:

الترجمة	المعنى	النص الأصلي
إكوفان	جرة كبيرة من الطين غير المشوي	Les ioulas
العيد	احتفال ديني	L'aïd
خروبة	سلالة	Karouba
تبراري	فيفري	Tibrari
لمين	رئيس القرية	Lamin
القائد	القاضي	Le caïd
دبوس	هراوة	Debbous (massue, casse-tête)
الشواري	هو خُرج يُوضع على ظهر الدواب للحمل.	Chouari
البركة	الحظ والنعمة	La baraka
خالتي	خالتي	Khalti
عمالن	عمال	Amalen
الثربي	ثربي	Le gourbi

3- الترجمة وحدود النص

إذا اعتبرنا -مبدئياً- أن الترجمة انتقال من مستوى لغوي وثقافي معين إلى مستوى لغوي وثقافي آخر، فإن ذلك وعلى مستوى تطبيقي يشكل عقبة كبيرة في وصول النص بروحه الإبداعية إلى المتلقي في اللغة المستقبلية، ولعل هناك من اعتبر الترجمة خيانة للنص الأصلي باعتبار نشوء النص في ظروف اجتماعية وثقافية خاصة لا تتفق ومعطيات النص المستقبل الذي بدوره له خصوصياته الاجتماعية والثقافية والحضارية، هذه العناصر الثقافية هي التي تميز مجتمعا لغويا عن مجتمع لغوي آخر، من ناحية الخطاب أيضا ومن ناحية التلقي، فهذه الخصائص تساهم في صعوبة عملية الترجمة خاصة في المجال الإبداعي الذي يركز على تفاعل شديد بين الكاتب ونصه والظروف المحيطة به.

ومن هنا يمكن أن نتطرق إلى جملة من الأمثلة وكيفية التعامل مع النص الأصلي خاصة في ترجمة رواية "نجل الفقير" مثلا، واعتمدنا على أربع ترجمات (محمد عجينة، عبد الرزاق عبيد، نسرين شكري، الحبيب خنيسي)، ونتساءل في المقابل عن الإشكالات التي تقابلنا في فهم النص، فهل حقق المترجم مراد الكاتب، أم نزح في مواقع عدة عما كان أصيلا في الرواية الأصلية؟

الترجمات:

- نجل الفقير: ترجمة محمد عجينة، سراس للنشر، تونس 1998.
 - ابن الفقير: ترجمة عبد الرزاق عبيد، دار تلاتتيقت، الجزائر 2012.
 - ابن الفقير: ترجمة نسرين شكري، المركز القومي للترجمة، مصر 2014.
 - نجل الفقير: ترجمة الحبيب خنيسي، منشورات الزخارف، تونس 2015.
- تتفتح عتبة العنوان على دلالة واضحة لا يتصارع خلالها المعنى في استدراج فضاءات مختلفة، فهو يركز مباشرة على مصطلحين دقيقين وواضحين تماما (الإبن،

الفقير)، لذلك نجد هذا العنوان يختلف فقط في جزئياته الأولى (ابن، نجل) بين الترجمات التي نطرحها في هذه الدراسة، إلا أن الاختلافات العميقة تظهر شيئاً فشيئاً في فضاء هذا النص، ففي لغته الفرنسية، هو نص أسر ومختلف، عميق ودلالي، صنع لحضوره هالة إبداعية فريدة، على غرار ما يكتب فيكتور هيجو وألبير كامو، إلا أن خصوصيته أكثر تكمن في خصوصية الموضوع الذي يتناوله، لذلك تجد عملية الترجمة أو التعريب تأخذ منحنيات عدة، نتناول منها القليل أو ما نراه مناسباً لاحتواء الفكرة.

- عتبة مدخل الرواية مقولة لأنطوان تشيكوف:

«Nous travaillerons pour les autres jusqu'à notre vieillesse et quand notre heure viendra, nous mourrons sans murmure et nous dirons dans l'autre monde que nous avons vécu de longues années d'amertume, et Dieu aura pitié de nous..»

يتناول عبد الرزاق عبيد هذه العبارة بالشكل التالي: «نعمل على الآخرين إلى أن نبلغ الشيخوخة، وعندما يحين أجلنا نقضي دون مهمة. ونقول في العالم الآخر: إننا شقونا، وبكينا، وقضينا سنوات طويلة من المرارة، وحين ذاك يعفو الله عنا».

وعند نسرين شكري: «سوف نعمل لأجل الآخرين حتى الشيخوخة، وعندما تحين الساعة سنلقي حتفنا بلا همس، وسنقول في العالم الآخر إننا عانينا، إننا بكينا، إننا عشنا سنوات طويلة مريرة، وسوف يرأف الله لحالنا».

أما الحبيب خنيسي: «سوف نعمل من أجل الآخرين إلى أن نبلغ سن الشيخوخة، وحين تحلّ ساعتنا سنموت في هدوء. وسنقول في العالم الآخر أننا تألمنا وبكينا، وأننا تجرنا المرارة لسنوات طوال، والله سيتولانا حينئذ برحمته».

لم يكن عبد الرزاق عبيد موفقا في استنتاج مكان العبارة في ثوبها العربي (نعمل على الآخرين... نقضي دون همهمة.. إننا شقونا)، أما الترجمات الأخرى فكانت إلى حد ما متقاربة، لكن ما نلاحظه أن الترجمة التي تناولت الحرفية والمعنى معا، هي التي اشتغل عليها محمد عجينة، فيشكل ترجمته كما يلي: «سوف نعمل لغيرنا حتى نبلغ الشيخوخة، وعندما تحين ساعتنا نموت دون جلبة، وسنقول في العالم الآخر إننا تألمنا، وبكينا، وعشنا سنوات طويلة من المرارة، وسيشملنا الله برحمته».

وسنورد بعض الأمثلة بشيء من التفصيل أكثر، ففي ترجمة كلمة (djema) و(tadjemaît) التي قدمها مولود فرعون في ثوبها الأمازيغي، وقد قصد ذلك لأنه كان من الممكن أن يعبر بلغته الفرنسية البليغة ويقدم مرادفا لها دون عناء، لكن لغة الكاتب المبدع وفلسفته لها بعد في اقتناص العمق الذي يريد أن يبلغه، فكان الكاتب عبر هذه العبارات الأمازيغية القبائلية وعبر موضوعه وبيئته بفعل خصوصية هذه المنطقة ودلالاتها المعرفية وخلفياتها الدينية وعناصرها الثقافية، ليحول المتلقي إلى تلك الأجواء، تلك الدروب الصاعدة وما تحمل من أجساد وأشياء وأفكار، لقد أضاف المترجم محمد خنيسي إلى لفظة (tadjemaît) عبارة (أعيان القرية)، وعربتها المترجمة نسرين شكري إلى (مجالس الشيوخ)، أما المترجم عبد الرزاق عبيد فلفظها (تاجماعث)، في حين حافظ عليها المترجم عجينة كما تنطق (التادجمايت)، و(djemas) إلى (جماعة)، هذا لانتباهه لقصدية الكاتب في استعمال هذا اللفظ، كما نجد ذلك في ترجمة كلمة (les ioulas)¹ التي شرحها المؤلف في النص الأصلي بأن «مفردها إكوفي: أي جرة كبيرة من الطين غير المشوي تخلط بالهشيم وتوضع فيها الحبوب أو مجفف التين (تعليق في الأصل الفرنسي)»²، في حين يتجاهل التهميش كل من عبد

¹ - Mouloud Feraoun: Le fils du pauvre, edition Talantikit. Bejaia 2015, p. 20.

² - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 15.

الرزاق عبید ونسرین شکری، ویورده بتصرف محمد خنیسی داخل المتن الروائی نفسه، مع أن واجب الترجمة والأمانة العلمية أن يتتبع التهميش كما هو في الأصل الفرنسي ويضعه في مكانه من الرواية.

وفي السياق نفسه تأتي لفظة (l'aïd)، حيث تجدها في النص الفرنسي مكتوبة هكذا بحروف فرنسية وبمعناها العربي، ثم يضع الكاتب تهميشا يشرح فيه معنى هذه الكلمة (Fête religieuse)¹، على أن المترجمين جميعهم لم ينتبهوا لهذا الفعل، وكان من واجبهم أن يضعوا تهميشا في نص الترجمة العربية، معلقين فيه على أن النص الفرنسي يقدم هذه الكلمة بهذا الشكل، وهذا كي تكون الأمانة العلمية في أتم صورها مهما كان رأي المترجم في استبعاد مثل هذا التهميش، وهذا ما يدفعنا في المقابل إلى القول بأن الترجمة لا يتدخل فيها رأي المترجم الشخصي فيحذف أو يضيف داخل المتن، ومثالنا على ذلك الإضافة التي وضعها مترجم رواية "الأرض والدم"، حين جاء في سياق الرواية كلمة "محمد"، وهو محمد رسول الإسلام ﷺ، فكان النص في صورته الأصلية بالشكل التالي: « *Mahomet, pour ne pas être en reste, a imposé à ses fidèles un jeûne prolongé de façon à leur bien faire sentir les affres de la faim* »²، وقد ترجم أحمد بن محمد بكلي هذا النص، لكنه أضاف عبارة "ﷺ"³ في ترجمته ولم يعلق عليها، مع أن المؤلف لم يذكر صيغة الصلاة على النبي، ومع أهميتها الدينية الكبيرة وقيمتها المقدسة لدى المسلمين إلا أنه كترجم لا يحق له أن يضيف شيئا، لأن القارئ يعتقد أن المؤلف نفسه ذكر ذلك، وربما كان له قصد معين.

¹ Mouloud Feraoun: Le fils du pauvre, *op. cit.*, p. 21.

² Mouloud Feraoun : La terre et le sang, édition Talantikit. Bejaïa 2016., p. 16.

³ - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، ص 27.

وإذا حاولنا أن نضع بعض العبارات والمفردات في مقارنة بين هذه الترجمات، فيمكننا أن نعطي بعض الأمثلة دون حصر جميع الاختلافات بين الروايات التي ذكرناها سابقا:

محمد عجينة	عبد الرزاق عبيد	نسرین شکري	محمد خنيسي	Mouloud Feraoun
عقلي	آكلي	عقلي	عقلي	Akli
ثلاث جماعات	ثلاث تاجمات	ثلاثة مجالس شيوخ	ثلاث جماعات	Trois djemas
الخراريب	القروبوات	العائلات/ الكاروبا	الخراريب	Karoubas
إيكوفان	إيكوفيات	خزانات العائلة	أكوفان	Les ioulas
حرافة الرنكة المدخنة وحدة طعمها	حمازة السمك المدخن	رائحة السمك المدخن	رائحة سمك الرنكة المحترق	L'âcreté du hareng fumé

من جهة أخرى سنتطرق إلى الرواية التي اعتمدنا عليها في دراستنا، رواية "نجل الفقير" كمثال على تطبيقات الترجمة، واشتغال محمد عجينة داخل عوالمها، فقد كانت ترجمته أكثر نضجا من الترجمات التي تصرفت كثيرا في دلالات النص ولم تشتغل على تعدد آليات الترجمة واحترافيتها، إلا أن بعض اختياراته للمقابل في اللغة العربية لم تكن تأخذ سحرها الدلالي، وسنورد بعض الأمثلة في هذا الجدول:

المقترح	الترجمة	النص الأصلي
-كنتُ الأكثر جرأة في التملق.	كنت أعرف كيف أتملق أكثرهم جرأة	Je savais flatter le plus audacieux
لا أدري ما أقول	لا أحير جوابا	Je ne saurais le dire

كان عقلي طيبا مثل الصبية	كان عقلي مليحا كأنه بنية	Akli était beau comme une fillette.
إذا جاء من يشتكي مني، بحث عمي عني ليعاقبني	وإذا جاء إلى عمي مشتك يشتكي، طلبني لمعاقبتي.	Si on venait se plaindre, mon oncle me cherchait pour me punir .
فهمت لماذا لم أفقد من يدافع عني	فهمت آنذاك لماذا لم أعدم مدافعين عني.	On comprendra pourquoi je n'ai pas manqué de défenseurs
لماذا الإبن الوحيد الذي كنته لم يتعرض لكل المضايقات التي يتعرض لها عادة الأطفال المدللين في قاعة الدرس	ولماذا لم يصادف الابن الوحيد الذي كنت جميع المضايقات	Pourquoi le fils unique que j'étais n'a pas rencontré tous les désagréments qui attendent généralement en classee les enfants gâtés.
كنت أذهب إلى المدرسة دون أفكار مسبقة	كنت أذهب إلى المدرسة بدون سابق أفكار	J'allais à l'école sans arrière-pensée
لا يبدو أن آباءنا ومعلمينا يعلقون أهمية كبيرة على ما نفعله	فلم يكن أهلونا ومعلمونا يولون ما كنا نقوم به في المدرسة كبير أهمية.	Nos parents et nos maîtres ne paraissent pas attacher une grande importance à ce qui nous faisons
مما لا شك فيه أن الأطفال الأصغر من أبناء عموماتهم، لا يأكلون أكثر، هناك ما يمكن كسبه بعزل أنفسهم.	مما لا شك فيه أن أبناءها، لأنهم أصغر من أبناء عمّهم، لا يأكلون بقدر ما يأكلون، فالغنم كل الغنم في اعتزالهم.	une chose est certaine, c'est que les enfants, plus jeune que leur cousine, ne mangent pas autant, il y a tout à gagner en s'isolant.

III- الرؤية للعالم في روايات مولود فرعون (نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة)

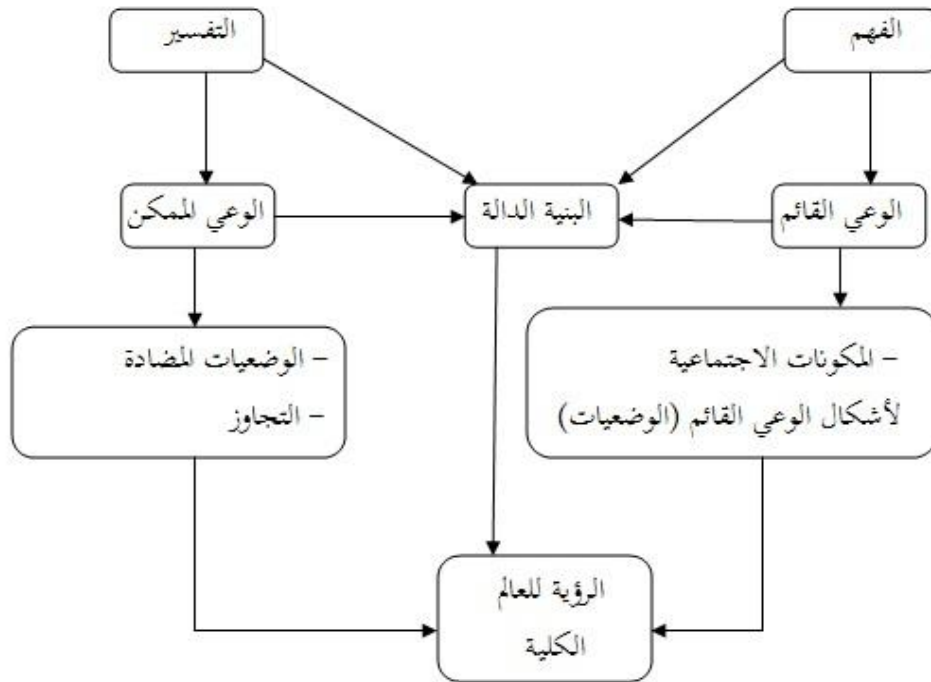
تتمظهر هذه الدراسة من خلال تجليات البنيوية التكوينية وبواسطة المبادئ الأساسية التي نعمل على إعادة بنائها من خلال (الفهم، والتفسير)، حيث تضمن (الفهم) الوعي القائم متصلاً بالبنية الدالة ومنه المكونات الاجتماعية لأشكال الوعي القائم، وهو ما ينسجم ويتسق مع مفهوم الوضعيات (الوضعيات القائمة أو الفعلية)، وفي المقابل يأتي التفسير الذي يتصل أيضاً بالبنية الدالة ويتضمن الوعي الممكن، ومن خلاله نقف على الوضعيات المضادة لنصل إلى التجاوز، أي تجاوز الوضعيات المضادة (الوعي الممكن) لنخلص إلى الرؤية للعالم (الكلية)، لذلك فقد أكد لوسيان غولدمان على مبدئين أساسيين كان «أولهما هو تبيين نوع العلاقة الموجودة بين الفكر والواقع، وثانيهما أن للفكر موقعه الطبقي في المجتمع، وهذا ما يجعل النص يحمل رؤية للعالم، يتوجه النقد في تحليله للكشف عنها، وبذلك يصبح من مهمة الناقد البحث عن هذه العلاقة بين النص والواقع الاجتماعي، ثم تحديد الموقع الفكري الذي تنهض منه هذه العلاقة»¹، وهنا «يتحوّل العمل الأدبي باعتباره مساحة تعبيرية عن رؤية العالم إلى تصريح مباشر عن مواقف سياسية أو أطروحات إيديولوجية مباشرة تسعى لتصحيح الوضع أو تنص بصورة صريحة على ما يجب أن يكون عليه»²، حيث يتضمن المستوى التفسيري خصوصية المجال التطبيقي للبنيوية التكوينية، فيندرج ضمنه الوعي الممكن والتجاوز، أي تجاوز الوعي الممكن إلى الكلية، وفي هذا السياق يؤكد لوسيان غولدمان «على أن النقد بالضرورة هو نقل مفاهيمي للعمل الأدبي، وهذا يعني أنه يوجد نقد صحيح يضع العمل الأدبي في علاقة مع رؤية للعالم

¹ - بشير تارويرت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي، المرجع السابق، ص ص 43، 42.

² - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 104.

مفسرة في مفهوم معين، وهذا يعني، أنها وفق فلسفة معينة (مع العلم أن الناقد ليس مرغما أبدا على قبول هذه الفلسفة)¹، وفي هذا البعد تتسجم الأبعاد المعرفية للبنىوية التكوينية، البعد الفلسفي، البعد النقدي، البعد الهرمنيوطيقي، ولهذا انطلقنا في دراستنا في اتباع هذه الأبعاد وتطبيقها من خلال البحث في أربع بنيات للنص، باعتبار أن البنىوية التكوينية تبحث في هذه البنيات الأربع «البنية الداخلية للنص، والبنية الثقافية (أو الإيديولوجية)، والبنية الاجتماعية، ثم البنية التاريخية، وهذه البنيات متكاملة ومتفاعلة فيما بينها»².

وعليه فإن هذه الدراسة تقدم تفاعل هذه المبادئ الأساسية في البنىوية التكوينية حسب المخطط التالي:



مخطط يبين تفاعل المبادئ الأساسية للبنىوية التكوينية للوصول للرؤية للعالم

¹ - Lucien Goldmann : science humaines et philosophie. *op. cit.*, p. 129- 130.

² - محمد عزام: فضاء النص الروائي، المرجع السابق، ص 42.

1- الفهم La compréhension وبنية الواقع والتحوّلات:

1-1 الوعي القائم Conscience réelle في الروايات الثلاث:

إذا اعتبرنا أن «الراوي هو الوساطة بين العالم الممّثل والقارئ»¹، فإن تجربة الهروب إلى واقع أفضل ذاك الذي سعت إليه هذه التجربة الروائية للكاتب مولود فرعون تعطي الكثير من التأمّلات في حياة تعج بالتناقضات الممكنة، وتمكّن منها هذا الراوي كي يصل بنا إلى تفجير حقيقة الفرد جبلي ومحاولاته نحو تطوير يومياته، وما يواجهه من تناقضات وعراقيل، من ألم ويأس وخيبة وانعزال، وفرح وسعادة وتعاون..، نجد في كل تلك التناقضات الرؤية للأسرة من الداخل ضمن منحيين هامين، واحد يعتلي طبيعة الأسرة نفسها في القرية، والآخر تغلب عليه ظروف الاستعمار الذي يلقي بظلاله عليها، فكان الكاتب يُظهر من خلال شخصه رؤى متعددة أخرى عميقة تتجاوز الرؤية السطحية، خاصة الرؤية الجامعة لغاية النص وهي التي تبناها البطل الإشكالي في محاولة لتصوير ذلك الصراع بين أجيال في أماكن مختلفة تعيش في خط روائي واحد، منتبها لخصوصية هذه الجماعات اجتماعيا، باعتبار أن الفن الروائي يرتبط عضويا بالوسط الاجتماعي.

إن التجاذب الزمني الذي تقع فيه أحداث هذه الروايات ينغمس في فترة شهدت تحوّلات معتبرة بين المستعمر والفرد الجزائري، فغاية فرنسا هي البقاء واستثمار العنصر البشري الجزائري بمختلف مشاريعه في خدمة هذا الاستيطان الدائم الذي تسعى إليه، لكن هناك ترسبات أخرى لهذه الغاية جاءت كنتيجة لتواجدها أصلا، ومنه فقد فتحت أبواب دمج الآخر بعد الحرب العالمية الثانية خدمة لهذا الغرض، واكتسابا لشعبية تحتاجها ما دامت رغباتها تكبر عبر الزمن، لذلك منحت بعض العبور إلى فعل

¹ - مجموعة من المؤلفين: معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط1، (تونس، لبنان، الجزائر، مصر، المغرب) 2010، ص 195.

الكتابة، فظهر النص الذي اخترق تاريخ تلك المناطق، وحاول أن يجسد وعيه بذاته ووطنه، ولهذا فإن الكتابة في حد ذاتها كفعل إبداعي لم تكن متاحة من قبل، بقدر ما أضحى نوافذها في ذلك التوقيت مشرعة تستقطب ألوانا متنوعة لشمس تشرق على الجميع.

ومن هنا نتبع أشكال الوعي القائم في الروايات الثلاث (نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة) من خلال المكونات الاجتماعية التي تعطي تشكيلا أساسيا في وضوح هذا البعد النقدي وتسهم في تجلية مفهومه تطبيقيا، لأن المكونات الاجتماعية تعتبر بنيات فاعلة في تشكّل هذا الوعي.

1-1-1 المكونات الاجتماعية لأشكال الوعي القائم في الروايات الثلاث:

إذا اعتبرنا أن «الوعي ذاته هو عنصر من الواقع الاجتماعي ووجوده نفسه يسهم في جعل مضمونه ملائما أو غير ملائم»¹، وباعتبار أن «الوعي القائم هو الوعي الناجم عن الماضي ومختلف حيثياته، فكل مجموعة اجتماعية تسعى إلى فهم واقعها من ظروفها المعيشية والاقتصادية والمعرفية والدينية التربوية»²، فإن الوعي القائم في روايات مولود فرعون داخل حيز مكاني زمني يقوم على تفريغ حمولات الوقائع التي توارثتها القرية على وقائع مشابهة تتوالى تباعا وفقا لظروف متجددة لا تبرح حيز الجماعة.

أ- المكان، بين خصوصية الإنغلاق وتعددية الانفتاح:

لم ينطلق الكاتب في روايته «نجل الفقير» من خصوصية مكان مغلق، بل فتح نوافذه على مساحات من الرؤية تعمل على جلب أفق القارئ إلى تصوّر عام للمكان

1 - لوسيان غولدمان: الوعي القائم والوعي الممكن، ت محمد برادة، ضمن كتاب "البنوية التكوينية"، المرجع السابق، ص 36

2 - سامر فاضل الأسدي: البنوية وما بعدها النشأة والنقل، المرجع السابق، ص 216.

الذي تنتمي إليه شخصياته في الروايات الثلاث، وهنا جعل القارئ ينتبه منذ البداية إلى أنه سيتوافق مع سرد يلازم المكان ويحوّله إلى أيقونة ساحرة تحمل عمق الألم وعمق الطموح في آن واحد، محاولاً إعادة إنتاج ملامح الدهشة داخل السرد من خلال تشكيل متعددٍ للمكان في عمق تعددِ الرؤية، هاته الرؤية التي لا تتوحد بين سائح عابر للمكان، وبين مقيم فيه، ثم بين مقيم وعابر في الوقت نفسه كهؤلاء الذين يمضون حياتهم بين السفر والإقامة، فتتعلق قلوبهم بين مكانين متوازيين ومتناقضين، بين انغلاق وانفتاح.

ففي رواية «نجل الفقير»، يتجلى المكان منذ البداية في سياق النص، فهو عامل له خصوصيته في التحام الأجزاء التي امتنها السرد، بحيث تفرّع إلى أمكنة بسيطة وإلى أمكنة معقدة، فالبسيطة في علاقتها بالسكان، مما تعطي إشارة واضحة إلى علاقة الإنسان بالأرض التي تنغمس إلى "التعقيد" أحيانا كثيرة، فالكاتب انطلق من بداية مكانية مفتوحة حملت تفاصيل العالم الذي شاهده (فوغولو) وهو مُسرّع نحو الاكتشاف، اكتشاف الآخر بكل ما يملك من تناقض، واكتشاف المكان بكل ما يحمل من دروب صاعدة، فقد فتح النوافذ على قراءة مسحية لعلاقة هامة بين الإنسان والمكان، الفرد المقيم في عمق هذه المنعرجات، وليس الإنسان العابر الذي يتمتع شيئاً ما بمناظر الطبيعة الجبلية، هذه التفرقة التي تضع المكان بين دفتي الإنغلاق والانفتاح، «أنتم إنما تكتشفون العجائب وتلك الشاعرية لأنكم تمرّون بنا سائحين»¹، وهنا يضع الكاتب أول علامات قراءته للآخر، حين يحاول أن يجسد الصدمة التي تحتوي القارئ وتجعله يندمج مع ملامح هذه الدروب، «أما نحن القبائليون فنفهم أن يثني الواحد على بلادنا، بل ونحب أن يخفي عنا خشونته من وراء نعوت تتطوي على الخداع والتملق، ومع ذلك ندرك جيد الإدراك ذلك الإحساس التافه الذي يتركه منظر قرانا البائسة على أكثر

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 09.

الزوار ميلا إلى المجاملة»¹، من هنا يتضح حزن الرؤية ليس إلى المكان باعتباره شيئاً، بل باعتباره هو التاريخ وهو الذاكرة، وأيضاً باعتباره يجسد علامة من علامات العزلة، كأنه المكان البائس الجميل، المكان المغلق على عادات وتقاليد لا يمكن تجاوزها، والمغلق على نمطية في العيش أضحت لازمة لأهل المكان.

إن البداية في رسم صورة عامة للمكان لم تلبث أن عادت إلى بساطتها، حين شكّل الراوي تفاصيل قراءته للمكان عبر تصوير قريب جداً من معالمه الجغرافية، فكأن المتتبع يلامس فعلاً تلك الدروب، وينغمس في الأزقة والشارع الرئيسي وما يكتنفه من توّحّل زائد أيام الشتاء الماطرة، على أن "تيزي هبيل" هذا المكان الذي تنبسط فيه أغلب الأحداث لم تكن سوى «تجمع سكني يعدّ ألفي نسمة، ومنازلها يتعلّق بعضها ببعض، الواحد تلو الآخر، على قمة منحدر صخري كأنها فقرات ضخمة لبعض وحوش ما قبل التاريخ»²، وعلى هذا الأساس تشكّل النموذج المكاني الذي تتزاحم فيه أحداث البؤس والشقاء والهزيمة مقابلةً لهمجية الاستعمار في الاقصاء والتهميش وزرع منابت الخوف والريبة، فتحوّل المكان إلى صورة بائسة تتربط بيوت القرية فيه كفقرات وحش كبير فضحها الموت والعدم.

وعلى عتبة الرواية يمكن قراءة التجسيد الفعلي لمضمون السرد، فـ "ابن الفقير" كمدخل لكل هذه المنحيات والأحداث تشكل المفتاح الحقيقي للدروب الصعبة التي تمارسها الجماعة كل يوم، ذلك الفقر المنغمس في كل ركن وزاوية، وتلك المنعرجات التي تجلت على ملامح الأهالي، وذلك التراب الذي أضحى لون الجلد الذي يكسي تفاصيل الوجوه.

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص ص 09، 10.

² - المصدر نفسه، ص 10.

لقد وُطن الكاتب هذه الرواية بملامح قريته، بعاداتها وتقاليدها حتى فيما يخص الأمكنة التي تشاركت في إبراز هذه الملامح، فيمكن أن نقرب مثلا من وصفه للمقهى كمكان شعبي تلتقي فيه فئات متعددة من الشخصيات بكل تنوعها، فالمقهى في قرية "تيزي هبيل" كما ورد في رواية "نجل الفقير" تقع خارج القرية، «ويقع المقهى العربي خارج القرية، وينبغي لمن يهمهم الأمر أن يتكلفوا الذهاب إليه والخروج من التجمع»¹، لقد انتبه الباحث «وادي بوزار - Wadi Bouzar»² إلى خصوصية دقيقة في بنية المقهى في تلك القرى، حين أشار إلى أنه «في القرى الجزائرية تُبعد المقهى إلى خارج محيط المساكن والتجمعات»³، ملاحظا أن ذلك المكان غير مرغوب فيه وسط محيط التجمعات السكنية، إنه المكان السيء، والمفيد والمتداول في الوقت نفسه. وفي رواية "الأرض والدم" يتجلى المكان على عتبة العنوان، إنه يصرّح بخصوصية الأرض في مقابل الجسد، وينطلق كما جاء في رواية "نجل الفقير"، من البعد المكاني، ليصف أين ستحدث وقائع هذه الرواية، فالمكان يفتح على عالم صغير، وينغلق على قرية صغيرة «إنها قرية بها مدرسة صغيرة، وعدد من المنازل بطابق واحد، ومسجد أبيض اللون يلوّح من بعيد..»⁴، هذا البعد الذي يجعل من هذا المكان الضيق بعد تداول الأحداث يفتح على عالم مليء بالخصوصية من جهة، ومتعدد من جهة أخرى، إن الكاتب يتساءل ما إذا كان هذا المكان ستتحمله امرأة باريسية فعلا؟ بكل انفتاحها في عالم متسع الرؤية ومتسع العلاقات.

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 12.

² - Wadi Bouzar, sociologue, professeur d'université, est de plusieurs études, dossiers et nouvelle. Voir : Wadi Bouzar : La mouvance et la pause (Regarde sur la société algérienne). Société Nationale d'Édition et de Diffusion. Alger 1983., pg.

³ - Ibid., p. 271.

⁴ - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، ص 05.

إن هذا المكان تجسّد لدى الكاتب بعالم بشع ومبتذل، وهذا ما نلاحظه أيضا في وصف المكان في رواية "نجل الفقير"، مما يحيل إلى تحديد رؤية المتلقي في فضاء ضيق يصعب الوصول إليه عبر الدروب الصاعدة والممتلئة وحلا وغبارا، «هكذا يكون الدخول حدثا صاخبا ونصرا باهرا إلى قرية إغيل نزمان»، وهي القرية نفسها التي حملت أحداث رواية "نجل الفقير"، والدروب نفسها التي تلتقينا بعد ذلك في رواية "الدروب الصاعدة"، إلا أن البداية والدخول إلى عالم الحكى يختلف فيها، لقد انتبه مولود فرعون إلى مكامن البدايات التي اشتغل عليها في رواياته "نجل الفقير، والأرض والدم"، وعالج ذلك في بداية أخرى داخل عوالم رواية "الدروب الصاعدة"، حيث انتقل بتقنية مختلفة من مستوى إلى آخر، وهذا ما أكده نجل الروائي نفسه الباحث علي فرعون في لقائنا به حين تفضل بتفاصيل شيقة وعميقة حول كتابات والده، وقال «إن الرواية الأكثر نضجا لديه، هي رواية الدروب الصاعدة، رغم أن رواية "نجل الفقير" كانت أيقونة للتحوّل الأدبي والإبداعي في تاريخ الرواية الجزائرية»¹.

أما في رواية "الدروب الصاعدة" حاول الكاتب تجديد هذا الفعل بالدخول بطريقة مختلفة غير متعلقة بتحديد المكان الروائي بشكل مباشر، بل حاول مزج الخصوصيتين بشكل مختلف، إنه يمازج ما بين الشخصية التي بدأ بها "ذهبية" وما تحمل من هواجس وأفكار، وبين توصيف المكان الذي تتواجد فيه، وعلاقة كل ذلك بالفعل الذي تقوم به هذه الشخصية، ليبقى المكان نفسه، "القرية" بكل منعرجاتها الداخلية والخارجية، بكل جمالياتها ومساوئها، بكل العلاقات التي تربط بين الجماعات، تلك العلاقات التي تحمل الكثير من الثبات والتغيّر، برائحة هذا المكان الذي يعبق بالإنسان.

¹ - من خلال حوارنا مع الباحث علي فرعون Ali Feraoun نجل الروائي مولود فرعون على هامش المعرض الدولي للكتاب 2017 بالجزائر العاصمة بتاريخ 02-11-2016. له أعمال متنوعة حول كتابات والده، قام أيضا بكتابة تقديم لكتاب José Lenzini المعنون بـ "Mouloud Feraoun un écrivain engagé".

ب- تاجماث:

منذ عهود طويلة ظلّ المجتمع لقبائلي كخلية تتنامى وتتماسك حتى أضحى ذلك الالتحام جزءاً من تكوينها، وأضحت تحاول في كل مرة أن تضيف شيئاً إلى ذلك التماسك وأن تجعل من (الجماعة) الاهتمام الكلي والأوحد، بناءً على رؤية قبائلية، تهتم بصورة الجماعة من خلال أسر كبيرة وعروش متعددة، تتبني على وحدة الدم ومكانة العرض والشرف، فكان همّ تلك القبائل أن يظل ذلك النسيج منسجماً في مقاومته لمقلبات الحياة، وتظل تلك الصورة منغمسة في كل ركن وزاوية، حيث يتشرب كل فرد هذه الأفكار، منتبهين لتراثهم المتعدد الذي حملته حضارات مختلفة، تجمعت في صورة الفرد القبائلي الجبلي الذي يقاوم الطبيعة ويستفيد من كل التحولات المادية والسياسية.

لقد توغل الكثير من الباحثين في دراسة المجتمع القبائلي من الداخل و«عكفت العديد من الدراسات السوسولوجية والإثنولوجية والأنثروبولوجية على دراسة المجتمعات الأمازيغية التقليدية في كثير من الاهتمام والعناية، وقد حظي المجتمع القبائلي بالقسط الأوفر منها، وسعى أصحاب هذه الدراسات جاهدين إلى الكشف عن الأسس التنظيمية الجوهرية، التي تقوم عليه أركان هذا المجتمع بكل ميكانيزماته الفاعلة، الخفية منها والظاهرة»¹، وقد شهدت هذه الدراسات تنوعاً هاماً في محاولة لتفكيك هذه المجتمعات تفكيكا يحقق النظرة الفاحصة والكاشفة لما يحتويه المجتمع القبائلي والجماعات من أسس تجعله يتميز عن بقية المجتمعات، سواء من الناحية الجغرافية والتاريخية المشتركة والثقافية التي تتضمن الثوابت والمرجعيات التي يقف عليها هذا المجتمع بصلاية، حيث يعتبر هذا الفضاء القبائلي كتلة واحدة صنعها التكافل والتضامن، صدت بقوة الدخول الفرنسي الاستعماري إليها، حيث كابد كثيراً من أجل بلوغ مراميها،

¹ - محمد جلاوي: الشعر القبائلي التقليدي، المرجع السابق، ص ص 49، 50

ولذلك فكل «المجتمع القبائلي مشيّد على مبادئ تنبعث من هذه الروح، نجد التكافل في كل مكان وبدرجات متعددة، في مصالح الحياة الخاصة وحتى في العلاقات الأسرية، وفي القرى والقبيلة»¹.

ونتساءل ما هي الأسس التي جعلت من هذا المجتمع يخلق لنفسه هذا الفضاء الفسيح من التكافل والتضامن الاجتماعيين؟ وما هي الخلفية الاجتماعية لهذا التنوع الاجتماعي من جهة، وعلاقات الخصوصية المتميزة جدا؟

إن ما ينسجم مع رؤيتنا لهذا التنوع وهذه الخصوصية هو بقاء هذه الجماعات حية داخل ميراث ثقافي اجتماعي تقليدي لم يفارق توحده العرقي والثقافي أبداً، وهو بذلك تأسس على الانغلاق وانغمس في ذاته مستبعداً كل غريب يحاول أن يخترقه، لذلك ظل المجتمع القبائلي ولمدة طويلة جداً بعيداً عن التدخلات الاستعمارية حتى في عهد الأتراك، وذلك لعدة أسباب مكانية وتاريخية وسياسية وسوسولوجية وثقافية لغوية، جعلت من هذا التكتل أو التجمع له سلطته في الذود عن عرضه وماله وشرفه، هذه القيم الإنسانية التي صاحبت هذه الجماعات منذ زمن طويل، وعليه تتكوّن هذه القبائل من وحدة لعدد من العشائر تشكل القبيلة (تاقبيلت)، هذه الوحدة التي يحترمها أفرادها ويقدمونها بشكل شمولي لا يخضع للتجزئة، لذلك فقلما «كان الفلاح يقضي أوقات الاستراحة في كوخه بين النساء، فالجماعة ملجأ أمين ومتوفر دوماً ومجاناً»²، وبالتالي فتلك الوحدة وذلك الاجتماع له قوانينه الصارمة، كما له شخصيات تمثل ذلك القانون على أرض الواقع، وهكذا فإن «إدارة القرية يختص بها المجلس العام للمواطنين باستثناء النساء، هذا المجلس تاجماعت أو الجمّاعة، يمتلك جميع السلطات، وتعدّ

¹ - 93 - Mouloud Feraoun, L'anniversaire, edition du Seuil, Paris, 1972, p. 93

² - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 16.

قراراته أعلى، حيث يقوم أحيانا بتنفيذها بنفسه»¹، ومن هنا تحتفظ كل قبيلة بقانونها الداخلي الذي يخضع له جميع الأفراد، وتعتبر (الجماعة) الملتقي الذي يجمع نخب القرية وأفرادها الفاعلين من أجل مناقشة كل ما يعرض عليها من قضايا ولها مكان خاص تجتمع فيه، وقد جاءت هذه اللفظة من اللغة العربية الفصحى (الجماعة) بفتح الجيم، وهم كما أسلفنا مجموعة من الشخصيات التي تبت في بعض المسائل والمشكلات العالقة، وتاجماعت تعني أيضا المصطلح نفسه، فهي الجماعة أيضا، و«من المثير للاهتمام أن نطلع على مقتطف من القوانين المطبقة خلال القرن الأخير في قرية من بلاد القبائل الكبرى:

- 1- تقتل المرأة التي تحبل من دون زواج.
- 2- كل من أدين بالزنا يدفع 20 ريالاً ويطرد من القرية.
- 3- كل من أدين بالسرقة ثلاث مرات يطرد من القرية.
- 4- الرجل الذي لا يؤدي صلواته ثلاث مرات متتابعة يدفع ريالاً.
- 5- كل من يخرق صيام رمضان يدفع ثلاث ريالاً.
- 6- كل من يضرب فرداً بحضور زوجته، ابنته أو اخته، يدفع 5 ريالاً.
- 7- كل من يتعارك مع رجل مريض، يدفع ريالاً.
- 8- كل من يسب امرأة، يدفع ريالين.
- 9- المرأة التي تسب رجلاً تدفع ريالاً.
- 10- كل من لا يزرع 10 شجرات خلال عام، يدفع ريالاً.
- 11- كل من يحرق محصولاً يعوض الضحية ويدفع 50 ريالاً.
- 12- في حالة الحرب، كل من يطلب الأمان يدفع 10 ريالاً.
- 13- الفريق الذي يطلب نجدته من قرية أخرى يدفع 100 ريالاً.

¹ Mouloud Feraoun, L'anniversaire, *op. cit.*, p. 95. -

14- المحارب الذي يعبر للعدو يدفع 100 ريالاً لكي يبقى في القرية»¹.

وتعتبر هذه القوانين رادعا لكل تجاوز قد يهدم هذه المنظومة التي تعتمد عليها القرى، حيث استلمت مضامينها من الأعراف التي ظلت طيلة قرون ومن الشريعة الإسلامية، ونجد أن بعض القوانين تشكلت لحماية الشريعة من أي خرق لها، كي تبقى لها قداستها بين الجميع، كما نجد قوانين أخرى تمس الحياة الأخلاقية داخل الجماعات، حيث يحترم الرجل المرأة ولا يتجاوز حدوده، كما تحترم المرأة مكانة الرجل ولا تحاول أن تنقص من مكانته، ويظل لكل فرد حدوده التي تحميها هذه القوانين، وتعيد لكل ذي حق حقه.

ولقد تحددت هذه القوانين جراء توحدهم في قبائل بعيدا عن الفرق المنافسة التي كانت تحاول خرقهم، من أعداء يحاولون اكتساب مناطقهم الساحلية، لذلك توغلوا في المناطق الجبلية وعاشوا وهم منتبهين لضرورات التوحد والتكافل والتعاون، فهم كما عبّر عن ذلك أوجين دوماس E. Daumas «ينحدرون من أصل وشعب قديم واحد ومتضام، كان مسيطرا على كل البلاد، لكن، فيما بعد، قمع في الجبال»².

ورغم سقوط بلاد القبائل في براثن الاستعمار بعد جهد جهيد، إلا أن طقوسهم لم تخترق، وقوانينهم ظلت سارية المفعول، يضاف إليها شخصية كان لها دور في مجال التنظيم، وهذه الشخصية تمثلت في شخص القائد الذي تختاره فرنسا من ضمن الأهالي.

¹ - Mouloud Feraoun, L'anniversaire. *op, cit.*, p.96

² - Eugène Daumas, Mœurs et coutumes de l'Algérie, Ed, ch labure, Paris, 1853, p.

ت- الثقافة الدينية والمجتمع:

لقد أثرت النمطية التقليدية داخل عوالم الثقافة الدينية المساهمة في توقيف الزمن عند مرحلة معينة الأثر الكبير، حيث ظهرت البساطة الدينية في أقصى صورها، ففي رواية «نجل الفقير»، نجد القرية لا يتواجد بها سوى مسجدين «ومن الواضح الجلي أن المسجدين دون "الجماعات" أهمية، فإذا نظرت إليهما من الخارج وجدت أنهما يشبهان سائر المنازل المجاورة، أما من الداخل فالأرض مفروشة بالإسمنت، والجدران مطلية بالجير. إنها خالية موحشة من فرط بساطتها، أما الشيوخ الذين يؤمنونها للصلاة فكأنهم ينتمون إلى قرن من القرون الخالية»¹. وحتى أي محاولة لزخرفة ما في البنايات التي أنشأت مؤخرا تكون مجرد بذخ لا ينتمي إلى هذا المكان وإن علا أو تضخم، وما يفرضه فكر الجماعة هو بالضرورة القانون المستمر الدائم، فهم يخشون العزلة خشيتهم للموت، فأضحى هذا الاتحاد تاريخا مشتركا واحدا، «بحيث أن تاريخ القرية الآن هو تاريخ واحد كأنما هو تاريخ شخص واحد»²، ومن ثم فهذا الالتحام كان نتيجة الخوف من التفكك الذي قد تشهده الجماعات القابائلية، فكان فرط التماسك أعظم من أي شيء آخر، التماسك الذي يخلق استمرارا دائما لهذه الجماعات الراغبة في مواصلة حياتها بذلك الشكل ووفقا لتلك الظروف والمصوغات، تتبني على عامل الزراعة اقتصاديا، وروح الفكاهة والسمر والتقاليد الدينية اجتماعيا، والألفة وتشتيت العزلة سياسيا.

إن ذلك الاتحاد المقصود خلق أجواء من الحميمة فرضتها أيضا طبيعة القرية الجبلية وحياة سكانها الريفية، مما يتيح مثلا لـ"فوغولو" بطل رواية «نجل الفقير» أن يكون قريبا جدا من هذه الجماعات، خاصة سلالة "مزوز"، هذا الاقتراب الذي مكّن فوغولو من مشاهدة ملامح سكان القرية عن قرب، سواء في حديثه عن عمه "شعبان"

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص ص 11، 12.

² - المصدر نفسه، ص 13.

الذي حكى له جدته أنه ساعدها في تربية "رمضان" والد فوغولو حين كان طفلاً، أو علاقته الحميمة مع خالته القاصّة التي فجرت داخله عالم التخيل بكل فرادته، وربما من خلال بعض الأسماء التي تناولها مولود فرعون في رواياته تحيل إلى المعتقد الديني المقدس والثابت، أين يبجل أهل القرية كل ما توارثوه من معتقدات دينية، فيطلقون أسماء الشهور على أبنائهم (شعبان، رمضان ..).

إن تلك الجماعة من فرط قربها ببعضها البعض تضمنت أفراداً يعلمون تفاصيل كل بيت وحقل وجماعة موازية، ويعلمون حقيقة كل فرد منها، فمثلاً (البشيريين) ليس «جدّهم سوى لاجئ أتى من الجرجرا. وليس البشيريون فخورين بأصلهم، وهم يستشعرون في قرارة أنفسهم ببعض النقص، أما الآن فلم يعد أحد يفكر في ذلك، فهم يعتقدون أنهم من سلالة مزوز أصالة، ومع ذلك يحدث في بعض المناسبات الخطيرة أن يُذكّر به بعضهم بعضاً، ولا يكون ذلك إلا متى تعلق الأمر بمصلحة ذات أهمية»¹.

إن ذلك التلاحم هو ما وجدت فيه فرنسا عائقاً كبيراً لتفكيكه، ورغم توغلها إلى الجزائر وفرضها لطقوسها الاستعمارية طيلة زمن الاستعمار لم تستطع تشتيت ما تجمع في القلوب والعقول، وظلت الجماعات متنامية في عاداتها وتقاليدها رغم توسع مدرّكاتها وطموحاتها عبر السنين، بل زاد ذلك الحصار من أثر التكتل والتكاتف، فأضحى وعيها القائم (الفعلي) هو استمرار للماضي في صورة متجددة لذلك الحاضر، وما طرأ عليه عبر السنين هو تحوّل طفيف في البنية العقائدية التي تحوّلت بدورها إلى بنية اجتماعية تقليدية لم يبق منها سوى تفاصيل المعاملات اليومية وما يحتاجه الفقير من شحنات لاستمرار النضال داخل واقعه البائس، دون فهم وتأمّل ذهني لهذا الواقع، بل يفكر انطلاقاً من ملاحظاته لسلوكات خارج أطر التحليل الفكري، وبطريقة تلائم عيشه وفقاً لظروف المكان الذي يتواجد فيه، فتظل العائلات في ذلك المجتمع بين

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 13.

مندفعة نحو تأمين عيشها بين الزراعة وتربية المواشي، وتوزيع الوظائف حسب جنس الفرد، بحيث أن هناك وظائف خاصة بالنساء وأخرى بالذكور، حتى أن الإرث يكون فيه للإبن البكر النصيب الأوفر، وهو تقسيم تفاضلي حسب السن، مما يبين أن ذلك المجتمع ورغم البنية الدينية التي تحكمه إلا أن التقاليد تتجاوز ذلك لتبقى البنية العقائدية كما أسلفنا الذكر داخل بنية أوسع وهي البنية الاجتماعية التقليدية، وهي التي تحافظ على الانسجام وتحول دون التفكك، فغلبة السلطة الذكورية لها دلالتها حتى أنها تتجاوز المعلوم الديني، وهذا أيضا ما تتبناه بعض الجماعات الأخرى كأن لا يكون للمرأة نصيب من الأرض في الجانب الميراثي، وهو ما يجعل لقداسة الأرض حدودا لا يمكن تجاوزها، فيكون هذا الانسجام أو التماسك من البنى الذهنية لدى الجماعة، وهي بالتالي رؤية واضحة لعلاقات الإنسان بالأرض داخل هذه الجماعات.

وهنا تجدر الإشارة إلى بعض خصوصيات الجماعة (الثامعات)، فيؤكد الدكتور محمد جلاوي¹ على أن هناك «خصوصيات يتمتع بها المجتمع القبائلي التقليدي عن غيره، إذ يمثلون فرادة في الأمة الإسلامية، بحيث يملك قانونا خاصا به، تنبثق مواده من الممارسات العرفية المتناقلة عبر الأجيال، المغذاة بمعطيات لديانات مختلفة، وهو ما يعرف بالقانون العرفي الذي يسهر الأمان على تطبيقه في مختلف المناسبات»².

أما في رواية "الأرض والدم" تتمازج صورة البعد الديني الإسلامي -التقليدي- مع ما جاء في سياق العقيدة المسيحية، حتى في جانب تجليات التراث الديني البعيد أيضا، «لعل غرض تعريف الإنسان بهذا الشبح، أن المسيح قد عرض في السابق،

¹ - محمد جلاوي، باحث وأكاديمي جزائري، له تجربة في تأسيس البحث الأدبي الذي تشكل مدونته من الموروث الشعبي الأمازيغي بمختلف أشكاله، قدم أطروحة دكتوراه دولة على جانب كبير من الأهمية أرّخ فيها للحركة الشعرية الأمازيغية وحلل فيها مدونة ثرية مشكلة من أشعار جمعية وفردية تعود لمختلف حقب التاريخ الأدبي الأمازيغي. أنظر: محمد جلاوي، الشعر القبائلي التقليدي المرجع السابق، ص (التقديم).

² - المرجع نفسه، ص 61.

على الرجل الغني أن يتجرد بكل راحة ضمير؟ لكن منذ ذلك الوقت، كان كل واحد يكتفي بالتخفيف عن البؤس، لا بالغوص فيه، وحتى لا يشذ عن القاعدة، فقد عرض محمد (ﷺ)¹ على المؤمنين به صوما متواصلًا، بكيفية تجعلهم يحسون بحق عذاب الجوع»². ورغم العداء الذي يكنه المسلم لمن ارتد عن دينه، حيث يعتبرون الخروج عن دين الإسلام وصمة عار، إلا أن هناك صورة تقبل الآخر من دين مختلف تتضح عند بعض العائلات دون غيرهم، «فتجدهم يصومون رمضان ويحتفلون بأعيادنا الدينية..»³.

ولعل صورة "المرابط" في بعدها الديني التقليدي هي التي ظلت تحكم وتسود تلك المنطقة، ليكون هذا المرابط ممن يحفظ لأهل القرية قوانينهم العرفية السائدة، ويحل مشكلاتهم الاجتماعية من خلال سلطة الدين، ولعل هناك من استغل هذه السلطة كعنف رمزي يمارسه على السكان الفقراء والجهلاء، فيتبعون ما يقولون دون تفكير، وهذا ما دفع الباحثة رشيدة سعدوني⁴ Rachida Saadouni إلى القول بأن «الخطاب الاجتماعي الديني، يرتكز أساسًا حول المرابطين، ويكشف بعض المظاهر السلبية بسبب تطور بعض الطقوس الدينية بعيدًا عن العقائد الرسمية للإسلام. وفي الواقع، من خلال الطرح الحصري للمعرفة الدينية والاستيلاء على قداسة ومعرفة "الدين الحقيقي"»⁵، على أن هناك الكثير من هذه الفئة كانت محافظة على مسارها المتوارث وعملت على نشر الدين في شكل مبسط وهادف، مستعينة باحتوائها على استمرارية المحافظة على معالم الحرف العربي ودلالاته العميقة في القلوب والنفوس.

1 - الصلاة على النبي إضافة من طرف المترجم لا توجد في النص الأصلي.

2 - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، ص 27.

3 - المصدر نفسه، ص 187.

4 - باحثة أكاديمية جزائرية.

5 - Rachida Saadouni, *op. cit.*, p. 170.

وبالمنط نفسه تسيير رواية "الدروب الصاعدة"، ويتجلى البعد الديني في قراءته لواقع الدين المسيحي في مقابل الإسلام، وكيف يتعايش هذا المجتمع من الجماعات مع هذين البعدين العميقين في حياة الفرد لديهم، فهناك مسيحيون رغم قلتهم في الجزائر ككل، ولكن في تلك الجماعات كان لهم حضور معتبر، «إن الطائفة المسيحية في آيت وازو كثيرة العدد، بل يكاد يبلغ عدد أفرادها النصف من الأهالي، وجميع هؤلاء، ما بين مسلمين ومسيحيين، يتعاملون ويتعاشرون فيما بينهم في سائر أيام الأسبوع»¹، ولعل رواية "الدروب الصاعدة" من خلال شخصية ذهبية، تطرق فيها الكاتب إلى جملة من مظهرات هذا البعد في ذلك المجتمع، «إنهم يشعرون في أيام الأحد هذه أنهم يختلفون بعض الشيء عن بقية الناس، وأنهم إلى حد ما أعلى مرتبة وأكثر حرية، لأن الحواجز التقليدية بين الرجال والنساء وبين الكبار والصغار لا تلبث أن تزول في معبد الإله»².

ونجد "ذهبية" في علاقتها مع "الإله" تستقطب خصوصية معينة، فحينما «أصببت ذات يوم بمرض خطير، لم تشعر بالخوف من الموت، وإنما احتفظت معها بصورة مريم العذراء وظلت تقبلها طوال مرضها. وكان يخيل إليها أن الطفل المسيح ينتظرها هناك في السماء»³، ومن ثم فمفهوم "تجسد المسيح" في العقيدة المسيحية يتغلغل حتى في سلوك الأفراد، وفي فهمهم لتلك العلاقات الدينية المترابطة والمتشابكة، فهي تراه طفلا (تجسد)، وهي تراه شابا أيضا (تجسد)⁴، ويتعدد هذا التجسد من خلال كل فهم

1 - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 25.

2 - المصدر نفسه، ص 26.

3 - المصدر نفسه، ص 32.

4 - إن الصورة التي قدمها المسيحيون لأهل المكان اتضحت في عملية السلوك المنتج، أي كيف يتعامل الناس مع بعضهم البعض بواقع إيجابي، وقدموا حقيقة المسيح باعتباره ابنا لله، أي كلمة الله التي تجسدت في الإنسان، ولم تتجسد فقد في كتاب، فهم يرون أن الله خاطب البشر على عدة مستويات، آخر مستوى هو ارسال ابنه لهم، ويرون أن الإبن هنا ليس هو الإبن البشري المعروف بين الناس، بل ابن الكلمة، ابن الروح، ابن الحقيقة التي يجب أن =

وكل إحساس لدى الأفراد، لنجد "ذهبية" «لم تعد تحبّ المسيح مشخفاً فى صورة طفل صغير، بل صارت تحبه على هيئة شاب وسيم تبدو عليه علامات الرجولة والشهامة. إن المسيح الذى أصبحت تحبه هو المسيح الذى مات مصلوباً فى سبيل البشرية جمعاء»¹. وفى المقابل تتوضح الصورة التقليدية للإسلام فى أبسط صورها، بل وفى بعدٍ لا يتعدى الحياة الدينية الشكلية، فحين ينتقد المسلمون فى تلك القرية مفهوم التجسد لدى ذهبية، تتراءى صورتهم الدينية الباهتة، «فى ذلك الوسط الذى لم يبق فيه من الإسلام سوى بعض العادات والطقوس البائدة والخرافات الساذجة»²، ليتحوّل المعتقد فى ذلك الوسط إلى تجسيد شكلي للطقوس التى لم تعد إيجابية فى بعدها الدينى الفاعل فى حياة الإنسان هناك، بل مجرد شكليات وعادات امتزجت بالخرافة فى بساطتها الاجتماعية، حيث تداولها أهل المكان وكأنها هى الدين ذاته، فهذه الصورة هى صورة لذلك الفرد الجبلي وهو بعيد عن الروح الحقيقية للدين، عن فعاليته فى حياته، عن العلاقة الروحية بينه وبين خالقه.

ولعل الجانب المسيحى يجد أحياناً عند الشباب المسلم لامبالاة كبيرة، أو احتقار مقصود، فينظر الشباب إلى المسيحيات نظرة مختلفة، «إن هذه النصرانية التى يشعر بأن جمالها يتحدها، ويزلزل إيمانه كمسلم صادق، لا تستحق فى نظره إلا أن ينتهك

=تصل إلى الناس، لقد "سأل شاب المستر جرينفيلد هذا السؤال "هل تقدر أن تفسر لي لماذا دعى يسوع المسيح "الكلمة"؟ أجاب مستر جرينفيلد "أعتقد أن الكلام هو واسطة التفاهم بين البشر، وقد استخدم الوحي هذا التعبير "الكلمة" ليوضح لنا أن المسيح جاء كواسطة تفاهم بين الله والناس (1 تى 2: 5) لقد حاول الله أن يتفاهم مع البشر فى مختلف عصور التاريخ، فكل الآباء بالأنبياء فلما وجد أن البشر لم يستطيعوا أن يفهموا جاء فى ابنه ليتفاهم معنا كما يقول الرسول "كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه". أنظر: القس لبيب ميخائيل: أسباب التجسد، موقع عقائد، اطلع عليه بتاريخ: 11-09-2017: <https://www.kalimatalhayat.com/doctrine/610-major-bible-facts/4945-reasons-for-incarnation.html>

¹ - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 33.

² - المصدر نفسه، ص 36.

عرضها بدون شفقة ولا رحمة، وإذا وجد إلى ذلك سبيلا، فإنه على أتم الاستعداد للقيام بهذا العمل، ولربما سينال على عمله أجرا وثوابا»¹.

وعليه تتنوع الروايات في بعدها الديني لتقدم حقيقة فاعلة في حياة الإنسان، حين لا تتجه السفينة في اتجاه واحد، أو حين تتعدد الحضارات في سياق ونسق مكان واحد يضم إليه مختلف التوجهات الاجتماعية، خاصة في مجال الدين، أين تتعطل اختيارات الإنسان في مقابل اختيار الله، أو فهمنا لاختيار الله، إلا ما شذ عن هذه القاعدة حين يترك أحدهم الإسلام، أو آخر يترك المسيحية ويتجه في اتجاه الدين الآخر، هنا يحدث اختيار الإنسان الذي يتحملة لوحده.

ث - الفقر في زمن الاستعمار:

من هنا تكون عتبة الدخول إلى عالم النص الفرعوني لها أهمية كبيرة، باعتبار أن عنوان الرواية هو مفتاح دال لمعرفة كل التفاصيل التي ستنبني عليها الأحداث، ففي رواية «نجل الفقير» نجد مجتمع الفقر بكل وضوح وبكل قوة، صور لواقع حي في ثلاثينيات القرن الماضي، الفقر الذي يجعل الأب ترتعد فرائصه عند اقتراب الأعياد، ويتوجس خيفة من الشتاء لأنه سيستهلك كل مدخرات الأسرة، والأسرة على شاكلة الجماعة، ولكن مع اختلافات طفيفة في الشكل، وتقارب جوهري في الموضوع، فالأب هو الذي يعيل أسرة قد تتجاوز السبعة أفراد، وهو الوحيد الذي يكدح الليل مع النهار دون راحة ودون ترف، وأي أزمة مالية قد تقلب الموازين رأسا على عقب، ولعل هذا الجانب أو هذه التيمة لصيقة مع الروايات محل الدراسة، فالقرية هي القرية، والدروب الصاعدة هي نفسها، والأرض كذلك حين يسيل الدم في أرجائها، من أجل هذا المكان الذي تتمحور فيه الوقائع والأحداث.

¹ - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 75.

كان الفقر في أمجد صورته وفي أقسى تعابيره على أرض الواقع، بل كان يتغلغل كطاعون تتوجس منه القلوب خيفة، وقد كتب ألبير كامى تحقيقا بين 05 و15 جوان سنة 1939م يحكي فيه عن هذه المرارة التي يعيشها الجزائري في منطقة القبائل، لدرجة أنه قال في بدايات هذا التحقيق، إنه في إحدى الصباحات «شاهد في تيزي وزو بعض الأطفال في خرق بالية يتنافسون مع كلاب القبائل حول ما تحتويه قمامة ما، وعن أسئلتي أجنبي قبائلي: هم هكذا كل صباح، أما آخر من السكان فعلى ذلك بالشتاء، ففي هذه القرية، سوء التغذية وسوء التغطية»¹، لقد تحوّل الكثير من السكان إلى فقراء بحجم هذه الكلمة وبعمقها، وأفضل العائلات كما تحدث ألبير كامى «تأكل خليطا بين القمح والذرة.. والقائمة الاعتيادية لعائلة فقيرة في هذه الجماعة تتكون من فطيرة شعير وحساء يصنع من سيقان الشوك ومن جذور الخُبيز، مضافا إلى هذا الحساء قليلا من الزيت»²، وقد لا يكون الزيت متوفرا أحيانا كثيرة.

وفي رواية «نجل الفقير» وداخل عالم فوغولو، فإن حفنة من الكسكسي وقبضة من الملح هي أبهى صور فطور الصباح، هذه الوجبة التي لا تتوفر في جميع الظروف، بل هي نعمة كما وصفها تستقطب علامات السرور والفرح، «كانت أمي قد عادت توا إلى المنزل، وكانت على وشك أن تأخذ قبضة من الملح وحفنة من الكسكسي لتعدّ لي فطور الصباح، على أنه يجب أن أوضّح أنني لم أكن أحظى بمثل ذلك الفطور إلا في ظروف استثنائية»³.

ونجد الصورة في رواية "الأرض والدم"، حين يقف على المكان بحرفيته، «لم يكن يخرجه المستودع العمومي للقمامات الذي يشكل تلة أمامهم بالتحديد، ولا ذلك النهج

¹ - Albert Camus: Misère de la Kabylie. Editions La pensée, Alger 2014. P32.

² - Ibid., p. 32.

³ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 61.

الفقير المرسل، الضيق، المجعد، المليء بالوحد¹، إنه المكان الذي يجسد صورة الفقر في هذه القرية ويفرض أجواءه في كل أنحائها، هؤلاء الذين يكدحون من أجل لقمة العيش، من أجل هذه اللقمة التي تحفظ لهم كرامتهم، «إننا نعتقد ونؤمن بأن الفقير الجيد، هو الذي يحسن الانتظار، بطبيعة الحال، لا يكون الانتظار أبدياً، إذ عندما يموت أحد في بؤس، من دون بديل، فنحن مقتنعون بأن الموت بالذات، يمثل ذلك البديل. نقول بأن الموت، قد خلص فلانا ونخلص إلى الحكمة الأبدية»².

إن وعي الفرد بواقعه الفقير، تعيد بناءه رواية «الدروب الصاعدة»، فالشبان مدركون هذا الفقر وما يفعله بهم إن بقوا بين تلك الدروب، لذلك فهم مثل الآباء يسافرون إلى فرنسا من أجل العمل الذي لا يجدون راحته في تلك القرية، فنجد مثلاً أحد الشبان يعود من مدينة توركوينج ليقول لزوجته ويضعها أمام الأمر الواقع «يا هذه، أنا فقير. وجميع الناس يعرفون بأنني لا أملك شيئاً في ايغيل نزمان. أما في مدينة توركوينج فلي على الأقل عمل في أحد مصانع الغزل والنسيج. والبنات في هذا المصنع كثيرات. وما بقي لي إذن سوى أن أطلب منك الرجوع إلى أهلك، وأن تتزوجي ثانية مع من تريد»³، لهذا فهي حياة صعبة يشق على الشاب أن يبقى بين دروبها، فيتخلى عن زوجته هرباً إلى لقمة عيش صعبة لكنها متوفرة، والأمر سيان إذا بقي الفرد الجبلي هنا، فعليه أن يستقل هذه الدروب الصاعدة دائماً من أجل سد الرمق، لذلك «من أراد أن يعيش في هذه الحياة عليه أن يدخل معركة الصراع من أجل البقاء حتى تصبح يده خشتين، وعليه أن يمشي حافي القدمين إلى أن تصير أقدامه قاسية

¹ - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، ص 12.

² - المصدر نفسه، ص 42.

³ - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 66.

كالجلد السميك، وأن يصبر على الجوع إلى أن تتوتر قسما ت وجهه وتبرز عروقه ويصبح منظره مخيفا..»¹.

ج- صورة الأنا والواقع الاجتماعي:

يتجسد الشعور بالأنا في مقابل الآخر في بنيته التصاعدية في رواية «نجل الفقير»، بحيث تكبر هذه الأنا في منحنيات أشد وضوحا مقابل الأعمال الأخرى، فلقد تأسس لدى "فوغولو" شعور بالأنا منذ سنواته الأولى، خاصة حينما تأكد أن قيمة حضوره في اسمه، فهو "فوغولو" الذي يعني "المخفي"، أي لا أحد يمكن أن ينظر إليه سواء بعينه الطيبة أو الشريرة، باعتباره أول طفل ذكر ولد في العائلة، وهنا تكمن خصوصية الذكورة وأثرها في بنية تلك الجماعة، فكان هو الابن الوحيد في الأسرة، وكان لا بد له أن يمثل دوره الحقيقي في الشجاعة والبأس، حتى أن أخته الصغرى التي كان مستبدا معها، كلما اشتكت منه وجدت عند أمها جوابا واحدا، «كم أنت سعيدة الحظ لأن لك أخوا، أبقاه الله لك، كفي عن البكاء واذهبي فقيليه»²، هذا المفهوم الذي انتقل إلى وعي الأخت الصغرى اعتقدت أن عبارة "أبقاه الله لك" لازمة دائمة حين تنادي أخواها، فكان ذلك التضخيم في خصوصية الذكر تتناسب وفق أطر تاريخية تقليدية ودينية، امتزجت مع طبيعة الأماكن نفسها، فليس الذكر كالأنتى، ومشاغل الرجال أكبر من مشاغل النساء، وهذا ما نشأ مع فوغولو حين تناديه مثلا ابنة عمه "شبكة" كي يلعب معها، فيقول لها «في غير تواضع كاذب: إن مشاغلا أهم وأقرب إلى مشاغل الرجال تنتظرني خارج المنزل، فكانت تطأ رأسها ذليلة ولا تزيد كلمة»³، ولهذا فقد وجدت الطفولة مكانة لها في الجماعة، فكان الطفل مرحبا به، بل لا يتخلى

¹ - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 238.

² - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 28.

³ - المصدر نفسه، ص 32.

عن الظفرِ بهذه المكانة، هذا الطقس الجماعي الذي يفرق جيداً بين الذكر والأنثى، ويقيم للذكر الرفعة والسّمو، فيظل الطفل في كل مناسبة يتودد إلى الجماعة ظافراً بمكانه، لذلك «يتعلّم جميع غلمان القرية منذ عهد مبكر أن لهم مكانهم في الجماعة، ولأدنى غلام ذكر من الحقوق ما لأي واحد»¹.

إن مكانة هذا الرجل صنعت له جداراً بينه وبين المرأة، فلم تكن هي السمير الذي يلجأ إليه لقضاء وقته معه في تشاور يرتقي بقيمتها، بل كان الفلاح يقضي أوقات راحته وسمره بين الجماعة، إنها لغة الريفي البدوي الذي لا يعطي للبيت وقتاً كافياً من الاهتمام، وهو ما يجعل عقله لا ينتمي سوى لجماعته، ففي القران لا يختار إلا الأقرباء مبعداً أي تفكير يجعله يقترن بمن هي بعيدة عنه في النسب وحتى أحياناً في المكان، وذلك لخصوصية الجماعة لديه، الآخر نجده دائماً غريباً ولو كان من بلدةٍ مجاورة.

ورغم ذلك الاقتراب الكبير بين أفراد الجماعة، إلا أنه محفوف بمخاطر المنافسة، سواء فيما يخص حدود الأراضي المتلاصقة، أو فيما يخص أي شراكة أو نسب أو سبب آخر، ولعل الحادثة التي وقعت لفوغولو حين جرح عند حاجبيه عن طريق "مدية" حادة كان يعمل عليها "بوسعد نعامر" الذي لم يقصد إيذاءه، لكن صورة الدم جعلت عمّه حين رآه يندفع كالسيل، «لقد تخيل على الفور صورة الحادثة: إن بوسعد نعامر هذا من صف منافس، وكانت بيده مدية وانقض على ابن أخيه الأعزل، إنه يريد قتل الغلام والقضاء على آخر منزاد»².

ح- صورة المرأة القبائلية:

في رواية "نجل الفقير" استطاعت الجدة "تساديت" أن تأخذ مكاناً له وزنه في المجتمع الذكوري، وأن يكون لها القدر الكافي من الحضور الذي غابت عنه المرأة

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 36.

² - المصدر نفسه، ص 38.

أذاك، فقد توسطت جماعات الصلح، وذلك ليس بسبب خصوصيتها كامرأة بقدر ما كان حضورها بسبب أنها امرأة مسنة طاعنة في الحكمة والحضور، مما يجعلها تتساوى نسبيا مع الرجال، هذه النسبية التي قد تأخذها بعض العجائز الكبار اللاتي فقدن كل ترجمات الأنوثة في عالمهن، مما لا يكون لبروزهن في الجماعة أي أثر يُلاحظ، فقد تصدرت الجدة تساديت جماعة الصلح وشاركت برأيها.

وكان للجدة "تساديت" قيمتها في منزلها، تلك المكانة التي تجعل منها ربة أسرة، تتصرف في شؤون العائلة كما ترى، وتقتصد ولا تبذر، فهي الوحيدة بين آل منراد «المكلفة بالمعاش، وهي التي كانت دون سواها تفتح الإيكوفان وتغلقها. وكانت لها أساليبها الخاصة في معالجة كل ماعون»¹، وهذا ما يجعل لها تلك المكانة في التسيير، باعتبار أن تلك الجماعة كانت مجموعات من الأسر الفقيرة «لا يسبحون في بحبوحة من النعيم»²، ولعل تلك الميزة التي اتصفت بها الجدة تساديت مستمدة من قوة حضور زوجها ذات زمان، فالرجل هو من يعطي للمرأة هيبتها ويفرضها على الجميع، وهو ما كانت تتسم به أغلب الأسر الجزائرية التي كان لأربابها حضورا دينيا وماديا لا يستهان به، وأكبر دليل على ذلك المرأة التي استخلفت شيخ زاوية الهامل "لالة زينب"، حين استطاعت أن تسيّر في سياق القيادة وتكون عميدة زاوية الهامل هيبةً وحضوراً، إلا أن هذه الحالات لا يعتدّ بها كقاعدة عند جميع النساء في الجزائر آنذاك.

لتبقى المرأة في عالمها المخصص في هذه الجماعة (القبائل)، بين مغازل النسيج أو الاعتناء بحيواناتها، أو في معامل الطين الصغيرة، تعمل في جد وكّد كي تساعد في مصاريف البيت، فكان لها الدور الهام في تنمية نشاطها كما حصل مع "نانا" وهي «امرأة صنّاع.. تعرف كيف تتقل على النسيج جميع ما تصوره على الجرار من

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 24.

² - المصدر نفسه، ص 25.

خطوط»¹ فمزجت بين فنيتهما كامرأة طين تصنع الجرار، إلى امرأة نسيج تضفي على سدتها لوحات من خيوط تعطي لهذا النسيج جمالا خاصا.

لقد التفت الراوي إلى خصوصية هذه الصناعات التي تمارسها المرأة في تلك الجماعة، من الطين إلى النسيج إلى الحقل إلى عالم تربية الحيوان، وفتح نوافذ كبيرة على عالمها في الصناعة المنزلية، «ما أزال أسمع ضربات ممشاطها ذي الدويّ الأصم المتسارع والتوقفات المفاجئة والاستئنافات غير المتوقعة والسير المتقطع كأنه سير مائدة عتيقة، وعندما كانت تتوقفت فمعنى ذلك أنها قد قطعت خيطا من خيوط السداة وأنه يجب عقد طرفيه»²، ويمكن القول إن جميع هذه الأبعاد تنطبق على باقي الروايتين لأن المجتمع الذي عمل عليه مولود فرعون في رواياته الثلاث هو مجتمع واحد.

إن صورة «المرأة، الأم، والجدة» هي صورة توضح ملامح المرأة التي تحوي وتضم الجميع وكل ما حولها، المدبرة التي تفكر في كل تفاصيل الأسرة وما يحتاجونه، «قالت جدتي: بالتأكيد ! إننا فقراء، لكن والحمد لله لم يحمر لأزواجكن وجه خجلا طول حياتي متى تعلق الأمر بتكريم ضيف من الضيوف»³، وهي صورة للمرأة الجزائرية التي تقف في وجه العواصف والظروف القاسية والصعبة، وهي أيضا الملاذ الذي يأوي إليه كل مكلوم، «كانت جدتي تساديت، من بين جميع الخالات، أكثرهن باليتمات عناية، وأكثرهن توجهها إليهن بلطيف القول، كانت تتصحهن في أغلب الأحيان. وما يلبثن أن يعدنَ إلى مراجعتها في كل كبيرة وصغيرة»⁴، وهي صورة الأم التي تعرف

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 58.

² - المصدر نفسه، ص 58.

³ - المصدر نفسه، ص 43.

⁴ - المصدر نفسه، ص 23.

معنى «الألم والصمت». إنها شبيهة بتلك السنديانات الضامرة التي تنبت على حافة الطرقات»¹.

خ- الأسطورة والواقع:

تجلت الحكاية الخرافية في رواية «نجل الفقير» بشكل ينمي قدرات الطفل "فوغولو" في عالم مليء بالصور والخيال، فحكاية "مقيدش والغولة والحشاشي"² وغيرهم من الحكايات كانت مفاتيح دالة في بنية عوالم أخرى يعيشها الطفل في متعة لا مثيل لها؛ ولأن الخرافة كانت جنس الحكمة أحيانا فقد كان لها مكانة قوية في قلب الجماعة؛ ولذلك فحينما ولد فوغولو سُمي بذلك الاسم كي يبقى مخفياً عن الأعين الطيبة أو الشريرة، ففوغولو معناها "أخفى"، هو اسم جديد كل الجدة في تلك الفترة.

من جانب آخر فإن ولادة فوغولو كانت في شهر أسطوري، حيث ولد قبل قرض تبراري الشهر، مما يكون لشهر فيفري دخولا متميزا في القلوب، فقرض فيفري «أهلك عجوزا عند ذرى الجرجرا ومسخها حجارة، والذي مازال إلى الآن يثير هلع الذي بلغوا الثمانين من بين القبائليين»³، هذه الأساطير التي تنامت وفق ميراث اجتماعي مكن الإنسان القديم من التغلب على خوفه من الطبيعة، حين تتحوّل إلى عدو لدود، خاصة في تلك المناطق التي يكون فيها للبرد شأن كبير، تلك المناطق المنعزلة التي إن تراكمت فيها قسوة الطبيعة ستحوّلها إلى خراب، ولهذا كانت العدة لهذا الشهر هامة

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 100.

² - مقيدش الشخصية المعروفة في حكاية الغولة "عيشة القصيرة" التي استغلها وجعلها تأكل لحم ابنتها في القصة الشعبية المعروفة، على نطاق واسع في الثقافة الشعبية الجزائرية حيث نجح الطفل مقيدش في التلاعب بذكاء عيشة القصيرة، ومن يومها صارت شخصية مقيدش رمزا يطلق على كل طفل مشاكس يظهر ذكاء أو مواقف تفوق سنّه أو كثير الحركة بحيث يثير متاعبا لأهله، وقد يتجاوز الكبار في تدبير المكائد مثل مقيدش. أنظر: شخصيات شعبية= مقيدش الطفل المشاكس، جريدة الفجر، نشر بتاريخ: 13-07-2012، اطلع عليه بتاريخ: 22-06-2017:

<https://www.djazairss.com/alfadjr/219418>

³ - مولود فرعون: المصدر السابق، ص 26.

جدا، فهو شهر «أقرض يوما من أيامه إلى جانفي الذي كان يريد أن يعاقب امرأة من الجرجرا، ويسمى ذلك اليوم أمرذيل أي القرض»¹.

إن الاعتقاد بعوالم غيبية لم يكن رهين مجتمع دون آخر، بل الكثير من الأمم أحالت بعض الظواهر غير المدللة علميا إلى عالم غيبي تسكنه قدرة عظمى لا يستطيع عقلم البدائي إدراكها، وفي جماعة "فوغولو" وفي مجتمعات جزائرية وعربية ما زالت التمايم لها قيمتها في عالم الإيمان بما وراء الطبيعة، لقد فتحت الرواية أبوابا واسعة عن المعتقد الجماعي في تلك الفترة بأمر السحر والجن، وغير ذلك من الفتوحات الأسطورية، وها هو فوغولو ينتبه لخصوصية التمايم ومدى فاعليتها في عقول الناس، آخذا انتباهه مما قص عليه معلمه عن حكاية «الزير والنملة»² التي حولها إلى تميمة شُفيت منها المرأة العجوز، على أنه مؤمن كما الآخرين بما يفعله الجن في عقول المرضى، «من يدريك، عندما تكون عينا الأب مفتوحتين، أن ليس الجن الذين يسكنونه هم الذين يرنون إليك ويترصدونك ويمكنهم أن يباغتك فينتقلوا من محل سكنهم ويسكنوك أنت، في تلك الأوقات بالذات، كان فورولو، وأين منه حديث معلمه، ينتحي في حذر ناحية أخرى»³.

د- الحكاية في عوالم رواية "نجل الفقير":

ما تزال الحكاية هي ذلك العالم الذي يفتح عليه العقل ويستفيد منه لفهم قيم الخير والشر، كما يستفيد منه في كفيات كسر المنطقية التقليدية المتوارثة إلى اللامنطقية المرغوبة، ذلك الكسر هو الذي يحتاجه عقل التغيير، فالحكاية «تهدف إلى تحقيق أهداف تربوية تعليمية ونفسية واجتماعية عدّة، إذ تؤدي دوراً هاماً في تأمين خبرات

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 26.

² - نجد تهميشا لها عند محمد عجينة، فهي «قصة على لسان الحيوان للكاتب الفرنسي الشهير لافونتان عن نملة تكّد وزير يغني وهو مثل يضرب للكاد والكسول». أنظر: المصدر نفسه، ص 119.

³ - المصدر نفسه، ص 120.

حياتية مختلفة، مصاغة في بناء قصصي محكم، زاخر بالعبير والقيم، أضفى عليها الإنسان الكثير من الخيال والسحر والجادبية. كما تعدُّ وسيلة فعالة -إذا أحسن اختيارها- في إثراء اللغة المحلية، وتنمية الإحساس بالجمال، وأداة جيدة لغرس القيم الثقافية المناسبة وترسيخها، وتأسيس العلاقات الاجتماعية الإيجابية، والمحافظة على الموروث الجماعي، ونقله إلى الأجيال، إضافة إلى دورها في الإمتاع والتسلية والترفيه»¹. ولا شك أن الحكاية أثرت بشكل واضح في خلق عوالم موازية لدى الطفل "فوغولو"، ومنه أثرت في بناء رؤية (المصلح) أو البطل المتخيل (الطيب والحكيم) في الوقت نفسه، هذه الحكايات المتعددة² كان يسعى لها فوغولو من أجل ملئ فراغ ما، لم يكن ليعيه في تلك الفترة، لكنها حاجةً ولدت لديه عقب خلاء جوه الأسري الصغير منها، فطلب ذلك فيما قدمته له خالته من حكايات، وهذا ما يتضح لنا في هذه الفقرة: «أما أنا مع خالتي فقد كان الأمر مختلفاً، فقد كنتُ أنا وهي أثناء الحكايات مخلوقين آخرين»³، لقد نجح في رسم الحكاية المتخيلة التي انجذب إليها كأنه واقع موازي لما يعيشه، يقول متحدثاً عن خالته: «كانت تعرف كيف تخلق عالماً خيالياً ننتصب فوقه سادةً، كنتُ أجدو حكماً وسنداً لليتيم المسكين الذي يريد أن يتزوج أميرة، كنتُ أشهد انتصار مقيدش الصغير وقد هزم الغولة، كنتُ ألقى إلى سمع الحشايشي سراً وهو يحاول أن يتجنب مكائد السلطان المتعطش إلى الدم بردود حكيمة»⁴، ثم يضيف

¹ - عبد المجيد إبراهيم قاسم: الحكاية الشعبية أهميتها عناصرها ووظائفها، مجلة الحوار الإلكترونية، نشر بتاريخ: 2015-12-02، اطلع عليه بتاريخ: 2017-07-16:

http://alhiwarmagazine.blogspot.com/2015/11/blog-post_88.html

² - جدير بالذكر أنّ التراث الشعبي -عموماً- حفل بكل أشكال هذا النوع من التراث، لدى جميع المجتمعات الإنسانية، ويكاد لا يُستثنى منه أي شعب من الشعوب الحيّة. وهناك تشابه كبير - لديهم - في أشكالها، ومضامينها، وموضوعاتها. أنظر: المرجع نفسه.

³ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 59.

⁴ - المصدر نفسه، ص 59.

محاولاً كشف العبوس في علاقته الحكائية مع والديه ليقول: «إني لبعيد عن جيبني أبويّ المهمومين العابسين وزفيرهما في ليالي الشتاء التي ليس لها من آخر»¹.

إن العودة إلى الحكاية هي عودة الروح إلى الجسد، وهي العودة الفعلية للنص الروائي القادر على صنع العالم المتخيل والقريب في الوقت نفسه من المتلقي، وكسر تلك الفوضوية التي قد تخلقها التجارب التي لا تحمل معنى، فالتمسك بعالم الحكاية هو تمسك بقيم التحرر، وهو بحثٌ عن موضوع ممكن غير مستحيل، يقول فوغولو: «كانت الحكاية تسيل ذوباً من فم خالتي وكنت أعبها عبا، هكذا تعرفت على الأخلاق وأحلام الخيال، رأيتُ الطيب والخبيث، والقوي والضعيف، والماكر والساذج، كانت خالتي قادرة أن تضحكني أو تبكينني، صحيح أنني لم أكن لأتعاطف عن طيبة خاطر مع مأساة عائلية حقيقية، كان مصير أبطالي يشغلني أكثر من مشاغل أبي»².

إن العبارة الأخيرة تؤكد على ذلك اللجوء الحقيقي والفاعل في حياة فوغولو إلى عالم الحكاية، هذا العالم الذي أنشأ داخله قيماً معينة، كان يستعذب أثرها في نفسه، كما استفاد من هذه المدرسة التي باشرتها خالته في معرفة الأخلاق العليا والدنيا، فقد عرف تأويل الطيب ومعاني الخبث، وكشف عن تباينات القوة والضعف، واستطاع أن يستجلي عمق المكر والسذاجة، هاته الترحلات في المشاعر جعلت منه قادراً على سبر أغوار الشعور وملامسته دون التعبير عنه في نضج، وإنما حين بلغ شيئاً منه فكك تلك الاحساسات إلى جمل تترصّد المعنى وتكشفه، «ومهما يكن من أمر، فأنا مدين لخالتي بأنها علمتني منذ زمن مبكّر أن أسرح مع أحلام الخيال ومحبة أن أخلق لنفسي عالماً يناسبني، عالماً من الأوهام أنا وحدي القادر على ولوجه»³، وهذه هي

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 10.

² - المصدر نفسه، ص 10.

³ - المصدر نفسه، ص 60.

الخصوصية التي اكتشفها فوغولو في عالم الأحياء، الخصوصية التي يفجر داخلها خياله دون خوف أو ريبة، هو عالم منذ البداية يعتبر العالم -المغلق المنفتح- الذي يمارسه لوحده.

إن الدخول إلى عالم الخيال هو دخول إلى عالم الاكتشاف، ولذلك فالتمسك بعالم الحكاية هو تمسك بقيم التحرر، ومحاولة فهمها، ومن ذلك الخيال تتكشف عملية الفهم في صورها الأولى، حين يتوغل فوغولو في فهم تلك العلاقات المتداخلة في حكايات خالته، ويبني على أساسها ظلالاً لقيم الأخلاق والبطولة والشجاعة والقوة، ثم اليأس والتخاذل والتراجع وكيفيات نجاح أو عدم نجاح القيم النبيلة من خلال تمثالاتها على أرض الواقع، إنه يختزن ثم يقارن، إنه يقفز من عالم إلى آخر، كل تلك العوالم تجعل من عقله قادراً على تضمين كل خصائص القيم في حياته الخاصة.

وبين الخيال والحكايات المتعددة يقف عقله الصغير على محاولة إدراك ما حوله، بل يترصد خوفاً ما بداخله نتج عن تلك الحكايات التي تتربع داخل أبعاد مخيلته البسيطة، ومع ذلك كانت تتبدى له الكثير من التصورات، إنه يعيش حلماً داخل الحلم، وواقعا متخيلاً داخل واقعه الساذج «وبدا لفوغولو أن كائنا ماورائياً يحوم فوقهم ويسمع كل شيء، كان متحيراً ومرتبكاً، وحسبه أن يمدّ يمينه حتى يلمس أباه، لأنه كان دوماً ينام إلى جانبه»¹. لذلك ظلت الحكاية تعبيراً يميز الجماعة ويعبر عن شخصيتها، فهي «ترتبط بأفكار وأزمنة وموضوعات وتجارب إنسانية ذات علاقة بحياة الإنسان..»² فتجسد خوفه وتوجسه، وأمانيه وأحلامه، وفطنته وخيالاته، إنها تعبير واضح عن ما يفكر فيه في حقبة من الحقب.

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 122.

² - عبد المجيد إبراهيم قاسم: الحكاية الشعبية أهميتها عناصرها ووظائفها، مجلة الحوار الإلكترونية، المرجع السابق.

ذ - الجنون كظاهرة عرضية:

ينكشف ذلك الفضاء في حياة "فوغولو" في رواية «نجل الفقير» من خلال دلالات الوقائع التي جرّت تساؤلاته في محاولة فهم هذا التغيّر الذي يطراً على الإنسان؛ فيحوّل ديناميته من توازن إلى تشتت ظاهر، إنه يصطدم مع وقائع جديدة تحرك عقله الصغير لينغمس في محاولة فهم وقراءة عوالم مجردة تأخذ الإنسان إلى توهان كبير لا يمكن تفسيره بسهولة، لقد شهد عذابات خالته التي علّمته كيف يغوس في القصص الخرافية، علّمته كيف يتخيّل، ورأى معاناتها والأهل يحاولون مساعدتها بشتى الطرق، مزّقت ثيابها وأضحت تتكلم بطريقة غريبة، وأصبحت «بعدما كانت منظمة إلى حد الهوس، تثير القرف والاشمئزاز، كانت تخشى الماء كأنه النار، ولا تريد أن يسرح أحد شعرها، وتقضي حاجتها الطبيعية في مكانها..»¹.

لقد اصطدم بواقع آخر لم يكن ليتخيّله، إنه الجنون، أوما يحدث للعقل بين ليلة وضحاها، فيحوّله تحولا جذريا، ولم تختلف الحلول عن بعضها في مختلف القرى، فهم يؤمنون بقدرة شيوخ الزوايا، والكتاتيب في طرد الأرواح النجسة التي تسكن الإنسان، هكذا كان الاعتقاد، حتى أن والده أصابه الوهن أياما، فطلبوا له الشيخ من أجل مساعدته، «أيقظ الشيخ المريض يسأله، أجاب رمضان عن الأسئلة بكل تعقل، ورغم ذلك فقد اكتشف الطالب في كلامه معنى باطنا خبيثا، ومن الجلي حسب رأيه، أن الجنّ قد شوشت راحتهم ليلا إلى جانب عين جارية قرب المنشر وأنهم سكنوا جسده لأنه لم يحتط لاتقاء شرهم كأن يقول مثلا "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، وإذن فالخطأ كل الخطأ من جانب المريض»²، فيكون ذلك الخلل ظاهرة إجتماعية تتناولها الجماعة فيما بينها بالحذر والقبول، وتكون حديث المجالس والجماعات، لذلك انكشف

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 108

² - المصدر نفسه، ص 119.

لدى "فوغولو" ذلك الحاجب الذي يحجز العقل عن ضياعه، يقيم توازنا بين الغضب والتوهان في عوالم أخرى، فرأى ذلك الجسد الخائر التائر وهو لا يبالي بمن حوله، ويعمل ما بدى له، لهذا «يمثل المجنون دور التائر ضد القوانين المرعية في مجتمع متماسك له مشاعر مشتركة. فخياله هو عقله، وحيثما كان "العقلاء" مترددين أمام الظواهر الثقافية والاجتماعية، يمكن للمجنون إشهار أسلوبه في رؤية الأشياء وبقدر معتبر من البراءة التي تدعمها قدراته الخارقة على التنبؤ. هذا النقاء في الرؤية، والجرأة في التعبير، جعلوا المجنون، تقريبا، مثالا يحتذى في الحساسية الشعرية»¹.

ر - جنائزات الموت وتجليات الغياب:

لغة الموت الصارخة في عمق هذا السرد توحى بنبراته الحزينة وهي تجوب الأمكنة المتلاصقة والبيوت المتعبة، وهي ترفع آذان العادة المثقلة بالهموم، ففي مسافات رواية «نجل الفقير» مثلا، يتكلم الراوي بصوت الفتى واضعا وصفات الحزن المترامية في قلب الأسرة، وهو ما يجلي عوالمه في قوله: «لم يكن هذا الذي حدث لنا، بالنسبة إلى جميع أهالي القرية، خارجا عن المألوف. فعادة ما يحش الموت أناسا في شرح الشباب، فترى الواحد يبكي وينتحب أسبوعا كاملا حتى ليكاد يبيح منه الصوت»². وباعتبار مكانة المرأة في مثل هذه الوقائع، فيمكن لها أن ترافق الميت إلى مثواه الأخير، «فقد جرت العادة أن ترافق الميت قريباته حتى خارج القرية»³، هذه المرأة التي تعودت على ألام الدهر وصروفه، تتجلى بصورة واضحة في شخصية الأم فقد «ألقت الألم والصمت، إنها شبيهة بتلك السنديانات الضامرة التي تنبت على حافة الطرقات

¹ - وين جين اويان: الجنون في الأدب العربي بين الحلم والذاكرة، ت: صالح الرزوق، مجلة ألف الإلكترونية، نشر

بتاريخ: 2016-10-01، اطلع عليه بتاريخ: 2017-04-12: <https://aleftoday.info/article.php?id=12890>

² - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 100.

³ - المصدر نفسه، ص 101.

فتصر على حياة الخمول رغم تقلبات الجو ورغم الماعز يربعاها على هواه وفأس الرعاة تجذمها دون رحمة أو شفقة»¹.

في المقابل تجسدت صورة الموت في ثوب الغياب، الانتحار الذي رج أرجاء القرية في رواية «الأرض والدم»، وحرك فيها ما كان ساكنا، فمن جنازيات الموت إلى جنازيات الانتحار واختراق اللاممكن في القرى التي لا تخاف إلا من عراك الأرض، فقرية إيغيل زمان الهادئة «روعت مرة أخرى بجادث من حوادث الانتحار. قد عثرت إحدى النساء على المدعو عامر نايت العربي جثة هامة، وكان ممدودا بالقرب من الباب الخارجي المفتوح على مصراعيه»².

وفي رواية «الدروب الصاعدة» تتضح تلك الصدمة العنيفة التي هزت شخصية ذهبية جراء موت عامر، فمنذ البداية تتكشف لنا هذه الحادثة، وكأن "ذهبية" لا تصدق أن عامر مات وتركها وحيدة في عالم لا يحبها فيه أحد سواه، «فلماذا يا رب مات بتلك الطريقة السخيفة؟ ما عرفته إلا كريم النفس، ولو طلبت منه أن يتنصر من أجلي لفعل، لأنني لا أستطيع أن أتصوره على دين آخر غير دين المسيحية»³. إنها قصة حب وقعت في ثياب مأساة حقيقية، بين عامر وذهبية، بين حضارتين مختلفتين، ودينين مختلفين، وجذور مختلفة، ورغم ذلك اجتمعا، لكنهما افترقا في الأخير بسبب الموت، تلك الحياة التي أضحت جنازية بالنسبة لذهبية، فتحت لها آفاق التذكر والبحث المتجدد عن عامر داخلها.

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 100.

² - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، ص 299.

³ - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 42.

2- النسق الروائي، بين أبعاد الشكل وفلسفة المعنى:

2-1 الجمع بين التخيل والأوتوبوغرافيا والتأريخ

يتجلى ذلك الانغماس الإبداعي في بناء عالم متخيل من خلال أدوات واقعية تستمد حضورها من وقائع أوتوبوغرافية في كل تحولات الرواية، ولعل الروايات الثلاث في مجملها تصور مكانا واحدا متعدد الوجوه، أي بلامح مختلفة في كل رواية، فالمكان في رواية "نجل الفقير" في حدوده العامة هو القرية، بكل تفاصيلها الشخصية، وهنا قدم الكاتب صورة مكانية لتلك القرية، وأحاط بكل زواياها واحتوى أجواءها الهادئة والصاخبة، أما في رواية "الأرض والدم" فهو أيضا القرية نفسها، بكل ما فيها من خصائص، إلا أنه توغل شيئا ما في تفاعل الشخصيات مع بعضها البعض وأعطى منحى جديدا لهذا المكان، وفي رواية "الدروب الصاعدة" تصعد الشخصية في بعدها النفسي والاجتماعي إلى تجسيد آخر، ولعل اختيار الكاتب في تقديم منراد في رواية "نجل الفقير" كشخصية تستهل العمل، إلى فوغولو وقراءاته المتعددة لما يدور حوله من وقائع، يعطي لهذه الوقائع التي عاش صورها الكاتب من خلال شخصية فوغولو الطامح إلى تغيير واقعه اندماجا كليا في بنية دالة وهي الفقر، وتشخص هذا الأخير في كل ركن وزاوية داخل الرواية، فكان لهذا الهاجس المخيف دور في بناء نظرة سوداء لمستقبل مجهول ينتظره إذا لم يجتث تلك المخاوف في هذا المكان من الأعماق ويقدم على محاولات جادة في التغيير في مكان آخر.

ورغم أن رواية «نجل الفقير» لها شفافية السيرة الذاتية إلا أن الكاتب فصل بشيء من التخيل هذا التوغل، ورفع ببصره عاليا ولم يجعل روايته رواية وثائقية تستغل مرحلة تاريخية معينة ليكشف عنها بالشكل التاريخي المباشر، بل كانت الرؤية التاريخية متوازية مع رؤية اجتماعية ذات عمق دلالي كبير، لم يحفل داخلها بتوثيق الوقائع بقدر احتفائه بالمعنى الذي تنتجه الأحداث، إلا ما جاء في سياق وضع الرواية

في البعد التاريخي لها، باعتبار أن كل هذا السرد جاء في فترة حكم استعماري لا يرحم، ومن خلال تلك الرؤية المتوازنة بين التاريخي والسياسي كشف النقاب عن حدود التعامل الفرنسي مع الجزائريين، تلك الحدود التي رسمها الكاتب جيدا من خلال منحني إبداعي يقف على أبعاد تلك التعاملات، ونجد هذا في مختلف الروايات محل الدراسة.

2-2 تنوع البداية والنهاية السردية

منذ بداية العمل يقدم لنا المؤلف شخصية منراد في سرد مستقل يقف على تقديم مجمل الأحداث القادمة ويحاول أن يشكّل صوتا خارج الأصوات الداخلية لشخصية نميزها بشكل واضح وجلي وفي الوقت نفسه يكون مستبطننا لأصوات جماعة ما ومعبرا عنها وهو ما يسميه باختين "الحوارية"، وذلك يعني أنه ما «يظنّ أنه من قبيل الخطاب ذي النزعة الذاتية الخالصة ليس إلا خطابا مستبطننا لخطابات خارجية أخرى»¹، ومن هنا نطلع على عالم هذه الشخصية من خلال بعض المحطات التي تكشف عنها، ومع أن منراد الصوت المستقل هو نفسه بطل الرواية فإن الكاتب أراد أن يعطي للبداية تنوعا خاصا بفصل هذا التقديم عن باقي النص، وذلك باعتبار أن "منراد" هو صوت يشتمل على أصوات كثيرة نكتشفها خلال الإبحار في أحداث هذه الرواية، ومن هنا ينطلق الكاتب من إحدى محطات النهاية ليعيد بعد ذلك بناء الأحداث من بداياتها، وفي المقابل يعيد الكرة في نهاية هذا العمل، وفي الفصل الثاني حيث يعود إلى المنطلق نفسه ويقدم لنا هذا الفصل.

إن منراد هو معلم متواضع متجذر من بلاد القبائل، ومنذ تفرغه من أجل مزاولته مهنة التعليم، لا يندمج في تفاصيلها كلية، بل يصنع العالم الفكري الموازي، وهو الذي أنشأ داخله قدرة فهم واقعه وآليات التحوّل داخله، لا يبتعد عن كراسه الذي يدون داخله كلّ هواجسه وأفكاره التي تعبّر عن قراءات متعددة للواقع الذي يعيشه وعن حياته

¹ - مجموعة من المؤلفين: معجم السرديات، المرجع السابق، ص 101.

النفسية والفكرية وتأثيراتها، يشير إلى علاقته بالأدب التعليمية والمتنوعة، لكنه يشير أيضا إلى المصير الذي لحق طموحه، فهو يعود بعد رحلة تعلم شاقة إلى قريته ويشغل في مهنة التعليم على مضض، كما تظهر هذه الشخصية التي استكانت في الأخير إلى قبول هذه الحياة ببساطتها بشيء من المقدر حين يقول «متحملا معهم صروف الدهر والنفس منه راضية مطمئنة، مرتقبا مثلهم في جبرية ولا مبالاة ويقين مطلق -على حد قوله- ذلك اليوم الذي سيدخل فيه جنة محمد»¹.

ومن هنا تعتبر شخصية منراد في بداية هذا العمل هي شخصية افتتاحية تحاول أن تنفصل عن العمل وتقدم له، على أساس أن منراد هذا سيقدم لنا دفاتر ومذكرات لمنراد فوغولو، ويعتبر هذا الدخول من تقنيات الكتابة الروائية وآلية من الآليات التي ميّزت الكثير من الأعمال الناجحة التي تحاول أن تفصل الكاتب عن عمله الأدبي بالطريقة الكلاسيكية، وتحاول أن تستخدم طرائق أخرى في احتواء القارئ، كأن تتحدث الرواية في بدايتها عن مخطوط يكون هو الرواية ذاتها. ومع ذلك فإن الجزء الذي يقدم لهذه الأحداث قد ضمنه الكاتب في الفصل الأول المعنون بـ "الأسرة"، هذا الفصل الذي يتضمن 11 جزءا، ليأتي بعده الفصل الثاني من الرواية المعنون بـ "الإبن البكر".

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 06.

3- البنية الدالة

من خلال قراءة الموقع الجغرافي لمنطقة القبائل الكبرى (المكان الروائي) ندرك أن له تاريخ مع البؤس والألم، فالفقر يوزع فضاءه فى كل ركن هناك، ولعل الزراعة كانت ملجأ هؤلاء كمحالة للخروج من ذلك الظلام الدامس، نتيجة طبيعة المنطقة التي تساعد على مثل هذه الأعمال، بل تظهر الفلاحة كأهم مورد من موارد الحياة الاقتصادية هناك، رغم ضآلتها التي تجعل البعض فى ضيق دائم، نظرا لعدم تملك الأراضي بالشكل اللازم، و«نظرا لقلّة هذه الأراضي الفلاحية الخصبة، يلجأ سكان هذه المنطقة إلى استغلال ملكياتهم إلى آخر شبر، ويزودونها باستمرار بالسماد الضروري للإخصاب، ويستغلونها بشكل مستمر على مدار الفصول والسنوات، من دون تركها للاستراحة اللازمة»¹.

ومن الملاحظ أن هذه القبائل والجماعات رغم محاولات تحسين أوضاعها ظلت فقيرة، حيث ساهمت المرأة بشكل كبير فى أعمال الرجال، وكابدت من أجل أسرها وأبنائها، فقد علّق ألبير كامى من خلال استطلاع حول المنطقة الذي نشره بين 5 إلى 15 جوان سنة 1939 منتبها لخصوصية مشاركة المرأة فى حياة جد قاسية، وتحدث عن الفقر بكل تحولاته داخل المجتمع، فيما أطلق عليه "بؤس القبائل".

وفى استجواب لألبير كامى² خلال استطلاع وأثناء توزيع الحبوب لطفل كان يحمل على ظهره جفنة شعير، قال له:

«- كم من الأيام يكفيك هذا؟»

- خمسة عشر يوما.

¹ - محمد جلاوي: الشعر القبائلي التقليدي، المرجع السابق، ص 52.

² - ألبير كامى Albert Camus (1913-1960)، رواية "الغريب" هي الرواية الأولى له، حائز على جائزة نوبل للأدب، وهو أيضا مؤلف "الطاعون"، و"الموت السعيد". أنظر: ألبير كامو، الغريب، ت: عابدة مطرجي إدريس، دار الآداب للنشر والتوزيع، د ط، بيروت (لبنان) 2013، الغلاف.

- كم عدد أفراد عائلتك؟

- خمسة.

- هل هذا كل ما تأكلونه؟

- نعم

- أليس لديكم ثمار التين؟

- لا

- هل تضعون الزيت على الفطير؟

- لا. نضع الماء»¹.

ثم يقول إنه قد رمقه بنظرة حذرة وغادر، تلك النظرة التي توحى بأن ما يحمله هذا الطفل ثمين وثمانين جدا وسيدفع حياته من أجل المحافظة عليه.

ولقد تمثلت في الروايات الثلاث هذه البنية، وأفرجت عن مساحاتها في رواية "نجل الفقير"، لنجد أن فلاحه الزيتون من أهم الأعمال في المجتمع القبائلي، نظرا لاستجابة الطبيعة لمثل هذه الزراعة، حيث يهتم القبائليون بهذا المنتج ويقدمونه، ولم تتميز منطقة القبائل فقط بأشجار الزيتون وثمارها التي لها مكانة خاصة، بل تعدى ذلك إلى منتجات أخرى تميز بها أيضا خاصة في مجال الصناعات والحرف، «إذ أن القبائلي يكشف عن مهارات نادرة في هذا الميدان، وتبرز قدراته بشكل أخص في ميادين واسعة الذبوع والانتشار مثل: صناعة الخشب بكل مجالاته كالنجارة، ومحفورات البنادق، والمجارييف، والقباقب والنعال، ولوازم الحياكة. وصناعة الفخار التي لقيت ذبوعا كبيرا بمصنوعات عديدة كالقلل، والقرميد، وأدوات ذات الاستعمال المنزلي. وصناعة الصابون الأسود باستغلال مادة الزيتون الفائضة- وصودا القوقس أو من رماد شجرة

¹ - 34. Ed, La pensée, Alger, Misère de la Kabylie, Albert Camus

الدلى - صناعة القفف والأحصرة باستغلال مادة الحلفاء، وقتل الحبال من الزغب أو شعر المعز»¹.

لقد انبنى الصراع داخل المتن الروائي في شكل يعمق الفجوة بين الأهالي والمستقبل المجهول، هذا الذي يرسم على الأفق ظلالاً قاتمة، فقد حقق الاستعمار جزءاً كبيراً من هذا الإقصاء، والتهميش، واللامبالاة، وحمل على تلك الجماعات ما لا يمكن أن تتحمله، على أن «منطقة القبائل بطابعها الجغرافي المميز، وبمؤسساتها التنظيمية القبلية الخاصة، تبقى بعيدة المنال عن كل طارق أجنبي يرمي إلى خرق حرمة مقدساتها الأزلية، الموروثة عن الأسلاف منذ عدة قرون خلت»²، لكن الاستعمار عزم بكل جد على تفكيك تلك البنية، وزرع التششت بين صفوفها، وعزلها تماماً، حتى لتجد رائحة الفقر على بعد مسافات قبل بلوغ دروبها.

إننا إذ نتوغل في رواية «نجل الفقير» نجد معاناة الأسرة كلها من خلال معاناة فوغولو أحياناً كثيرة، من أجل أن يصل فوغولو إلى غايته التي هي غاية والديه ومجتمعه الصغير، إنها غايات متوحدة في الشكل ومختلفة في المضمون، فما يراه فوغولو ليس هو ما يراه والده وإن توحدت الرؤية نحو هدف معين، لقد تجسدت علامات الفقر منذ البداية، حين نوع في الدخول إلى عالمه الروائي، وجسد شخصية "منزاد" المعلم البسيط المتواضع الذي يدرّس في مدرسة بقسم وحيد في قرية يقطنها الفلاحون الفقراء في كل جانب، ثم يجسد مرة أخرى ومنذ البداية الشكل الجغرافي للمجتمع القبائلي في تلك المنطقة، ولعل عتبة عنوان هذه الرواية هي مفتاح الدخول إلى هذه العوالم المبطنة في الداخل.

¹ - محمد جلاوي: الشعر القبائلي التقليدي، المرجع السابق، ص 54.

² - المرجع نفسه، ص 272.

إن محاولات الإنسان البسيط في تغيير يومياته والاستفادة من الآخر، جعلت من الكثيرين يمتنون السفر خارج حدود تلك المنطقة من أجل لقمة العيش، كما حدث في رواية «الأرض والدم» حين سافر "عامر" للعمل مبكرا، ومحاول أن يجد منافذ أوسع من تلك التي تركها في القرية، كما كان والد فوغولو من بين أولئك المجتهدين من أجل تسديد الديون، وإعالة الأسرة، لقد كان فوغولو يدرك معاناة والده من أجل ذلك، حتى أن شخصية المرأة تجسدت كامرأة عاملة فاعلة داخل تلك الجماعات كي تعين الرجل وتحسن من وضعها المزري، وهناك من تعمل في الفلاحة، وزراعة الزيتون، باعتبار أن ذلك العمل من «موروثات الأجداد المقدسة، وفي اعتقادهم أن كل شجرة مالكة لروح من الأرواح لسلفهم السابق، لذا يهاب إلى حد كبير قطعها أو اقتلاعها، وقد يكون ذلك سببا من أسباب كثيرة ما يسمى في المفهوم العقاري التقليدي "أبندو - Abandu"، إذ قد تباع الأرض، وتبقى شجرة الزيتون غير مباعة»¹.

إن شخصية الأب باعتبارها شخصية حاضنة لعالم فوغولو، فإن الطفل يسير وفق تلك الرغبات لكن داخل عالمه الخاص، العالم الممكن القابل للتغيير ومن ثم القابل لتجاوزه، والقابل أيضا للفكاك وفقا لطريق تمهدها الجماعة، هذه الجماعة التي يصفها فوغولو على أنها كلها من أصل قبائلي واحد، ويعيشون سوية عيشة واحدة، ومع ذلك يتلاقى طموحه مع أبيه تارة وينغرس في أجواء أخرى تارة أخرى، فهو يتابع مشاريع والده في دهشة حين يقترح عليه بعض التعديلات في حياته، كأن يكون فلاحا مثلا ويرى الرخاء يحل على البيت، لكنه يتفق مع أبيه في التغيير دون أن يتخلى عن حلمه كطالب فقير ونبية، تلك الصورة التي تعلق بها وظلت معه لا يبارحها رغم الاستدلالات التي يقدمها له والده في التخلي عن هذه الصورة في لحظة يأس وقنوط، لكن مع

¹ - محمد جلاوي: الشعر القبائلي التقليدي، المرجع السابق، ص 53.

وصول منحة الدراسة تغير كل شيء، فبدأ «الأب نفسه يؤمن بذلك، فهل هو من الغفلة حيث يترك للبايك المائة وثمانين فرنكا التي تنتهي الحكومة لمنحها لابنه كل شهر؟»¹. إن محاولة والده في التحرر من وضع متأزم إلى وضع أكثر فاعلية في حياة الفتى، وما يرغب فيه الفتى هو الآخر من تحرر جعل نقاشا متواصلا يدور بينهما بين الفينة والأخرى، لقد وضع له الأب صورة لنهاية واقعه الدراسي كله ليعود للفلاحة، ودلل على ذلك من خلال بعض معارفهم، كما حصل مع "ابن سعيد المرابي".

لكن الهدف الواحد الذي يقابل رؤية متحدة مع ابنه جعلته يؤمن بما سيحققه الإبن البكر، «لم يكن الأب منراد مغفلا، كان يعلم حق العلم أن ابنه لن ينتهي إلى شيء، لكن سيتغذى فوغولو في المدينة تغذية أحسن مما لو كان بين أهله، وسيكبر بعيدا عن حياة الشظف التي يعانها المراهقون في قريته»²، رغم أنها حياة شظف باردة لا طعم فيها.

في رواية «الأرض والدم» تتجلى هذه الدلالة بشكل ينغرس داخل أبعاد السرد، فهو يحمل صورة للمكان الذي يحتوي هذه الجماعات ويتحملها، لكن الأحداث تتجاوز المباشرة في الطرح، وكأن مولود فرعون اكتفى في تصدير هذا البعد في روايته الأولى، أما في روايته الثانية فقد توغل أكثر في العلاقات الداخلية التي تربط بين الأهالي، في حالات الحب والحنين، وحالات الغدر والخيانة والجنس، «إننا نجد بأن الاهتمامات الجنسية وما يكتنفها من جمالية وقيم، وما ينسب إليها من إيجابية وسلبية، كانت حاضرة بقوة، في ترسانة المواد الأدبية التي تصنع المقروئية العصرية، فهي مثلا نرجسية جدا في تنديدها بالإقصاء القبلي»³، على أنه يشير إلى البؤس الذي انغرس

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 142.

² - المصدر نفسه، ص 143.

³ - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص 06.

فى الوجوه، «أمضيتّ سنوات عديدة فى فرنسا دون أن تفكر فى والديك. كنت سعيدا، بينما كانوا يتعبون. لقد وجدت أمك فى كنف البؤس»¹.

وعلى هذا المنوال تسير رواية «الدروب الصاعدة» وهى تشق عباب الأحداث فى تأنى، ترصد ذلك العالم الفقير الملىء بالحكايات، وتتبع الاختلافات التى انبنت فى هذا المجتمع، إنتشار المبشرين المسيحيين، وتنامي هذه العقيدة فى مجتمع فقير يتربص أدنى شيء للخروج من أزماته المتعددة. إنهم يهربون من ذلك السواد الذى عمّ حياتهم، يهربون من أجل لقمة العيش والعودة بما يمكنهم من بعث الحياة من جديد، إنهم يغادرون كلما سنحت لهم الفرصة، «ستهبط من جميع القرى نفس النماذج البشرية من المغتربين ونفس الأشباح التى تبدو فى الصباح الكئيب سوادا غير واضحة الملامح، ستهبط منها نفس الوجوه النحيلة ذات الشفاه المتدلّية والعيون المحرومة من النوم، وسيقبل كل واحد بنفس الحقيبة التى سودها الدخان، ونفس الرزمة من القماش الغليظ المحزومة بالخيط»²

¹ - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، ص 56

² - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 248.

4- التفسير¹ L'explication ومنعرجات الرؤية وتحولات التجاوز/ الوعي الممكن وأسئلة الذات والمجتمع:

إن ذلك الانتقال من الوعي القائم الذي تساهم في ترسيخه الجماعة وتستمر في بناء درجاته الفعلية، إلى الوعي الممكن الذي تقدم له مسارات غير مرئية هو من بين ما يؤسس لتحولات الرؤية للعالم، تلك التحولات التي لا تساهم بالضرورة في اختفاء الجماعة، بل تمنح حدوداً أعلى من التلاؤم بحيث يتسنى للجماعة الوصول إليه دون أن تطرأ عليها تغيير كلي، أي «أنا عندما نريد دراسة وقائع الوعي الجماعي، أو بدقة أكثر، درجة التلاؤم مع الواقع لدى وعي مختلف الفئات المكونة لمجتمع ما، فإنه يلزم البدء بالتمييز الأولي بين الوعي القائم بما له من مضمون ثري، متعدد، وبين الوعي الممكن باعتباره الحد الأعلى من التلاؤم الذي يمكن أن تدركه الجماعة بدون أن تتغير طبيعتها»²، وبالتالي «فإن الوعي الممكن يرتبط دوماً بالحلول الجذرية التي تطرحها الطبقة الاجتماعية لتتجاوز مشكلاتها، وتحقق التوازن المنشود»³ وهو ما يتجسد في جميع الروايات.

ففي رواية «نجل الفقير» نرصد عالم فوغولو الطفل وهو يتلقى من الآخر -أي كل ما هو خارج عنه- وما يمكن له أن يستفيد منه داخل عالمه الموازي، هذا العالم الذي يتقاطع هو الآخر مع وعي جماعة داخل الجماعة، فيكون وعياً داخل الوعي.

¹ - ترجم هذا المصطلح "Explication التفسير" المترجم يوسف الأنطكي في ترجمته لكتاب لوسيان غولدمان "العلوم الإنسانية والفلسفة"، وقد اعتمدت الدراسة هذه الترجمة لاقتربها للمعنى الدال على الأبعاد التي يتقصدتها غولدمان، أنظر: لوسيان غولدمان، العلوم الإنسانية والفلسفة، المرجع السابق، ص 158.

² - لوسيان غولدمان: الوعي القائم والوعي الممكن، المرجع السابق، ص 37.

³ - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، المرجع السابق، ص 162

4-1 الوضعيات المضادة في الوعي الممكن:

إن الوضعيات المضادة¹ تراءت في رواية "نجل الفقير" في عالم فوغولو ومنذ بداية علاقته بهذه الجماعة، إن داخلها ما يستطيع أن يفكك تلك العادات المقدسة وأن يشلّ تناميها في عقل فوغولو، وهو ما حدث حين أدرك من خلال معلّمه وهَمَّ "التمائم"، وحاول أن يبيّن لأخّتيه «أنه شديد النباهة وأنه لم يندع بكلام الشيخ المعمم الذي استل منهم عشرة فرنكات، قصّ عليهم ملحة المعلّم مضيّفاً أن الزير والنملة شفيا المرأة العجوز كما لم يكن ليفعله حرز حقيقي»²، لكنه لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة أمام الجميع فتكون عاقبته وخيمة، مما يجعل لديه درجات أولى في تفسير انفصاله عن الجماعة ونمط تفكيرها الصارم متجاوزا هو من خلال معلّمه هذا النمط من التفكير، لكنه انفصال غير تام وغير فاعل، فهي مجرد ملاحظات لم تطرد عنه خوفه من حقيقة الجن الذي سكن والده، وحذره من أن يباغته فيسكنوه هو.

إن درجات التواصل بين الأب وفوغولو كانت على قدر كبير من الأهمية رغم عدم وضوحها في تصرفاته، اكتشف فوغولو أهمية هذه الأسرة عند والده وتحسس ذلك بشيء من اليقين حين استيقظ في جوف الليل منتبهاً لهماهمات والده وهو يدعو الله في ذلك الظلام أن يحفظ عائلته من كل سوء، بصوت خافت وبتوسل اليائس، «وبدا لفوغولو أن كائنا ماورائيا يحوم فوقهم ويسمع كل شيء، كان متحيراً ومرتبكاً، وحسبه أن يمدّ يمينه حتى يلمس أباه، لأنه كان دوماً ينام إلى جانبه»³.

¹ - رأينا أن الوضعيات تجلت فيما احتواه الوعي القائم، في كل تلك التفاصيل، لتأتي الوضعيات المضادة داخل ما يحتويه الوعي الممكن، لأن «الوضعيات، والوضعيات المضادة تمثل الأجزاء، والتجاوز هو الذي يكون وجه الكلية La totalité «نصل إلى الرؤية للعالم. أنظر: Mohamed Salim Negged, *op. cit.*, p. 06.

² - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 120.

³ - المصدر نفسه، ص 122.

إن ما يدفع "فوغولو" بطل رواية "نجل الفقير" إلى محاولات التغيير (ووعي ممكن)، هو معرفته عن الواقع الذي قد يحيله إلى مجرد راعي أو فلاح (وعي قائم)، باعتبار أن هذين الخيارين هما ما يمكن أن يتواجدا في تلك المساحة وعلى ذلك التراب، بل ربما هذا الخيار أو ذاك لا يكون ممكنا أحيانا، فيظطر الناجي من كرب الحيرة حين تتوافد عليه أسباب معينة أن يسافر إلى فرنسا للعمل.

إن الحلول التي كانت متاحة يوما ما في العمل بالقرية لم تعد تجدي أحيانا كثيرة حين يتفاقم الأمر وتتكاثر الديون، وهو ما حصل مع رمضان حين طال به المرض، وبسبب كثرة المستلزمات والواجبات المنزلية اضطر إلى الاستدانة حيناً واقترض بالربا ما أمكنه «حتى يسترجع قواه ويعيل ذويه، كان فصل الشتاء قد حلّ واضطر إلى أن يقترض باستمرار حتى فصل الربيع»¹، وحين استعاد عافيته أدرك أنه على شفا جرف هار فرهن حقله ومنزله، «وبعد ذلك بمدة، غادر رمضان القرية ذات صباح تاركا أهله في رعاية أخيه وسافر إلى فرنسا للعمل بها»².

إن ذلك الخروج المقصود والملح أحيانا كثيرة فتح ذلك المجتمع الصغير على عالم أجنبي مختلف، وكل مسافر سيجيء وبرفقته أفكار أخرى تتأثر بها هذه الجماعة، حتى أن رغبة فوغولو في الكتابة باللغة الفرنسية كانت ملحة في تلك الفترة، كي يكاتب والده دون اللجوء إلى "المحرز" الذي كان يحرر لهم الرسائل، فقرر فوغولو حفظ ما يمكن حفظه في مثل هذه المواقف (وضعية مضادة)، وإذا كان التكلم باللغة الفرنسية هو اعتراف بالثقافة والوعي استنادا لطبيعة التاريخ الذي كان يحكم المكان، فإنه قد أعجب أيما إعجاب حين دخوله الامتحان بـ "فور ناسيونال" وهو على بعد حوالي عشرين كيلو متر من القرية، بما تملكه هذه المدينة من مباني شاهقة ومحلات، وكانت مليئة

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 121.

² - المصدر نفسه، ص 121.

بالفرنسيين، فكان وعيه ينقاد بسلاسة إلى المجتمعات المتحضرة في صورتها الجمالية الإنسانية خارج أطر الاستعمار في بعده العنصري والاستغلالي، بل تراه مندهشا في كونه يتقن اللغة الفرنسية، ومستلذا سماعه لأطفال يتقنونها ويجرس ألد وقعا على السمع، لقد تحوّل ثقافيا وطوّر في شخصه، «وأجاب دون خوف، لم يعد نفسه ذلك الشخص، قد لا يعرفه حتى معلّمه»¹.

على أن رواية «الأرض والدم» تقف أيضا في منعرج أساسي داخل عملية السرد، إن الوعي الممكن يتجسد في تلك المؤشرات التي تنبعث من دلالات عبارات متعددة، تكمن في عمق تفاصيل تكشفها الكلمات، «لا نعثر في أي مكان على إنجاز إنساني عظيم أو ضخّم، معقد أو رائع، قادر على أن يصمد أمام نوائب الدهر، ويشهد على وجود ماض عريق وباهر، إننا لا نشعر هنا إلا بالجهد المعزول، اللفظ، غير المثمر، لإنسان عديم الوسائل، إنسان يصارع باستمرار من أجل العيش، ونفهم أيضا أن هذا الجهد المضني لا يمكن أن يستمر إلى أبعد من حياة الفرد الواحد، لذلك كان الإرث دائما ضئيلا وعلى كل جيل أن يعيد الكرة من جديد، وأن يعمل لحسابه»²، فنجد تلك اللغة التي لا تستطلعها من خلال الحوارات أو الشخصيات فقط، إنها تتمكن من فضح علاقاتها في الداخل، من مستوى إلى آخر، إن ذلك الإنسان غير راض تماما على تلك التراتبية في الحياة، إنه يبحث عن مخرج ليس من أجل لقمة العيش فقط، بل من أجل بعث إنسان مختلف لا يشبه هذا الإنسان الذي يتمثله، إنه يبحث عن إنسان يمكن له أن يجسد كل تاريخه ماديا، بالخروج من متاهة الطين التي لبست عريه في ذلك المكان، إنه يبحث عن قراءة مختلفة لهذه الحياة، تعطي له إنتاجا إنسان يتجاوز تلك السطحية في الحياة، ليبنى ويثمر وينتج حضارته التي ترتبط بتاريخه وتفجر مستقبله

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 126.

² - المصدر نفسه، ص ص 09، 10.

من خلال إبداع الإنسان على الأرض، لا أن تكون مجرد حياة من أجل الحياة ذاتها، فلا يبقى ذكره مخلدا في التاريخ الإنساني.

في حين نجد "ذهبية" في رواية «الدروب الصاعدة» وقد احتوتها عوالم أخرى، تجسدها "ذات مضادة" تقف في مواجهة الشخصية التقليدية داخلها، فتتجاوز تلك الخصوصيات المجتمعية، وتتقم على الكثير داخل تفاصيل تلك الدروب والبيوت المتلاصقة، إنها ذات تتعارض وأهداف الذات، على أنه لا يجب النظر إليها «بوصفها مجرد معارض (خصم) يدخل في صراع مع "الذات" ويمثل عقبة مؤقتة في سعيها نحو الهدف. ويتم فصل السرد على أساس سعيهما المبني على الصراع»¹، إنها تواجه الحياة بذاتين مختلفتين متتاميتين في الصراع، إنها تدعو على عامر حبيبها في مواقف معينة وأحيانا أخرى تدعو له بالخير، وهي تعترف بذلك «أعترف لك يا عامر أنني لست بريئة. فقد دفعني الجنون إلى أن أخون عهد الوفاء لأنني شعرت ذات يوم بالغيرة وتملكني حزن شديد، فدعوت لك بالشر، لست بريئة، ولكنني متأكدة أنك لو عرفت الحقيقة لسامحتني»²، لقد كانت تعي جيدا شخصية عامر، هذه الشخصية التي أصبحت تغيضها كثيرا لما امتلكت من مبادئ لا تستحملها نفسها المتباينة، «خطر ببالها فجأة أن عامر ربما لم يكن يحبها وحدها، لأنه شهيم كريم، وأنى لها أن تطمح لمثله من الرجال ! وله مبدأ أساسي يؤمن به: فإما أن يحب جميع الناس، أو لا يحب منهم أحدا، إنه صاحب أفكار ومبادئ يؤمن بها ويدافع عنها. وقد أصبحت هي أيضا في نظره فكرة ومجرد فكرة»³.

¹ - جيرالد برنس: قاموس السرديات، ت: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، ط1، القاهرة 2003. ص 19.

² - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص ص 42، 43.

³ - المصدر نفسه، ص 48.

في المقابل نجد "ذهبية" تستقرأ واقعا آخر، إنها تنظر إلى الممكن حين يكون واضحا أمامها لكنها لا تقف عنده، لا تستطيع أن تتمكن منه، تتمنى أن يكون عامر مسيحيا ! فلربما «سمع الأب دوبوا يتحدث عن كل هذه الأمور التي هي فوق مستوانا. وقد شرح لنا لماذا كانت فوق مستوانا، وحدّرنا من الشيوعيين، وقال لنا أن الفقير هو المسؤول عن فقره، وأكد لنا أن الله سيعوض لنا في الآخرة ما فاتنا من الرزق في هذه الدنيا. ولكن.. لم يعد أحد من أهالي القرية يصدق بأن الله سيعوض لهم شيئا»¹.

إن "ذهبية" ترصدت في داخلها إحساسها بالآخرين، وبما يمكن أن يجسده الدين عندهم، إنها من جهة أخرى تمزج بين معتقدين أساسيين في تلك المنطقة، في فهمهم للدين وتجلياته على الحياة الاجتماعية، وكأنهم دين واحد، تقف حدوده عند تقاليد شكلية، ولا يختلف الواقع الذي يعيشه الأهالي سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين، إنهم ينظرون إلى واقعهم الفقير فقط.

فذهبية تبحث من خلال وعي ممكن ووضعية مضادة عن حياة أخرى لحبيبيها عامر، إنها تتمناه بلا أثواب مسلمة تحيله إلى هؤلاء الذين تمقتهم، هؤلاء الذين يكرهونها، ولأنهم أنانيون كما تراهم، فقد أضحت هي الأخرى أنانية، فحب النفس لديها هو السلاح القوي الذي تواجه به الغير، أما عامر، فلا تراه سوى شخصا مسيحيا يعي جيدا تفاصيل ذلك التوجه الديني المسالم، فهذا الاتجاه هو الذي يليق بذلك الفارس الطيب الكريم العطوف على الفقراء والمساكين، ذلك الإنسان الخيال صاحب المبادئ والأفكار التي ينضج ليدافع عنها باستمرار، ذلك الشخص الذي لا يعرف معنى الأنانية، «ولو طلبت منه أن يتصر من أجلي لفعل، لأنني لا أستطيع أن أتصوره على دين آخر غير دين المسيحية»².

¹ - مولود فرعون: الدروب الوعرة، المصدر السابق، ص 49.

² - المصدر نفسه، ص 42.

4-2 من الوضعيات المضادة إلى التجاوز:

لقد توطنت النصوص بدلالات اجتماعية ونفسية وتاريخية معتبرة، فالجماعات في ذلك المكان والزمان الروائيين شكلت حضورها في بناء شخصية الأفراد داخلها، حيث تميّز المجتمع القبائلي بخصوصيات متعددة، وفريدة أحيانا، فهو مجتمع أصيل في البلاد الجزائرية، له تاريخ عميق يتوغل في عمق حضارات مختلفة، صارع العديد من الحقب، وتوالت عليه جماعات استعمارية متنوعة، لكنه ظل مقاوما، مستلهما من كل ثقافة ما يمكن أن ينمي حضارته، ويساعد في رفع أفق التطور والرقي لديه.

لقد «عثر الباحثون في الوطن الجزائري على أطلال من بناءات البربر حاكوا فيها الفن الفينيقي. وكثيرا ما يجدون أطلالا مركبة من الفنين الفينيقي والإغريقي»¹، وقد تضمن كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمحمد مبارك الملي²، ما يدل على أن البربر هم من عمّروا هذا الوطن في عصور قديمة، وقال في كتابه من الكلام ما يدل «على قدماء الجزائر، أهل العصر الحجري، والكلام عن البربر الذين عمروا هذا الوطن منذ دهور لا يعلم مبدأها إلا العليم الخبير واستقروا به حتى عرف بهم ونسب إليهم، والكلام على الدول التي سادت البربر فيه: وهي: دولة الفينيقيين ودولة الرومان ودولة الفندال ودولة الروم»³، وهذا ما انساب داخل بنية تكوّن تلك الجامعات (بنية التكوّن في السرد الروائي)، فبتنوع حضاراتها تنوعت ثقافتها واستفادت من كل وافد، بل لعله المجتمع الذي ينبني على تعدد لغوي وثقافي، بين اللغة الأمازيغية، والفرنسية،

¹ - مبارك بن محمد الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب ودار الغرب الإسلامي،

ج1، بيروت لبنان، دت، ص 164.

² - هو الشيخ مبارك بن محمد إبراهيم الملي من مواليد مشنة الرمان و هي جمع الرمان، الموجودة ببلدية غباله ، دائرة السطارة و لاية جيجل في الشرق الجزائري، ولد بتاريخ 26ماي 1895 م وهناك من يقول سنة 1898 م الموافق لسنة 1316 هـ .توفي أبوه وعمره أربع سنين فكفله جده ثم عمّاه. أنظر: مبارك الملي، الموسوعة الحرة

ويكيبيديا، اطلع عليه بتاريخ: 2018-03-23: <https://ar.wikipedia.org/مبارك-الميلي>

³ - المرجع نفسه، ص 41.

والعربية، ذلك التعدد الذي شكّل أفقا حضاريا أساسيا في بلاد القبائل وجعلها تمضي قدما نحو تطوير بنيتها الداخلية، التي بدأت تنميها عقب الاستعمار الفرنسي للجزائر من أجل أن يرتقي الفرد القبائلي ويواجه هذه التدخلات التي أضحت تتعامل بآليات جديدة ومبتكرة، ولعل هذه الأبعاد التي تركز عليها الجماعات القبائلية هي التي دفعت «رواد الإصلاح والحركة الوطنية في المغرب الكبير على تبني البعد الأمازيغي في دفاعهم عن الهوية المغاربية المنتمية إلى الحضارة العربية الإسلامية، وكان ذلك ورقة رابحة في أيدي رواد الحركات الاستقلالية المغاربية في مقارعتهم للاستعمار»¹.

ف نجد أن هذه البنيات الذهنية التي امتزجت فيما بينها وصنعت توجهات متعددة لأفرادها، وهذه الشخصية القبائلية المنغلقة على ذاتها والمنفتحة بشكل اعتباطي على الآخر للضرورات القسوى، وتلك الحاجة التي تتغلغل في كل بيت وحي وشارع، (خلال زمن السرد) جعلتنا نكشف عن ذلك الخوف في رواية «نجل الفقير» الذي ترسّب من خلال الانغلاق الذي كان يعيشه فوغولو في حالات من الفقر والضياع، لكنه ورغم ذلك حاول أن يزرع نوعا من الثقة داخله من خلال بعث الرغبة والطموح، وإنتاج نبوة التحدي، ذلك الذي مكنه من تعلّم اللغة الفرنسية كي يجابه بها كل عرقلة ما تحيده عن الطريق، وكي يقول للمستعمر إنه يستطيع أن يتكلم لغته كي يعبر عن رفضه لمعالم الاستعمار الفاسدة، وهنا وتجاوزوا (Dépassement) لوضعية الوعي الممكن كوضعية مضادة (Les oppositions) في الفكر الجدلي، يمكن القول إن تعلّمه ذلك كان فرصة لاكتشاف عالم آخر لم تكن تحتويه الجماعة، وهو عالم متعدد لا تترسب داخله ثقافة فرنسية أو جزائرية فحسب، بل هي ثقافة الإنسان في مقابل الإنسانية، هذه الثقافة التي لا يصل إليها من هو في مثل مجتمعه إلا إذا سار في طريق الخوف، هذا الهاجس الذي لا يفلت منه الكثير، وهو العبارة التي ختم بها الأب

¹ - محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، المرجع السابق، ص 110.

حديثه مع ابنه «نعم قل لهم، هناك فوق، إني لست خائفا»¹، وفي مسار الكلية يمكن القول أيضا إن تلك الجماعة لم تقف عند حدودها الاجتماعية المتوارثة، بل أبرزت خاصة بعد الاستقلال أوجها واضحة لخصوصية التجاوز، فقد أنتجت أصواتا نخبوية أبدعت فكرا وأدبا.

لقد انتبه ذلك المجتمع الصغير لضرورة التعليم، وعرف فوغولو من خلاله أهمية تعلم اللغة الفرنسية، لمجابهة خطر يحيل الكثيرين إلى آلات تابعة لتلك الهوية الوافدة، من جهة ولصنع شخصية متعددة من جهة أخرى، لقد جاهد الاستعمار من أجل الوصول إلى تفكيك مقومات هذه الجماعات الأمازيغية ماديا ومعنويا، بمحاولات جادة في رفع مستوى الهدم الهوياتي من خلال رفع مستوى المؤسسات الفاعلة في ذلك، وخلق منافس قوي من خلال اللغة الفرنسية التي سادت آنذاك بقوة، ومن خلال مؤسسات فكرية موازية تقترب من الدين لغة وممارسة وتحاول تشويبه بكل السبل، ورغم ذلك فكل تلك المحاولات لم ينجح منها ما يهدم الأصول الأمازيغية لغة وتاريخا مدونا ومنحوتا على الصخور، فالهوية الأمازيغية «تكونت في علاقتها الجدلية لكل مكوناتها ومميزاتها مما أعطي لها الصمود والاستمرارية، الهويات الزائفة تنقرض لأنها تقوم على الأوهام ولا يبقى إلا الأصل والأصيل، فالثقافة الأمازيغية، ثقافة متسامحة منفتحة على الآخر وعلى التعدد، والذات الأمازيغية وعاء يجمع الكل»².

ولم يكن الأب كصورة نمطية خارج قناة التواصل مع ابنه فوغولو، كوحدة منسجمة من وحدات التفكير، بل حوّل أي فشل قد يلامس فضاء الطفل إلى قوة، حين زرع داخله نمطا جديدا من أنماط قراءة الوقائع والأحداث، من خلال قناة مازالت توصل

¹ - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 162.

² - كوسلا ابشن: الهوية الأمازيغية لشمال افريقيا، موقع الحوار المتمدن، ع2725، اطلع عليه بتاريخ: 02-04-

<http://www.ahewar.org:2017>

الابن إلى أبيه، وتنمي داخله الثقة بالنفس، ذلك أنه في مثل هذه المجتمعات يظل الأبناء «مربوطين بسلطة أبوية الشكل، بحيث أنه يبقون في ظل الكبار على الصعيد السياسي كما على الصعيد العاطفي والعقلي»¹، هذا ما يؤكد خصوصية فوغولو في علاقته مع أبيه، بل ويؤكد أن فوغولو هو الفتى المتعدد والمتمرد الذي لا تخضعه العراقيل، لذلك قال له والده «إن أخفقت، فعد إلى المنزل متأكداً من صادق محبتنا لك»²، وكان فوغولو واعيا ومدركا بشكل جيد هذه الخصوصية حين اعتبر نفسه خارج سياق رفاقه، متجاهلا أي عرقلة تبعده عن مساره الصحيح، «كان يدرك وهو في السادسة عشر من عمره أنه يراهن بمستقبله على نظريات الهندسة ومعادلات الجبر، في حين كان رفاقه يهتمون خاصة بزينتهم ويفكرون في الفتيات»³، ومن هنا تتضح صياغة المجتمع لعوامل التعليم في بعدها الشكلي حين يكون الهدف اجتماعيا مجرد قيمة تظهر على من يملك ولدا دارسا في تلك الأسر، وتجاوزا لذلك يمكن القول إن فوغولو كان فعليا هو الطفل المتعدد الذي يستثمر وجه العالم في شكله ويعيد إنتاجه في الداخل ضمن معنى مختلف.

أما في رواية «الأرض والدم»، فنقف عند وتيرة عامة تتجلى في مجتمعات عديدة، إلا أن الخصوصية في هذه المنطقة أنها معزولة بكل أشكال العزلة المادية والنفسية، فقد كانت هذه القرية «تعيش في كبد، وسط عزلة ثقافية تامة. فبين الجدّ الرمزي، علي نايت حمّوش، الذي يقرأ في سجل الأرض والهواء والمناخ، ليقدم الوصفات الفلاحية الملائمة، وبين العائلات التي بقيت تنتسب بالأرض بما وجدت، أو

¹ - هشام شرابي: مقدمات لدراسة المجتمع العربي، دار المتحدة للنشر، ب ط، بيروت (لبنان) 1984، ص 64.

² - مولود فرعون: نجل الفقير، المصدر السابق، ص 162.

³ - المصدر نفسه، ص 157.

بعبارة أخرى بين مرجعية أصلية مسلوقة، ومرجعية بديلة سالبة. كان على القرية أن "تدبر أحوالها" بالمعطيات الثقافية المتوفرة لديها، أو بما تبقى منها»¹.

فيكون مجمل هذه الشخصيات في نطاق يصنع تحرك الأبطال في صراع دائم ومتواصل، يوحي باستمرار تلك التناقضات التي تكونت داخل القرية وتحكمت في زمام الأمور، فكل تطلع للغد مجذوب نحو مجهول تفعله قيم سلبية وإيجابية داخل نظام قبلي يتفكك شيئاً فشيئاً تحت سلطة استعمارية لا تراها واضحة بقدر ما تتغلل مع الهواء في هدوء وطمأنينة.

ولذلك نجد شخصية عامر مثلاً حين عودته إلى القرية، قد حمل معه تغييراً في الوعي، هذا التغيير الذي قد يجعله متهوراً لدرجة الجنون، ويجعله يتبع بريق قلبه فقط، بين الأرض والحب، وبين التراب والجمال، فلم يعد ذلك الفلاح الذي كانه، حدث لديه تغيير في وعيه وتغيرت حتى طبيعته نفسها.

وفي رواية «الدروب الصاعدة»، يتجلى ذلك الصراع بشكل واضح، ويتأكد لدى "ذهبية" في مجالها المتحرك والساكن في الوقت نفسه، داخل الحيز الزمني والمكاني، وتفسيرها لحدود الاختلاف بينها وبين جماعتها، إنها تمارس وعيها الممكن من خلال الصدمات التي تتلقاها داخل هذه الفئات الاجتماعية، وتمارس طقوسها بعيداً عن مسار تلك الجماعة، وتجاوزاً تقف في برجها وتستمر في سقي أفكارها وإن خالفت كل ذلك المجتمع.

إنها تتجاوز ذلك الواقع بحرفيته، إذ ترى من تحبه مختلفاً كل الاختلاف عن سواه، «لا والله هذا غير صحيح، إذ لا يستوي الرجال، بل حتى النساء. قد تجد بين الواحدة منهن والأخرى فرقا كبيراً»²، لكن الصراع يعود إليها حين ترى في شخصيات

¹ - مولود فرعون: الأرض والدم، المصدر السابق، المقدمة، ص 05.

² - مولود فرعون: الدروب الوعة، المصدر السابق، ص 116.

تحوط بها مجرد خيالات جاءت لتمزيق أحلامها وإفساد حياتها، «وخيل إليها أن مفران وويزة وعامر قد تحوّلوا إلى أشباح واختفوا في الظلام ليعذبوها»¹، هذا الصراع الذي لازم "ذهبية" وقتا طويلا، لكنها أدركت كل ما حدث في لحظة ما حينما استحضرت تلك الأحداث المتناقضة التي دفعتها بعيدا عنها. وتجاوزا تجد في شخصية "ذهبية" تفاصيل ذلك المجتمع وتلك الفئة الاجتماعية، تمرّ بها من مكان إلى آخر، ومن خاطرة إلى أخرى، ومن طريق إلى طريق، تتفقد فيها ذلك التغير الذي يستشرفه البعض المنفلت من زمام الجماعة التقليدية.

ومن خلال تقاطع الشخصية المحورية مع الأحداث، هذا التقاطع الذي نجح فيه الكاتب كي نترصد ذلك الارتباط بين وقائعية الروايات والشخصية، بحيث لم تصور الشخصية الإشكاليه ذلك الفشل السلبي الذي قد تحمله زمرة من الروايات التي لا معنى لها، بل حاولت أن تقف في مفترق الطرق، وأن ترسم ظللا أخرى تباغت المتلقي وتجعله ينتبه للمسات الكاتب التي تضمنها نصه، بحيث حملت شخصيات إيجابيه لها قيم أصيلة، ويمكن أن نستشف ذلك من خلال ثلاث نماذج: الشخصية الراضية، الشخصية المستسلمة، الشخصية المتحولة، إلا أن أهم شخصية يحدد ملامحها الكاتب هي الشخصية التي تلعب دورا هادفا، أي لها غرض من حضورها المتكرر، وفيها «يُحدد الدور الاجتماعي الثقافي النفسي للشخصية»². بحيث تتجلى فيها الحركة وتبعث في دورها حيوية جادة وانسجاما مع تفاعل الشخصيات الأخرى في سياق النص واستمراريته.

¹ - مولود فرعون: الدروب الوعة، المصدر السابق، ص 117.

² - مجموعة من المؤلفين: معجم السرديات، المرجع السابق، ص 271.

4-3 ملامح الرؤية للعالم في الروايات الثلاث

إذا كانت الرؤية للعالم هي المجال الأوسع الذي يحتوي كل الدلالات المنهجية الأخرى، فإننا قد شكلنا قراءتنا لهذه الرؤية من خلال بعدين هامين (الفهم والتفسير)، الفهم وما يتضمن من وقائع الوعي القائم ومكوناته الاجتماعية، والتفسير وما يتضمن من وضعيات مضادة في الوعي الممكن، وما يحققه مفهوم التجاوز، من أجل تجاوز تلك الوضعيات بكل أبعادها، فالوعي الممكن نجده منسجما مع التغييرات التي تستدركها الجماعة حين تصل قمة تلاؤمها بواقعها في مواجهة تلك المشكلات ومحاولة تغييرها. وهنا «يؤكد لوسيان غولدمان على مبدئين أولهما هو تبيين نوع العلاقة الموجودة بين الفكر والواقع، وثانيهما أن للفكر موقعه الطبقي في المجتمع، وهذا ما يجعل النص يحمل رؤية للعالم، يتوجه النقد في تحليله للكشف عنها، وبذلك يصبح من مهمة الناقد البحث عن هذه العلاقة بين النص والواقع الاجتماعي، ثم تحديد الموقع الفكري الذي تنهض منه هذه العلاقة»¹.

ومن خلال كل ما سبق من تحليل لروايات مولود فرعون التي تمضي في خط سردي مستمر، يحدد مناطق العمق السردي لديه، ويكشف عن خصوصيته الإبداعية التي تجمعت في سياق القيم الاجتماعية والتاريخية والنفسية لهذه الروايات الثلاث، اتضحت بنية الانسجام بين هذه الأعمال من خلال اللغة والدلالة والنسق الفكري الذي يؤثت لرؤية منسجمة تغلغت في عمق تفاصيل هذا السرد، رؤية لهذا الواقع بكل مآسيه وسلبياته، ممتزجا بما يخلق تلك المآسي التي يواجهها الأفراد، تلك الإيديولوجيات الخافقة التي تتسلل شيئا فشيئا يضحها الفكر الاستعماري ماديا ومعنويا مستغلا ومستلبا ومتسلطا على الأهل والتراب.

¹ - بشير تارويرت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي، المرجع السابق، ص ص 42،43.

ومن هنا تأتي تلك الرغبة في التغيير، سواء حققت مرادها أم لم تحقق ذلك، وسواء نجحت في التحليق أم ظلت أسيرة الطموح حتى الموت، فيتغيّر البطل الإشكالي من رواية إلى أخرى، فهناك الطامح إلى تغيير واقعه المأساوي، وهناك الباحث عن مجال أكثر اتساعاً في هذه الحياة، لكنه يتفاجأ باختياراته الخاطئة فتلقي به إلى الموت، وهناك من يفضل المكوث في الصراع، على أنهم يجتمعون في محاولات تتجاوز الإيديولوجيات القائمة، وتعمّر الفراغات بما يتناسب مع تطور الوعي لديهم، وبلوغ الدرجة العليا من التلاؤم مع هذا الواقع وفهم تفاصيله بنظرة مختلفة، وهذا ما جعل الكاتب واعياً بمجال كتابته الإبداعية اجتماعياً وسياسياً داخل عمقٍ إبداعي وجمالي يحقق نظريته في مسح ذلك الواقع المأساوي، لتأتي الرؤية للعالم من خلال الروايات الثلاث تستقرأ هذا الواقع وتحلل مجالاته وتتغلغل في إبراز بنياته العميقة، الرؤية من الداخل دون أقنعة تتستر عن كل تلك السلبيات، ومهما كان فإن رواية «نجل الفقير» رغم اشتراكها في المكان مع الروايات الأخرى، إلا أنها أكثر عمقا وانفتاحا على هذه العوالم، في مقابل رواية «الأرض والدم» و«الدروب الصاعدة» فهما داخل نسق واحد يسهم في تأنيث تلك الرؤية ويضيف لها مسارا آخر.

إننا نجد الكاتب الفاعل هو الذي يمزج ما يريد الحديث عنه في صورة تضع علاقة بين أدواته الإبداعية وبين ما يريد أن يمرره للمجتمع من تحولات، وهنا نقف عند أهمية إدراك هذا الواقع وقراءته القراءة الإيجابية من خلال استثمار سلبياته كلها لخلق وعي مختلف، هذا الوعي الذي قد لا يكون الكاتب واعياً بأقصى درجاته.

لقد اشتمل مفهوم الرؤية للعالم في الروايات محل الدراسة على "كلية" تجعل الجماعة مدركة لواقعها تحت ركام الاستعمار، وتجعلها متيقضة لدلالة الفقر بكل مظهراته، مما يتضح لدينا أثر الصراع الاجتماعي المتنامي، والخيبة البارزة بين علاقات متشابكة، كل ذلك في ظل حكم استبدادي لا يرحم، حكم يجعل رجال الفئات

الاجتماعية تمارس الغربية في أقسى صورها من أجل لقمة العيش، في محاولة للهروب من المجاعة والعودة بما يسد الرمق، أعمال تمتهن إنسانية الإنسان وتستغل فيه كل نفس قادر على الحياة، لتكون هذه الأعمال محلّ كشف لتلك الحياة بكل منعرجاتها الصعبة والصاعدة والشاقة، في مسار يُظهر ملامح الإيديولوجية الجماعية/الذكورية/المتوارثة، وهي تتطرق بخصوصيتها سواء كانت سلبية أو إيجابية، لتظهر الرؤية للعالم في كتابات مولود فرعون وهي تستقرأ هذا الواقع المجتمعي في ثوبه التقليدي البسيط، من خلال تأصيل لقيم سوسيوثقافية تجسد ثنائيات الصراع الاجتماعي، بين الخير والشر، والحياة والموت، والجنون والعقل، مدققا في توصيف عميق للمجتمع، متوغلا في كل التفاصيل ما بين البيت والمدرسة والجامع والقرية والمدينة والشوارع والبنائيات والحقول إلى تداخل العلاقات الاجتماعية، بين الأخوة والبنوة والحب والبغض والذكرى وألم الغياب والجنس، ممتزجة داخل علاقات فكرية وسردية توضح بشكل جلي الرؤية للعالم بين واقع يحدد تفاصيله وأبعاده، وماض يلوح بظلاله على الإيديولوجيات القائمة ومستقبل يحاول أن يتغلل داخل وعي بعض الفئات من أجل واقع جديد مختلف.



الخطامة

ليس من السهل التوغل في عوالم الكاتب مولود فرعون عبر أعماله الروائية من خلال مقارنة للمنهج البنيوي التكويني، ولكن كان هذا التوغل حذرا جدا، باعتبار أن تطبيق البنيوية التكوينية ليس بالأمر الهين، وباعتبار أن الكثير من الدراسات تحوّل الدراسة عبر هذا المنهج إلى دراسة اجتماعية صرفة، لا تظهر فيها الرؤية للعالم إلا من خلال بعض المصطلحات، ولكي لا نعيد أو نكرر ما جاءت به تلك الدراسات ارتأينا أن نجانب سياقها وأن نمهج البحث في هذا البعد وفي جانبه التطبيقي حسبما تكشّفت به لنا أدوات هذا المنهج، لكي نعبر بشكل مختلف عن دواخل هذه الفئات الاجتماعية محل الدراسة.

وعليه سنحاول تقديم المبررات النقدية في إطار البنيوية التكوينية من خلال الإشكالات التي انطلقت منها هذه الدراسة، وهي: كيف نصل إلى أبعاد بنية وتكوّن هذه الفئات الاجتماعية المندرجة ضمن نسق هذه الروايات في مقارنة بنيوية تكوينية؟، وهل تمكنت الدراسة من الدخول إلى عوالم الأعمال المقترحة من خلال هذا المنهج وتوظيف أدواته الإجرائية في محاولة لاستدعاء البعد التطبيقي الذي لا يخرج عن أهداف المنهج حرفيا؟

لذلك قدمنا في هذا البُعد بابا تطبيقيا، تضمن عبر فصلين هامين مجال وحركة الفئات الاجتماعية من خلال السياق التاريخي أولا وما يحيط به من تحوّلات، ثم البعد الاجتماعي الخاص بدلالات تكوّن تلك الفئات، كما تناولنا المقولات والأدوات الإجرائية بمنهجية تطبيقية، وتطرقنا إلى تمظهرات "الفهم"، من خلال مستويات الوعي القائم، هذا الوعي الذي يجسد حقيقة الفئات الاجتماعية وواقعها التكويني، ثم أبعاد مصطلح

"التفسير" من خلال مستوى الوعي الممكن الذي يمثل قمة وعي الفئة الاجتماعية بواقعها، باعتباره وعي يتموضع في مستوى أعلى من الوعي القائم، منتبهين لضرورة توطین فاعلية الوضعيات والوضعيات المضادة التي تقف على بُعد يعطي لتلك الحركة في نطاق الوعي الممكن تجاوزا لهذا الوعي، هذا التجاوز الذي نجده لدى لوسيان غولدمان في تصورات المنهجية ضمن كلية أشمل، وعليه نستكشف معالم الرؤية للعالم في روايات مولود فرعون، هذه الرؤية التي تعطي خلفيات هامة في متابعة الفئات الاجتماعية التي تختلف وتتعارض مع مجموعات أخرى.

ومن هنا ونحن نتبعنا لهذا المنهج من خلال أدواته الإجرائية خلصنا إلى قيمة تلك الأدوات في إعادة بناء رؤية مختلفة لأعماله، متجاوزين الأحكام المباشرة والسطحية ومتوغلين في تتبع حركة تطور الفعل الإبداعي في نسقه الاجتماعي والنفسي والتاريخي، مستكشفين تلك العوالم من خلال آليتي الفهم والتفسير، فـنـمـوذج "منراد" في رواية "نجل الفقير" ليس نموذجا فرديا بقدر ما هو بنية اجتماعية تفاعلية تقف على بعث فضاءات مختلفة في سياق ونسق تطور هذه الشخصية، باعتبار أن الشخصيات الأخرى هي أصوات متعددة لها أثرها في مسار البطل الإشكالي، ونموذج عامر أوقاسي في رواية "الأرض والدم" هو متعدد يخلق فضاء النمطي والمتداول في حقيقة الأفراد المنتمين إلى تلك الجماعة، ونموذج "ذهبية وعامر" في رواية "الدروب الصاعدة" هو تفعيل لدور الجماعة في تغيير تلك الأنماط والنماذج والظروف.

ولذلك فقد انبنت روايات مولود فرعون محل الدراسة على بعد اجتماعي في سياق نفسي وتاريخي هام، وجسدت عبر فصولها تحولات معتبرة للمجتمع الجزائري، وخاصة المجتمع القبائلي الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من الشخصية الجزائرية، بحيث ساهم هذا المجتمع في بعث روح التنوع والاختلاف، وهناك توغل الكاتب الجزائري مولود فرعون في رصد معالم هذه الجماعات، وتتبع حركتها في مراحل مختلفة، أي ما بين الحربين

العالميتين إلى غاية ما قبيل الاستقلال، وبذلك تكون هذه الأعمال الأدبية محاولة جادة لتوثيق مجريات اجتماعية لا تنفصل عن بعدها التاريخي وأبعادها النفسية، تكون أرشيفا تعتدّ به الذاكرة الجماعية، وسبيلا نحو تحديد مواقف هامة تؤثر في نقد ما كانت عليه تلك الوقائع، وتسهم في تحديد تلك البنية التي نسجت وفق تمظهراتها رؤية شاملة تحتوي كل ما هو منسجم وما هو متناقض وما هو في صراع مستمر ومتواصل.

وعلى هذا الأساس كانت هذه العوالم حسب الرؤية الغولدمانية تقف على أبعادها التكوينية من خلال قراءة متفحصة لعمق تلك الأحداث وعلاقتها بالأرض والإنسان، هذه الرؤية للعالم تجسدت في عدة محاور هامة منها:

- نمطية الوعي القائم بين الفئات الاجتماعية (ثاجمات).
 - حركة الوعي الممكن داخل تطلعات الفئات الاجتماعية (الشخصيات والأصوات الفاعلة)
 - انبعاث التجاوز داخل تحولات الشخصية لدى بعض الفئات الاجتماعية. (منراد في طريق تحولاته، وذهبية بين علاقاتها الذهنية والاجتماعية) مثلا.
- وعليه فقد كانت هذه الدراسة تستقطب هذه التحولات من خلال دراسة واقعها بحرفيته ثم تجاوز ذلك الواقع عن طريق الوعي الممكن إلى وضعيات مضادة استظهرنا أجزاءها في تحليلنا لمختلف التحولات التي لمست شخصيات الأبطال في الرويات الثلاث، خاصة ما جاء في رواية «نجل الفقير».

فإذا كان الوعي القائم هو ما ترسب لدى الجماعة من تراث يعاد إنتاجه وفقا لظروف معينة، هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي تساهم في بلورة هذا الواقع متماشيا مع كل تلك الموروثات الماضية، وإذا كان الوعي الممكن هو الوعي المختلف أو الوضعية المضادة في الفكر الجدلي التي تحاول أن تكسر بعض القيم الموروثة بإعادة إنتاجها وفقا لطموحات الجماعة فتحاول أن تغير في بنيتها، فإن

شمولية الرؤية نتجت في ذلك التجاوز الكلي الذي يستثمر كل الأجزاء من أجل فهم العلاقات المتبانية ورسم خارطتها وتفسيرها بشكل أوسع.

لذلك فإن بنية الروايات الثلاث في نطاقها السردي اتجهت وتضمنت بنية دلالية حققت ذلك التناسق بين بنياتها الصغرى والكبرى، وحققت انسجاما دلاليا بين عناصرها المشكلة لها سواء كانت عناصر لغوية أو فنية أو تركيبية أو دلالية، ومن هنا فقد شكلت البنية الدلالية في تناولنا للثلاثية الروائية خطأ مستقيما يخترق جميع المراحل التي مرت بها الوقائع والأحداث، فالفقر حقق دلالاته خاصة في رواية «نجل الفقير» من جهة التناول المباشر الذي تجسد عبر مسار كل محطات الرواية، وشق طريقا دلاليا في رواية «الأرض والدم»، حيث تحقق في سياق الأحداث التي تحوّل وقائعها إلى المعنى الذي يجسد تلك الدلالة، أما في رواية «الدروب الصاعدة» فهي دروب تحقق دلالة الفقر في مجاله المكاني وعبر شخصيات الرواية، هذه الأصوات التي تستنطقها البنيوية التكوينية وتخرجها من زوايا الهامش، وعلى هذا الأساس يمكن القول «إن الرواية ليست تجسيدا للواقع فحسب، ولكنها فوق ذلك موقف من هذا الواقع. وهذا الموقف لا يمكن أن يتخذ إلا بإعادة إنتاج هذا الصراع الواقعي والإيديولوجي في النص. غير أن إعادة إنتاج هذا الصراع ليست هي الأساس في الرواية»¹، وبالتالي فإنها «تعبير عن رؤية العالم، وهي رؤية تتكون داخل جماعة أو طبقة معينة في احتكاكها بالواقع، وصراعها مع الجماعات الأخرى»².

ومن خلال جملة الإشكالات المطروحة، يمكن أن نصل من خلال تطبيقات مفهوم

الرؤية للعالم باعتبار أن مختلف الأدوات الإجرائية تعمل للوصول إليه، نخلص إلى:

¹ - حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، المرجع السابق، ص 51.

² - المرجع نفسه، ص 66.

- أن التنوع الصوتي والإيديولوجي القائم يتيح للشخصيات أن تتحرك في فضاء أكثر انفلاتا من سلطة الكاتب، إنه أحيانا يتيه في منحرجات تلك الشخصيات التي تقوده إلى مساحات مفروضة عليه.
- إن مصطلح الفهم كمادة إجرائية تتيح إدراك النص باعتباره بنية جمالية صغرى تقابل المجتمع كبنية ذهنية كبرى، فيمكن للمعرفة الخارجية أن تحقق التواصل لإنتاج شخصية ثالثة تستمد جذورها من عدة مواقع مختلفة.
- هناك عدة عوامل ومؤثرات تساعد في تشكيل الرؤية للعالم لكنها تبقى متغيرة ومتحولة.
- إن أهم الاكتشافات التي استنتقتها الكاتب هي شخصية "فوغولو" ، داخل عالم معقد ومتشابك، انتهج فيه فوغولو خطا مختلفا لما توقعه والده، فحصل على المبتغى الذي كان يطمح إليه، مع أن والده يعلم يقينا أن الخسارة لا يجب أن تضع أثرها على ابنه الفقير، وبهذا الملخص لقيمة ذلك الصراع الذاتي والاجتماعي يمكن القول إن الكاتب تخلص منه حين حاول رسم أجواء أخرى لشخصيات متعددة في أعماله الروائية المتتابعة بعيدا عن "الأنا" التي صنعت الاختلاف.
- محاولة المصالحة بين الطموح عند فوغولو والمجتمع، غير أن ذلك المجتمع لم يكن هو الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها فقط بل أيضا أثر المجتمع الاستعماري، لذلك أصبح الكاتب حين دخوله عالم القلم خطيرا على المجتمع الثاني، فجاءته التهديدات وعلم أنه سيكون فعليا شهيد الإبداع والخطاب الإنساني. لذلك نتج عن هذه القفزة الإبداعية في ظلمة الاستعمار اضطهادا غير من مسار الكاتب وأوضح مواقفه أكثر، خاصة في كتابه "اليوميات".

- إن العلاقات التي احتوتها أعمال مولود فرعون من جهة، والفئة الاجتماعية من جهة أخرى، والمجتمع الاستعماري من جهة ثالثة، هي وقائع فعلية وواقعية مؤكدة، بعيدا عن كون مولود فرعون كان واعيا بها أو لم يكن.

ولذلك تكون رؤية العالم هي الإفرازات الدقيقة والتفاصيل العميقة التي ينتجها المجتمع. وهي التي استتطقت مكامن الأعمال الروائية لتصل إلى ذلك التبادل الدلالي بين النص والكاتب والواقع والمأمول.

وفي الأخير فإن هذه الدراسة قد قدمت مختلف هذه النتائج من أجل الوصول إلى معرفة بنية وتكوّن الفئات الاجتماعية المندرجة ضمن نسق هذه الروايات في مقاربة بنيوية تكوينية، وتمكنت من الدخول إلى عوالم هذا المتن من خلال هذه المقاربة وتوظيف أدواتها الإجرائية عبر جلب هذه الأبعاد في بعدها التطبيقي الذي يتتبع مسار المنهج بحرفيته.

مصطلحات

Stylisation	أسلابة
Aliénation	استلاب
Dégradation	انحطاط
Cohérence	إنسجام
Réflexion	إنعكاس
Idéologie	إيديولوجيا
Anti-idéologie	إيديولوجيا مضادة
Héros	بطل
Héros problématique	بطل إشكالي
Structure	بنية
Structure significative	بنية دالة
Structuralisme génétique	بنوية تكوينية
Dépassement	تجاوز
Transformation	تحولات
Interrelation	تداخل العلاقات
Réification	تشيؤ
Concept	تصور
Polyphonie	تعدد صوتي
Explication	تفسير
Genèse	تكوين
Homologie	تماثل (تناظر)
Autoréglage	تنظيم ذاتي
Hybridation	تهجين
Dialectique	جدلي (ديالكتيك)
Histoire	حكاية
Dialogues purs	حوارات خالصة

Signification	دلالة
Sujet	ذات
Sujet-transindividual	ذات عبر فردية
Anti-sujet	ذات مضادة
Roman	رواية
Roman historique	رواية تاريخية
Roman pédagogique	رواية تربوية
Vision du monde	رؤية العالم
Socio-structural	سوسيوبنائي
Contexte	سياق
Personnage	شخصية
Voix	صوت
Conflit idéologique	صراع إيديولوجي
Non conscient	ضد الوعي
Classe	طبقة
Carnaval	كرنفال
Totalité	كلية
Inconscient	لا وعي
Inconscient à sujet individual	لا وعي الذات الفردية
Groupe social	مجموعة اجتماعية
Epopée	ملحمة
Compréhension	فهم
Système	نسق
Critique romanesque	نقد روائي
Type narratif	نمط سردي
Herméneutique	هرمنيوطيقا (التأويل، الفهم)
Position	وضعية
Opposition	وضعية مضادة

Conscience	وعي
Conscience collective	وعي جماعي
Conscience de classe	وعي طبقي
Conscience réelle	وعي قائم

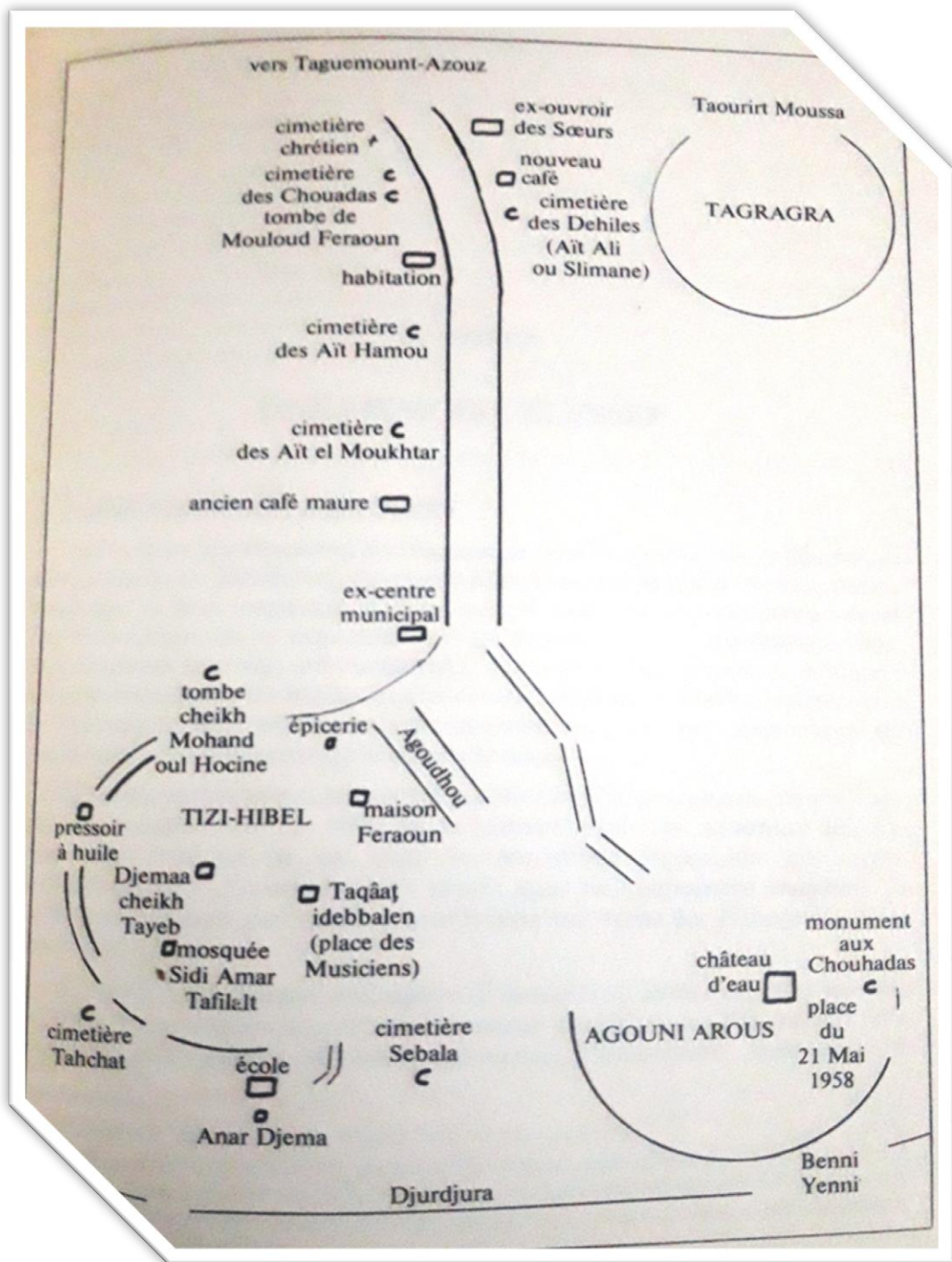
ملحق وثائق وصور





L'entrée de Tizi Hibel.¹

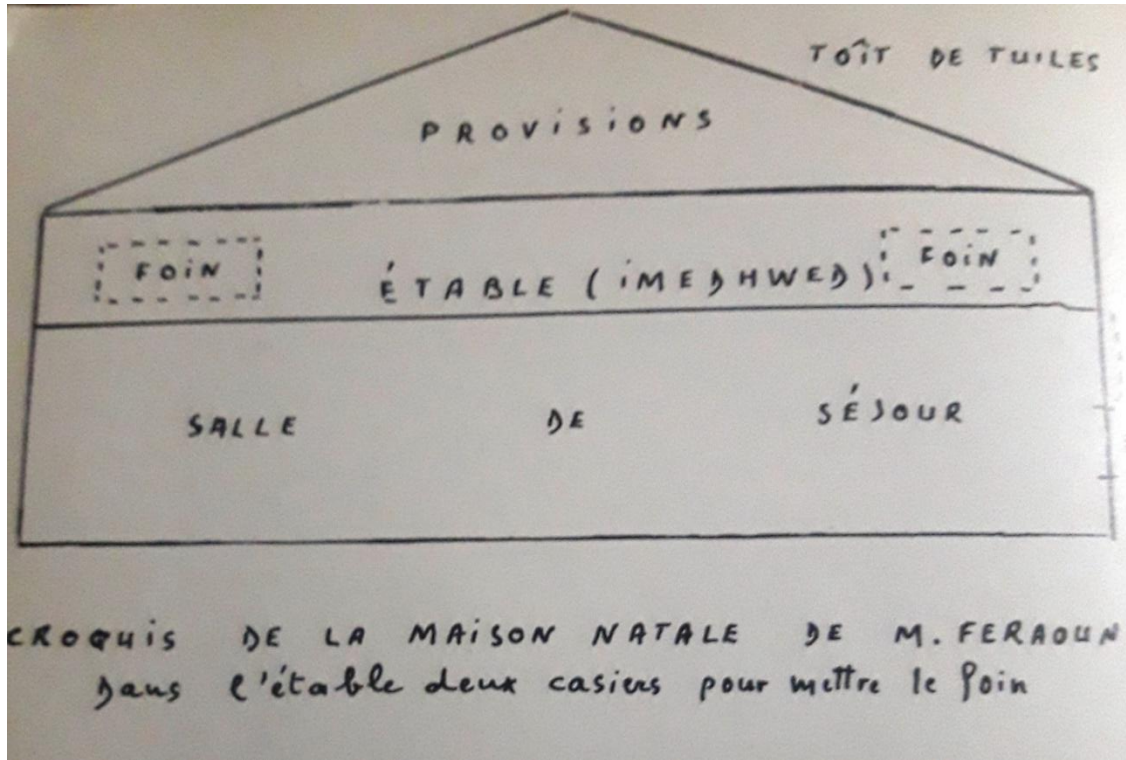
¹ – Notre visite le 21-07-2017 (Tizi-Hibel).



T

Tizi-Hibel et ses trois hameux¹

¹ - Wadi Bouzar, *op. cit.*, p. 175.



Croquis de la maison natale de M. Feraoun¹

¹ – Wadi Bouzar, *op. cit.*, p. 310.

Document n° 1

cile à atteindre, il lui faut des qualités de cœur et des qualités d'esprit. Il lui faut beaucoup de science et beaucoup d'honnêteté, parce que les honnêtes gens peuvent lui faire crédit ; ce serait cruel de les tromper et triste de se tromper.

Voilà pourquoi, Messieurs, j'éprouve une certaine crainte, une grande crainte à m'engager résolument dans la voie où vous avez daigné marquer ma petite place.

Si pourtant je parvenais à m'exprimer encore, soyez assurés que je le ferais en toute sincérité, avec mon cœur de fils de pauvre et mon bon sens de maître d'école.

Quoi qu'il en soit, j'aimerais vous redire ma fierté, ma joie et mon émotion. Le lauréat, Messieurs, n'est pas l'instituteur du bled qui a retenu vos suffrages, mais l'École française d'Algérie dont il est un produit authentique. Et c'est en son nom que je vous remercie.

Document n° 2

Discours de Mouloud Faraoun lors de la remise du prix de la ville d'Alger le 5 avril 1952

Monsieur le Maire,
Monsieur le Président du Jury,
Messieurs les Membres du Jury,
Mesdames et Messieurs,

Je ne saurais dire à quel point je suis heureux d'avoir obtenu le prix de littérature française décerné par la ville d'Alger en décembre dernier.

J'en suis heureux et j'en suis fier pour plusieurs raisons.

C'est d'abord en hommage à tous ceux qui me firent la classe, depuis mon vénéré maître de l'École primaire qui fit de moi un boursier, jusqu'à mes professeurs d'École Normale qui m'apprirent beaucoup de choses, certes. Ces choses que l'on se hâte d'oublier après les examens. Mais de ces Maîtres, ce que chacun de nous ne saurait perdre, c'est le souvenir de leur droiture et de leur compétence. Ils surent donner à leurs élèves l'image exacte de l'éducateur, l'envie de leur ressembler et la crainte de ne pas y parvenir.

Votre choix est aussi un hommage à mon vieux père ignorant et pauvre. Son mérite est bien grand de m'avoir fait confiance, d'avoir eu confiance en l'école. Il s'est passé de moi au moment où je pouvais l'aider et qu'il en avait besoin. Il fut récompensé comme le sont toujours les gens simples qui ont foi.

Il ignore que j'ai écrit un livre. Si on le lui expliquait il trouverait cela tout naturel. Comment s'en étonnerait-il du moment que j'enseigne à lire ? Ne m'a-t-il pas fait atteindre le sommet ? N'a-t-il pas refusé, il y a vingt ans, de faire de moi un berger comme le lui conseillaient les gens sensés ?

Votre choix enfin est un hommage à l'École primaire puisque l'un de ses enfants, l'un des plus humbles sans doute, et qui n'a appris le français que sur ses bancs, est reconnu digne aujourd'hui de recevoir un prix littéraire. Un prix décerné par un Jury compétent : le Jury de la capitale africaine.

Je mesure toute la portée de cette distinction, Messieurs. J'avais osé espérer, je l'avoue, un tel succès, car l'espoir n'a pas de limites. Mais je n'y croyais pas trop. Me voilà aujourd'hui couronné. L'honneur est grand et redoutable. Je n'avais fait que raconter mon histoire. Travail facile malgré tout, puisque je n'avais qu'à m'adresser à ma mémoire et à mon cœur.

Or, la tâche d'un écrivain n'est pas de raconter sa vie, mais bien de dire ce qu'il sent, ce qu'il voit, ce qu'il pense. Pour tendre vers l'humaine vérité si diffi-

Discours de Mouloud Feraoun lors de la remise du
Prix de la ville d'Alger pour son roman *Le fils du pauvre*

¹ – Rachida Saadouni, *op. cit.*, p. 664.

Taouirt-Moussa, le 27 mai 1951

Moukoud FERAOUN, Taouirt-Moussa par Beni-Douala Alger
Monsieur Albert CAMUS.

Cher monsieur.

Je viens de recevoir ici, à Taouirt-Moussa, la visite de mon ami Robles. Il m'a dit tout le bien que vous pensez de mon petit ouvrage et m'a donné votre adresse que je désirais connaître depuis longtemps. L'hiver dernier j'avais demandé à Pierre Martyr, du S.P.I de vous faire parvenir un exemplaire du fil du passé. Lui aussi pouvait me communiquer votre adresse mais je n'avais pas osé vous écrire.

Je suis très heureux d'avoir réussi à vous rencontrer parce que je vous connais depuis longtemps. Je vous ai vu en 1937 à Tizi-Ouzou. Nous étions alors très jeunes. Vous écrivez des articles sur nous le Kabylie dans "Alger Républicain" qui était notre journal. Puis j'ai lu le Peste et j'ai eu l'impression d'avoir compris votre livre comme je n'en avais jamais compris d'autres. J'avais regretté que parmi tous ces personnages il n'y eût aucun indigène et si bien ne soit à vos yeux qu'une banale prefecture française. Oh! Ce n'est pas un reproche. J'ai pensé simplement que si n'y avait pas ces choses entre nous, vous nous auriez mieux connus, vous vous seriez senti capable de parler de nous avec la même générosité dont bénéficiez tous les autres. Je regrette toujours de tout moi-même, que vous ne nous connaissiez pas suffisamment et que nous n'ayons personne pour nous comprendre, nous faire comprendre et nous dire à nous

Lettre de Feraoun à Camus¹

¹ – José Lenzini, *op. cit.*, p. 379.



L'entrée à gauche du pressoir à huile de Tizi-hibel¹

¹ – Wadi Bouzar, *op. cit.*, p. 309.



L'ancien café maure¹

¹ – Wadi Bouzar , *op. cit.*, p. 311.



1954, Conseil municipal de Fort-National¹

¹ – José Lenzini, *op. cit.*, p. 182.



Mouloud Feraoun et son épouse¹.

¹ – José Lenzini, *op. cit.*, p. 196.



La tombe de Mouloud Feraoun.¹



¹ – Notre visite le 21-07-2017 (Tizi-Hibel)



La tombe de Dahbia.¹



¹ – Notre visite en 21-07-2017 (Tizi-Hibel).



Mouloud Feraoun, avec son fils Mokrane,
à l'entrée de l'école Fort-National dont il est directeur¹.

¹ – José Lenzini, *op. cit.*, p. 205.

aperçue qui se prosternent devant un Dieu sévère. Il est est à l'ouest, partout
 des collines, des montagnes, des profondes vallées profondes, étroites où se
 serrent des rivières qui vont se rejoindre là bas dans la plaine de
 Tizi-Ouzou qui n'est elle-même qu'un simple trait d'union entre les massifs
 nord et ceux du sud.

Un vrai visage de montagne, comme on n'en trouverait que dans les Pyrénées
 ou les Alpes. Ce paysage a des traits particuliers, liés à lui. Ce n'est ni le
 vert, ni le vert sombre qui ~~domine~~ ^{domine} courtise le fond du tableau. L'olivier
 domine, le grand olivier noueux au feuillage ballonné, bleu presque noir
 d'une côté vernissé, clair, presque blanc de l'autre. L'aspect change avec
 le ciel, selon les saisons ou selon les heures. Les rayons du soleil produisent
 des effets vraiment merveilleux par leur contraste. Ici le paysage ^{semble} ~~est~~ ^{est} ~~diminuant~~
 car le vernis des feuilles réfléchit la lumière, ce face là-bas l'ombre
 est si épaisse, le feuillage si touffu que l'on admet facilement que ceux qui
 s'y trouvent se croient encore à l'ombre.

Lorsqu'on examine les détails de ce tableau on s'aperçoit qu'il n'est pas
 uniforme. Aux alentours de chaque village, au sommet de chaque crête,
 le fond sombre de l'olivier disparaît et l'on voit alors le tapis vert
 tendre des orges, surmontés de panaches de frênes, de cerisiers ou de
 figuiers. Ce sont les vergers Kabyles, ceux auxquels nous avons
 gardé le nom latin d'horti. Et c'est précisément un horti que Fighzane
 où se trouvent ses nouveaux propriétaires. Le sentier abrupt est bordé de

Brouillon rédactionnel de *La Terre et le sang*, cahier 1/9, f16r¹

¹ – Karolina Resztak : ça alors ! Vous étiez à c..., vous ?, L'Écriture du lieu et du
 non-lieu dans les brouillons rédactionnels de *La Terre et le sang* de Mouloud
 Feraoun. Le 05-2015, consulté le : 04-04-2018 : <https://journals.openedition.org/coma/599>



Paysage des villages de Tizi-ouzou.¹

¹ – Notre visite le 21-07-2017 (Tizi-Hibel).



المصادر والمراجع

- 1- مولود فرعون: الأرض والدم، ترجمة: أحمد بن محمد بكلي، دار القصة للنشر، الجزائر 2012.
- 2- _____: الدروب الوعة، ترجمة: حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر 2012.
- 3- _____: نجل الفقير، ترجمة: محمد عجيبة، سراس للنشر، تونس 2013.

ثانياً: المراجع باللغة العربية

- 1- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس 1986.
- 2- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 1، دار البصائر، الجزائر 2007.
- 3- _____: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 3، دار البصائر، الجزائر 2007.
- 4- _____: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء 2، دار البصائر، الجزائر 2007.
- 3- أبو يعلى الزواوي: تاريخ الزواوة، منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، الجزائر 2005، ص 54.
- 4- أحمد البيبوري: دينامية النص الروائي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الطبعة الأولى، الرباط 1993.
- 5- أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الطبعة الأولى، الجزائر 1931.
- 6- أحمد سالم ولد اباه: البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية 2005.

- 7- أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار الساحل، الطبعة الأولى، الجزائر 2013.
- 8- _____: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007
- 9- أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، الجزائر 2005.
- 10- أسعد قطان: الهرمنيوطيقا الحديثة وفهم النص، ضمن كتاب "التأويل والهرمنيوطيقا"، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت 2011.
- 11- مصطفى شادلي: البنيوية في علوم اللغة، ترجمة: سعيد جبار، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة 2015
- 12- بسام العسلي: المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي، دار النفائس، الطبعة الثانية، بيروت 1986.
- 13- بشير تارويرت: محاضرات في مناهج النقد الأدبي، دار الفجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الجزائر 2006.
- 14- جابر عصفور: نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998.
- 15- اسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، الجزء 6، الطبعة الثانية، بيروت 1979.
- 16- السيد يسين: التحليل الاجتماعي للأدب، مكتبة مدبولي، القاهرة 1992.
- 17- حسن حنفي: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، مصر 2012.
- 18- حسن قيطوني: بلاد القبائل الحضرة عبر التاريخ، ت: عز الدين بوكحيل، دار القصبة للنشر، الطبعة الأولى، الجزائر 2015.

- 19- حفاوي بعلي: أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر 2004.
- 20- حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، ت: العربي الزبيري، وزارة الثقافة، الجزائر 2009.
- 21- حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، المغرب 1990.
- 22- _____: الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دراسة بنيوية تكوينية، دار الثقافة، المغرب 1985.
- 23- زكريا إبراهيم: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، القاهرة 1990.
- 24- سامر فاضل الأسدي: البنيوية وما بعدها النشأة والتقبل، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الأردن 2015.
- 25- سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت 1967.
- 26- سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت 1985.
- 27- سلوى السعداوي: الكذب الحقيقي من قال إنني لست أنا في إشكالية التخييل الذاتي، الدار التونسية للكتاب، الطبعة الأولى، تونس 2006.
- 28- سيد غيث: أشهر روايات الأدب العالمي الخالدة، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، الطبعة الأولى، مصر 2017.
- 29- صالح سليمان عبد العظيم: سوسيولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، مصر 1998.
- 30- طه حسين: نقد وإصلاح، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر 2013.

- 31- عادل مصطفى: فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة 2007.
- 32- عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، ديوان المطبوعات الجامعية، ترجمة محمد صقر، الجزائر 1982.
- 33- عايدة مطرجي إدريس، دار الآداب للنشر والتوزيع، د ط، بيروت (لبنان) 2013.
- 34- عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، عدد 44، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1998.
- 35- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أ.م. كاترمير، عن طبعة باريس 1858، مكتبة لبنان، الجزء الأول، بيروت 1992.
- 36- عبد العزيز حليلي: اللسانيات العامة واللسانيات العربية تعاريف أصوات، منشورات دراسات سال، الطبعة الأولى، المغرب 1991
- 37- عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت 1991.
- 38- عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت 2006.
- 39- عبد الله العروي: الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، المغرب 1995.
- 40- _____: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثامنة، المغرب 2012.
- 41- عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي: معرفة الآخر-مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة-، الطبعة الثانية، المغرب 1996.
- 42- عبد الله خضر حمد: مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، دار القلم للطباعة والنشر

- والتوزيع، بيروت لبنان. دت.
- 43- عبد الله ركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العربي، الجزائر 2009.
- 44- عبد الوهاب جعفر: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه، دار المعارف، الطبعة الأولى، الاسكندرية 1989.
- 45- عزيزة فوال بابتي: موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2009.
- 46- عمر بن قينة: دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
- 47- عمورة عمار: موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة، الطبعة الأولى، الجزائر 2002.
- 48- غالي شكري: ثورة المعتزل دراسة في أدب توفيق الحكيم، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثالثة، بيروت 1982.
- 49- فاروق عبد المعطي: أوجست كونت مؤسس علم الاجتماع الحديث، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 1993.
- 50- فايد محمد، سحنين علي: أبحاث في الرواية ونظرية السرد، تاكسيدج، الجزائر 2014.
- 51- فراس عباس البياتي: علم الاجتماع دراسة تحليلية للنشأة والتطور، دار غيداء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان الأردن 2011.
- 52- فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، المغرب 1999.
- 53- ليلي عنان: الواقعية في الأدب الفرنسي، دار المعارف، سلسلة كتابك 175، القاهرة 1984.
- 54- مبارك بن محمد الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب ودار الغرب الإسلامي، الجزء الأول، بيروت لبنان. دت.

- 55- مجموعة من المؤلفين: مولود قاسم نايت بلقاسم، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر 2013.
- 56- محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، (منشورات الاختلاف، كلمة للنشر والتوزيع، دار الأمان، منشورات ضفاف)، الطبعة الأولى، لبنان 2015.
- 57- محمد الطيب عقاب: حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، وزارة الثقافة، الجزائر 2007
- 58- محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر 2006.
- 59- محمد الصغير بناني: المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر 2001.
- 60- محمد جـلاوي: الشعر القبائلي التقليدي، دار ميمونة، الطبعة الأولى، الجزائر 2009.
- 61- محمد زغلزل سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة أصولها اتجاهاتها أعلامها، منشأة المعارف بالإسكندرية، القاهرة د ت.
- 62- محمد سـاري: الأدب والمجتمع، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر 2009.
- 63- محمد سليمان ياقوت: فقه اللغة وعلم اللغة نصوص ودراسات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية د ت
- 64- محمد عـزام: فضاء النص الروائي، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سوريا 1996.
- 65- _____: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، الطبعة الأولى، دمشق 2003
- 66- محمد عمـارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر للطباعة

- والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مصر 1999.
- 67- محمد نديم خشفة: تأصيل النص - المنهج البنوي لدى لوسيان غولدمان-، مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، سوريا 1997.
- 68- محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة العربية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، مصر 1991.
- 69- مولود بلقاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل سنة 1830، دار الأمة، الطبعة الثانية، الجزائر 2007.
- 70- ميجان الرويلي، سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، المغرب 2002.
- 71- نبيل راغب: المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1977.
- 72- هشام شرابي: مقدمات لدراسة المجتمع العربي، دار المتحدة للنشر، ب ط، بيروت (لبنان) 1984.
- 73- نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، د ت
- 74- يمنى العيد: في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثالثة، بيروت 1985.
- 75- يوسف الأنطكي: مقدمة كتاب "العلوم الإنسانية والفلسفة"، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثالثة، مصر 1996.
- 76- يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، رابطة إبداع الثقافية، الطبعة الأولى، الجزائر 2002.

ثالثاً: المراجع المترجمة

- 77- آدم كـوـبر: الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة تراحي فتحي، م: ليلي الموسوي، سلسلة عالم المعرفة كتاب 349، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2008.
- 78- ألبير كامو: الغريب، ترجمة عايدة مطرجي إدريس، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت (لبنان) 2013.
- 79- أليكس ميكشلي: الهوية، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط1، دمشق 1993.
- 80- أمارتيا صن: الهوية والعنف، ت: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة الكتاب 352، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2008.
- 81- أنتوني غدينز: علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الرابعة، بيروت لبنان 2001.
- 82- بليز باسكال: خواطر، ترجمة إدوار البستاني، مجموعة الروائع الإنسانية، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت (لبنان) 1972.
- 83- بول آرون وألان فيلا: سوسيولوجيا الأدب، ت: محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 2013.
- 84- بيار ف زيماء: النص والمجتمع آفاق علم اجتماع النقد، ت: انطوان أبو زيد، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت 2013.
- 85- _____: النقد الاجتماعي، ترجمة عايدة لطفي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة 1991
- 86- بيير بورديو: الرمز والسلطة، ت: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الطبعة الثالثة، المغرب 2007.
- 87- تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة خلاصة القرن العشرين، ت: نرمين العمري،

- منشورات العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض 2006
- 88- _____: ميخائيل باختين المبدأ الحوارى، ت: فخري صالح، دار رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة 2012.
- 89- جاك لينهارت: من أجل استيطيقا سوسيوولوجية محاولة لبناء استيطيقا لوسيان غولدمان، ترجمة أحمد المدني، ضمن كتاب "البنوية التكوينية والنقد الأدبي"، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثانية، لبنان 1986.
- 90- جان بول سارتر: عارنا في الجزائر، ترجمة عايدة وسهيل إدريس، الدار القومية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت 1975.
- 91- جان دوفينيو: غولدمان "رؤية العالم"، ت: حسن المنيعي، ضمن كتاب "البنوية التكوينية والنقد الأدبي"، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثانية، لبنان 1986.
- 92- جان راسين: مأساة طيبة أو الشقيقان فيدر، ت: أدونيس، سلسلة من المسرح العالمي، الكويت 1977
- 93- جون سكوت: خمسون عالما اجتماعيا أساسيا، ت: محمود محمد حلمي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، بيروت 2009.
- 94- جورج لختهايم: جورج لوكاتش، ترجمة ماهر الكيالي يوسف شويري، مراجعة: أسعد رزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت 1982.
- 95- جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة حنا الشاعر، دار الأندلس، الطبعة الثانية، بيروت لبنان 1982.
- 96- _____: الرواية التاريخية، ت: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد 1986.
- 97- _____: دراسات في الواقعية، ترجمة نايف بلور، المؤسسة الجامعية

- للدراسات، الطبعة الثالثة، بيروت 1985.
- 98- _____: نظرية الرواية وتطورها، ترجمة نزيه الشوفي، سوريا. 1987.
- 99- جيرالد برنس: قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الأولى، القاهرة 2003.
- 100- جيل فيريول: معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة أنسام محمد الأسعد، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، بيروت. 2011.
- 101- دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت 2007.
- 102- رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1998.
- 103- _____: من الشكلائية إلى ما بعد البنيوية، مراجعة: ماري تيريز عبد المسيح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2006
- 104- ستندال: صومعة بارما، ترجمة: جوزف إيان، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت 1983.
- 105- سير والتر سكت: ترجمة محمود محمود محمد، سلسلة عيون الأدب الغربي، عدد 02، القاهرة 1938
- 106- غوستاف فلوبير: التربية العاطفية، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت 1983
- 107- غي برفيلي: النخبة الجزائرية الفراكفونية 1880-1962، ترجمة م حاج مسعود، أ بكلي، ع بلعربي، دار القصبه للنشر، الجزائر 2007.
- 108- فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه: علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية اعلام وتواريخ وتيارات، ترجمة إياس حسن، دار الفرقد، الطبعة الأولى، دمشق 2010.

- 109- كاتب ياسين: نجمة، ترجمة: السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر 2007.
- 110- كارل منهايم: الإيديولوجيا والبيوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، ت: محمد رجا الدين، شركة المكتبات الكويتية، الطبعة الأولى، الكويت 1980.
- 111- ماكس فيبر: العلم والسياسة بوصفهما حرفة، ترجمة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت 2011.
- 112- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الرابعة، دمشق 2000.
- 113- ماري آن بافو، جورج إليا سرفاتي: النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ت: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت (لبنان) 2012.
- 114- محمد ديب: الحريق، ترجمة سامي الدروبي، دار الهلال، القاهرة 1970.
- 115- مختارات من أعمال ميخائيل باختين، الأسلوبية المعاصرة والرواية، ترجمة يوسف الحلاق، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة 2008.
- 116- مصطفى ولد يوسف: من أعلام الرواية الجزائرية مولود فرعون مولود معمري، دار الأمل، للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2012.
- 117- موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، المجلد الثالث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. دت.
- 118- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد بريدة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة 1987.
- 119- _____: شعرية دوستوفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، المغرب 1986.

- 120- مجموعة من المؤلفين: نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلايين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 1982.
- 121- لوبومير دوليزل: بنيوية مدرسة براغ، ترجمة: حسام نايل، موسوعة "كمبريدج في النقد الأدبي"، من الشكلاية إلى ما بعد البنيوية، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، مجموعة 8، عدد 1045، القاهرة 2006.
- 122- لوسيان غولدمان: الإله الخفي، ترجمة زبيدة القاضي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2010.
- 123- _____: مقدمات في سوسولوجيا الرواية، ترجمة بدر الدين عرودكي، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سوريا 1993.
- 124- ليو تولستوي: دم وخمر، سلسلة مطبوعات كتابي، الكتاب 42، القاهرة دت.
- 125- هنري جيمس: الأوروبيون، ترجمة توفيق الأسدي، دار المدى، الطبعة الأولى، بيروت 2015.
- 126- يوهان فولفجانج جوته: تاسو، ترجمة عبد الغفار مكاي، المركز القومي للترجمة، عدد 1358، القاهرة 2009.

رابعاً: المراجع باللغة الفرنسية

- 127 Albert Camus: Misère de la Kabylie. Editions La pensée, Alger 2014.
- 128 Amin Maalouf : Les Identités meurtrières, Editions Grasset & Fasquelle, 1998
- 129 Jacques Leenhardt « La sociologie de la littérature quelques étapes de

- son histoire», in «Revue internationale des sciences sociales», Volume XIX (1967), N° 4.
- 130 Ferdinand De Saussure: Cours de linguistique générale, Editions Talantikit, Béjaia 2002.
- 131 Madame de Stael : De la littérature considérée dans ses rapports avec les institutions sociales. Charpentier Libraire–éditeur. Paris 1860.
- 132 Jean Déjeux: La littérature Maghrébine d’expression Française.Col. Que-sais-je, P.u.f. Paris 1992.
- 133 Lucien Goldmann : science humaines et philosophie, édition delga, Paris 2014.
- 134 Mouloud Feraoun: L’anniversaire,édition du Seuil,Paris,1972.
- 135 -----: Le fils du pauvre, édition Talantikit. Bejaia 2015.
- 136 ----- : La terre et le sang, édition Talantikit. Bejaïa 2016.
- 137 ----- : Le chemin qui montent, édition Talantikit. Bejaia 2016.
- 138 «Myriem dans les palmes» O.P.U. Coll. Texte anciens. Alger 1985, Introduction de Lansari Ahmed,
- 139 Malek Haddad : Les zéros tournent en rond, The international Solidarity Movment. Article N° 14584. Vu le 08/04/2017 : <http://www.ism-france.org>
- 140 Paul Faulquié : Dictionnaire de la languephilosophique ; avec la collaboration de Raymond, Saint- Jean. Presses Universitaire de France. 1er édition, Paris,1962.
- 141 « le structuralisme génétique ». Edition Denoel/Gonthier. Paris, 1977.
- 142 Mohammed bencherif, Ahmed ben moustapha goumier. Edition EdiLivre. Paris sd.
- 143 Wadi Bouzar : La mouvance et la pause(Regarde sur la société algérienne). Société Nationale. d’Edition et de Diffusion. Alger 1983

خامساً: المجلات والحواريات والمواقع

- 01- أحمد كامل ناصر: أيديولوجية النقد الأدبي، الحوار المتمدن، العدد 4436، نشر بتاريخ : 27-04-2014.
- 02- ابراهيم العريس: تأملات حول الثورة الفرنسية لمدام دي ستايل، جريدة الحياة، <http://www.alhayat.com/article/442078>
- 03 - بشار عليوي: فرانسوا رابليه الاحتفاء بالموروث الشعبي، جريدة المدى، عدد 3568، السنة الثالثة عشر، دمشق 02-08-2016.
- 03- بوداود عمير: مولود فرعون ابن الفقير.. في دروبه الصاعدة، جريدة العربي الجديد، 09 أبريل 2017، [./https://www.alaraby.co.uk/culture/2017/4/9](https://www.alaraby.co.uk/culture/2017/4/9)
- 04- جمال شحيد: في البنيوية التكوينية، مجلة المعرفة، عدد 225-226، ديسمبر، سورية 1980.
- 05- جميل الحمداوي: التعريف بالشكلانية الروسية، صحيفة المثقف، مؤسسة المثقف العربي، نشر بتاريخ 05-07-2014.
- 06- _____: البنيوية التكوينية، صحيفة المثقف، مؤسسة المثقف العربي، عدد 4106، نشر بتاريخ 02-12-2017.
- 07- _____: يوري تينيانوف، صحيفة المثقف، ع 2881، نشر بتاريخ: 26-07-2014: <http://www.almothaqaf.com/qadaya2014/882661.html>
- 08- جونثان كلر: شعرية الرواية، ترجمة: السيد إمام، مجلة إبداع، العدد 07، 01 يوليو 1995
- 09- حميدة ميلود: أميل دور كايم خلفية تاريخية، جريدة الحياة العربية، العدد 385 / 24-09-1994.

- 10- حميد عبد القادر: جزأرتُ الحوارات للحفاظ على محلية الرواية، جريدة الخبر،
نشر بتاريخ: 2011-10-15:
<https://www.elkhabar.com//index.php?op=print&news=267717>
- 11- ريتا باسيل: وسيلة تمزالي امرأة مناضلة من الجزائر، جريدة الأخبار، نشر
بتاريخ: 2013-11-01، https://al-akhbar.com/Literature_Arts/59801
- 12- سيرج دوبروفسكي: النقد الجديد في فرنسا، عرض وتحليل: عبد الجليل غزالة،
مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، عدد 105، سوريا 2001.
- 13- شارل أندري جوليان، الموسوعة الحرة ويكيبيديا: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
- 14- طيب جاب الله: دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة
معارف، العدد 14، السنة الثامنة أكتوبر 2013.
- 15- عباس محمد رضا البياتي، إيناس كاظم شنباره الجبوري: عتبات البنيوية التكوينية
ونقاط انطلاقها، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية
والإنسانية، عدد 25، جامعة بابل، شباط 2016.
- 16- عبد الله خليفة: دوستوفسكي رواية الاضطهاد، الحوار المتمدن، ع4068، نشر
بتاريخ: 2013-04-20، <http://www.ahewar.org>
- 17- عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم
المعرفة، العدد 44، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،
الكويت 1998.
- 18- عبد المجيد إبراهيم قاسم: الحكاية الشعبية أهميتها عناصرها ووظائفها، مجلة
الحوار الإلكترونية، نشر بتاريخ: 2015-12-02،
http://alhiwarmagazine.blogspot.com/2015/11/blog-post_88.html
- 19- عثمان تزغارت: جان سيناك ثائرا (ومثليا) وشهيدا، جريدة الأخبار، العدد 417،
لسنة 2008.

- 20- عبد المجيد إبراهيم قاسم: الحكاية الشعبية أهميتها عناصرها ووظائفها، مجلة الحوار، نشر بتاريخ: 02-12-2015،
http://alhiwarmagazine.blogspot.com/2015/11/blog-post_88.html
- 21- كمال بومنير: من غيورغ لوكاتش إلى أكسل هونيث نحو إعادة بناء مفهوم التشيؤ، مجلة جامعة الجزائر 2، المجلد الثاني، العدد 04، أكتوبر 2013.
- 22- كوسلا ابشن: الهوية الأمازيغية لشمال افريقيا، موقع الحوار المتمدن، العدد 2725، <http://www.ahewar.org>
- 23- لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية وتاريخ الأدب، ت: علي الشرع، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 51-52، سوريا يوليو 1987.
- 24- مؤيد عبد الستار: أهمية الرمز الثقافي البحث عن سرفانتس/دون كيشوت، الحوار المتمدن، العدد 4506، نشر بتاريخ: 08-07-2014،
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=422923>
- 25- وين جين اويان: الجنون في الأدب العربي بين الحلم والذاكرة، ت: صالح الرزوق، مجلة ألف الإلكترونية، نشر بتاريخ: 01-10-2016
<https://aleftoday.info/article.php?id=12890>



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

	الإهداء
أ	مقدمة
01	الباب الأول: الرؤية للعالم من المنطلقات الفلسفية إلى الإجراءات المنهجية
02	الفصل الأول: الرواية والمجتمع من النقد الروائي الاجتماعي إلى النقد السوسيونيصي..
04	I- الرواية والمجتمع: مفاهيم أساسية
04	1- مفهوم الرواية
05	1-1 مفهوم الرواية عند الغرب
14	1-2 تلقي الرواية ومفهومها عند العرب
19	2- مفهوم علم الاجتماع
25	3- مفهوم علم الاجتماع الروائي.....
30	II- النقد الروائي الاجتماعي.....
30	1- النقد الروائي الاجتماعي والإيديولوجيا.....
36	2- قضايا النقد الروائي الاجتماعي ومقولاته عند لوكاتش
37	1-2 الكلية La totalité.....
38	2-2 الانحطاط La dégradation.....
40	2-3 البطل الإشكالي L'hero problématique.....
41	2-4 الانعكاس La réflexion.....
42	2-5 التشيؤ La réification.....
44	3- التنظير الروائي والأنماط الشكلية للرواية.....
48	أ- رواية المثالية المجردة.....
48	ب- الرواية السيكلوجية.....
48	ج- الرواية التعليمية.....
50	III- النقد السوسيونيصي عند باختين وببير زيمبا.....
50	1- الأشكال التكوينية للغة الخطاب عند باختين.....
54	2- الأنماط الإجرائية للنقدية الحوارية.....
55	1-2 تعدد الأصوات La polyphonie.....

56La stylisation 2-2 الأسلبة
57L'hybridation 3-2 التهجين
57	..L'interrelation dialogique des langues 4-2 تداخل العلاقات الحوارية للغات
58Les dialogues purs 5-2 الحوارات الخالصة
59Le carnaval 6-2 الكرنفال
61بيير زيما والنقد السوسيونصي 3-
63الفصل الثاني: البنيوية التكوينية والرؤية للعالم
65II - من البنيوية إلى البنيوية التكوينية
651- نشأة البنيوية
712- مراحل تطور البنيوية
711-2 مدرسة جنيف
722-2 الشكلايون الروس
743-2 حلقة براغ
774-2 مدرسة كوبنهاجن
803- نشأة البنيوية التكوينية
85II - المرجعيات المعرفية للبنيوية التكوينية
851- البعد الفلسفي
862- البعد النقدي
883- البعد الهرمنيوطيقي
91III - مفهوم البنيوية التكوينية ومبادئها الأساسية
911- مفهوم البنيوية التكوينية
911-1 مفهوم البنية
922-1 مفهوم مصطلح "التكوين" genése عند غولدمان
933-1 البنيوية التكوينية، المنهج والدلالة
972- الأدوات الإجرائية للبنيوية التكوينية
981-2 البنية الدالة Structure significative
1002-2 الفهم والتفسير La compréhension et l'explication
1001-2-2 الفهم La compréhension
1012-2-2 التفسير L'explication
1023-2 الذات العبر فردية Sujet-transindividuel
1044-2 مستويات الوعي

106La conscience réelle	1-4-2	الوعي القائم
108La conscience possible	2-4-2	الوعي الممكن
111La vision du monde	5-2	الرؤية للعالم
115	3-	الانتقادات الموجهة للبنوية التكوينية
120		الباب الثاني: الرؤية للعالم في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية "نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة" لمولود فرعون أنموذجا
121		الفصل الأول: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، البدايات والتحويلات
124	1-	الاحتلال الفرنسي بين دوافع الفرض وجدلية الرفض
124	1-	دوافع الاحتلال الفرنسي للجزائر
129	2-	الاحتلال الفرنسي وقصدية الحرب والإبادة
132	3-	الاحتلال الفرنسي والمقاومة في بلاد القبائل
135	II-	أثر الاحتلال الفرنسي على المجتمع القبائلي
134	1-	هدم الإطار القبلي
138	2-	التعليم ودور المرابطين والزوايا في تنمية الوعي وثقافة المجتمع
138	1-2	دور المرابطين والزوايا في المجتمع القبائلي
147	2-2	التعليم بمنهج استعماري
152	3-	خصائص المجتمع القبائلي وصورة الواقع الاجتماعي
152	2-4	المظاهر الاجتماعية في المجتمع القبائلي
154	3-4	البعد الديني في المجتمع القبائلي
156	III-	الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأبعاد الهوية الجزائرية
156	1-	الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، النشأة وملاح التطور
156	1-1	نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية
162	2-1	ملاح تطور الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية
171	2-	الهوية والثقافة وتحليلاتهما في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية
171	1-2	مفهوم الهوية والثقافة، المكونات والخصائص
174	2-2	علاقة الهوية بالثقافة
178	2-3	تمظهرات الثقافة الجزائرية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية
182	3-	الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأزمة الهوية
183	1-3	نحو احتلال الأدب الجزائري
184	2-3	آفاق الدمج الاستعماري الأدبي
186	3-3	من هو الكاتب الجزائري؟

190	- الفصل الثاني: الرؤية للعالم في روايات مولود فرعون "تجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة".
195	1- مولود فرعون، نشأته وأعماله.....
195	- 1- مولود فرعون.....
200	2- أعماله.....
204	3- ملخص الأعمال الروائية.....
204	3-1 نجل الفقير.....
208	3-2 الأرض والدم.....
211	3-3 الدروب الصاعدة.....
216	II- الترجمة وتحولات المعنى في البعد الإثنوغرافي.....
216	1- تقديم المترجمين لأعماله الروائية محل الدراسة.....
216	1-1 محمد عجينة (نجل الفقير).....
216	1-2 أحمد بن محمد بكلي (الأرض والدم).....
218	1-3 حنفي بن عيسى (الدروب الوعة).....
219	2- خصوصيات الترجمة من خلال العناصر الثقافية الواردة في الروايات الثلاث.....
219	2-1 جماعة Djema.....
220	2-2 خرابيب Karoubas.....
221	2-3 الأمين Lamin.....
221	2-4 الأمثال والحكم.....
223	2-5 عناصر ومحددات ثقافية أخرى.....
224	3- الترجمة وحدود النص.....
230	III- الرؤية للعالم في روايات مولود فرعون "تجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة".....
232	1- الفهم La compréhension وبنية الواقع والتحويلات.....
232	1-1 الوعي القائم Conscience réelle في الروايات الثلاث.....
233	1-1-1 المكونات الاجتماعية لأشكال الوعي القائم في الروايات.....
233	أ- المكان، بين بين خصوصية الانغلاق وتعددية الانفتاح.....
238	ب- تاجماعث.....
242	ت- الثقافة الدينية والمجتمع.....
248	ث- الفقر في زمن الاستعمار.....
251	ج- صورة الأنا والواقع الاجتماعي.....
252	ح- صورة المرأة القبائلية.....

255خ- الأسطورة والواقع
256د- الحكاية في عوالم رواية "نجل الفقير"
260ذ- الجنون كظاهرة عرضية
261ر- جنائزات الموت وتجليات الغياب
2632- النسق الروائي بين أبعاد الشكل وفلسفة المعنى
2631-2 الجمع بين التخيل والأتوبوغرافيا والتأريخ
2642-2 تنويع البداية والنهاية السردية
2663- البنية الدالة
2724- التفسير L'explication ومنعرجات الرؤية/ من الوضعيات المضادة إلى التجاوز
2731-4 الوضعيات المضادة في الوعي الممكن
2782-4 من الوضعيات المضادة إلى التجاوز
2843-4 ملامح الرؤية للعالم في الروايات الثلاث
288الخاتمة
294مصطلحات
298ملحق صور
294المصادر والمراجع
310فهرس الموضوعات

ملخص:

حاولنا في هذه الدراسة المعنونة بـ «الرؤية للعالم في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية "نجل الفقير، الأرض والدم، الدروب الصاعدة" لمولود فرعون أنموذجا-دراسة بنيوية تكوينية» والتي تتدرج ضمن فصول ومباحث الدراسات النقدية الأدبية السوسولوجية، أن نتوغل في عوالم النصوص الروائية المختارة من خلال المنهج البنيوي التكويني الذي يُعد منهاجا قادرا على تفعيل آلياته البحثية في عوالم النظرية النقدية السوسولوجية، وهادفين بذلك إلى الإجابة عن أهم الأسئلة التي يثيرها هذا الموضوع، خاصة فيما يخص تقويم الرؤية للعالم من خلال الفروق بين أصوات الشخصيات في المتن الروائي محل البحث، والبحث عن كليات الوصول إلى بنية وتكوّن هذه الفئات الاجتماعية المندرجة ضمن نسق هذه الروايات في مقاربة بنيوية تكوينية، بحيث هذا ما حاولنا إجرائيا الاشتغال عليه على روايات مولود فرعون.

Résumé

Dans cette étude intitulée: (La vision du monde dans le roman Algérien d'expression Française: « Le fils du pauvre, La terre et le sang, Les chemins qui montent » de Mouloud Feraoun) et qui se situe parmi les champs et les recherches des études critiquo-socio-littéraires, on a essayé de pénétrer dans les mondes des textes romanciers choisis à travers la méthode structuro-génétique, qui est une méthode capable d'actualiser ses mécanismes pures dans les mondes de la théorie critiquo-sociologique, et on visant par là de répondre aux principales questions que le sujet interpelle, et surtout en ce qui concerne la valorisation de la vision du monde, à travers, les différences entre les voix des personnages dans le tissu romancier sujet de notre recherche, et

aussi la recherche sur les différents chemins qui mènent à la structure, et le comment de la genèse des catégories sociales qui entre dans le contexte de ses romans dans une approche structuro-génétique, et c'est cela qu'on essayé de chercher et de comprendre dans notre corpus de recherche, c'est-à-dire les trois romans de Mouloud Feraoun.